

منتديات المكتب العربية
www.tipsclub.net
Amly

-
- وعاشت بين أصابعه
 - أرجوك خذني من هذا البرميل
 - خيوط في مسرح العرائس

وعاشت بين أصابعه

كانت الفنانة هناء وصفى قد بدأت تعترف بينها وبين نفسها بأنها نهتز فوق القمة .. لم تعد كما كانت . الشركات السينمائية لم تعد تنهافت عليها وتحمل شروطها وتستسلم لأجرها الغالى كما تعودت .. والمخرجون السينمائيون أصبحوا لا يحاولون ملاحقتها ومطارحتها الغرام والركوع تحت قدميها حتى تقبل ترشيحهم لإخراج أفلامها .. وملحنو الأغاني خفت التنافس بينهم على اكتساب صوتهما حتى بدأت تبذل مجهودا من جانبيها لتحرضهم على خصصها بألحانهم .. حتى الصحف .. إن صورها لم تعد تنشر فى المجلات بنفس الحجم وفى نفس المكان ، وأخبارها أصبحت تنشر فى سطور قليلة باهتة ضمن بقية الأخبار ..

وهى واثقة أنها لم تفقد شيئا من قيمتها الفنية ، ولا من شبابها ولا من جمالها ، ولكن لعل الغرور .. لعلها أصيبت بغرور النجاس فتكاسلت وأهملت نفسها فى معركة المنافسة بينها وبين غيرها من الفنانين .. إن مجال الفن كمجال الإنتاج ومجال السياسة تسيطر عليه معارك المنافسة .. إن الزعيم الوطنى يظل يحارب ويقاوم المنافسة فى سبيل الاحتفاظ بزعامته حتى يموت ، وكذلك الفنان مهما بلغت قيمته وحتى بعد أن يصل إلى الزعامة الفنية .. وقد عاشت أم كلثوم وعبد الوهاب فى معركة مستمرة بينهما حتى يحتفظ كل منهما بزعامته

فى مواجهة الآخر .. وعبد الوهاب عاش فى معركة مع فريد الأطرش ثم احتوى عبد الحليم حافظ تحت قيادته بحيث لم يعد خطرا عليه .. وأم كلثوم رغم طغيان زعامتها الفنية عاشت تدافع عن هذه الزعامة حتى آخر أيامها .. استطاعت وهى لا تزال فى بدايتها أن تزيح من طريقها منيرة المهدية ثم فتحية أحمد ، ثم بعد أن ظهر جيل جديد لمعت فيه أسمهان دخلت أم كلثوم فى معركة عنيفة معها .. معركة على جميع الجبهات .. لتبقى محتفظة بزعامتها الفنية ... بل إن أم كلثوم لم تكن تستسلم لظهور أى فنانة لها قيمتها فى أى بلد عربى .. فلم تستسلم لظهور فيروز فى لبنان بل سلطت عليها كل فنها وكل ذكاؤها فى معركة واسعة ظلت أم كلثوم خلالها محتفظة بالشخصية الفنية الأولى .. وأكثر من ذلك أن أم كلثوم لم تستسلم حتى لعبد الحليم حافظ ودخلت معه فى معركة حتى يبقى داخل حدوده دون أن يعتدى على حدودها ..

إن الفن كالجوهر الغالية فى حجة لأن يدافع عنها صاحبها حتى لا تسرق أو تضيع أو يذوى ضوؤها .. ومعارك الدفاع فوق القمة أفسى وأعنف وأمر من معارك أصحاب الجواهر الصغيرة الذين يقيمون على سفوح الفن .. ولكن الغرور دفع الفنانة هناء إلى أن تتصور أنها أكبر من أن تدخل معركة فنية مع أى فنان آخر .. أو دخول المعارك .. إن نجاحها الفنى فتح لها حياة خاصة واسعة أصبحت أشبه بسوق المصاغ والجواهر لا يتردد عليها إلا الأغنياء ولا يشتري منها إلا الأكثر غنى من آخر .. إن شخصيات دول البترول وشخصيات الطبقة الحاكمة فى كل الدول العربية أصبحت تهافت عليها وتطرق بابها لتلقى تحت

أقدامها بالهدايا الغالية كأنها قربان يقدم فى معبد الفن .. وقد حسبت قيمة الهدايا التى وصلتها خلال ثلاثة أشهر فوجدتها أضعاف ما تحصل عليه من السينما ومن الحفلات الخاصة فى ثلاثة أعوام ، حتى أصبحت تستهتر بهذا الدخل وتأمر بتوزيعه على العاملين فى استديوهات السينما أو على أعضاء الفرق الموسيقية .. أصبحت فى غنى عن إيرادات الفن .. عن ثمن الفن .. وأصبحت بعد أن كانت تعمل فى أربعة أفلام سينمائية كل عام تكفى بفيلم واحد ، وبدل أن تشتبك فى المسرحيات أعلنت اعتزالها المسرح وبدل أن تقيم حفلة عامة كل شهر أصبحت تقيم حفلة واحدة فى العام كله .. إن الفن أصبح بالنسبة لها مجرد مزاج أو هواية وليس حرفة تمتص كل حياتها ، ويكفيها هدايا وشيكات مشايخ البترول وحكام العرب .. إن أم كلثوم كانت تتلقى أيضا مثل هذه الهدايا أو الهبات بل قطعاً إنها حصلت من فصوص الماس ومن الجواهر والذهب ومن قطع السجاد ومن السيارات ومن كل أنواع الهدايا الغالية على أضعاف أضعاف ما حصلت عليه هناء ، ولكن أم كلثوم كانت أذكى من هناء وكانت تعلم أن هذه الهدايا لا تقدم لشخصها ولكن تقدم لفنّها فلم تستطع حياتها الشخصية أن تأخذها من حياتها الفنية .. لو ضاع فنّها لضاعت معه الهدايا .. فلم يستطع أى إغراء أن يأخذها من الفن ، وكانت تطلع على بابها أمراء ومشايخ البترول إلى أن تنتهى من إعداد أغنية جديدة قد يستمر إعدادها شهراً أو شهرين .. أو ثلاثة .. ومعروف أنها لطعت أحد مشايخ البترول على بابها أكثر من خمسة أعوام لم يكف فيها عن ثمر الماس والذهب تحت قدميها إلى أن قبلت أخيراً أن تغنى له أغنية خاصة كان يلح فى طلبها .

وعبد الوهاب قد جعله الفن معبودا للنساء .. نساء الطبقة الثرية صاحبة الملايين .. وقد أخذ منهم الكثير ولكن لم تستطع واحدة منهم أن تأخذه من فنه .. بل إنه تزوج سيدة غنية وهو لا يزال أقرب إلى عمر الصبا ولم يستمر زواجه سوى أيام لأن كل غناها لم يستطع أن يلهيه عن فنه ..

ولكن ربما كانت شخصية هناء تختلف عن شخصية أم كلثوم ، فهي شابة صغيرة وهي جميلة وإحساسها بشبابها وجمالها أقوى من إحساسها بفنها ولذلك كانت تتلقى هذه الإغراءات التي تحيط بها كأمراة لا كفنانة دون أن تكتشف أن الرجل الذي يصل إليها لا يتباهى بأنه وصل إلى امرأة جميلة ولكنه يتباهى بأنه وصل إلى فنانة ، ويتفاخر بترديد اسمها وحكاياته معها أمام أصدقائه وفي مجالسه لأنها معروفة ومشهورة لا لمجرد أنها امرأة جميلة ..

إنها وقعت في نفس الخطأ الذي يقع فيه أحيانا الفنان عبد الحليم حافظ ويتصور أن ذكائه واتصالاته الشخصية أقوى من فنه .. وقد استطاع بذلك أن يكسب صداقة كثير من مراكز القوى العربية وبين أصدقائه ملوك وبينهم أغنياء رجال الأعمال وبينهم حكام وبينهم بنات أكبر العائلات ، وهذا النجاح يتغلب أحيانا على فنه فأصبح يغيب عن الفن في زيارات عمل لأصدقائه الكبار .. أصبح أقرب إلى رجل أعمال منه إلى فنان .. بل أصبح ذوقه في العطاء الفني أقرب إلى ذوق أصدقائه من الملوك والأمراء والمشايخ منه إلى ذوق الرجل العادي الذي ينام على رصيف الشارع الفني .. وقل إنتاجه كفننان واعتزل السينما وأصبح لا يقيم حفلات عامة إلا في مواسم السياحة ليضمن

وجود أفراد الطبقة التي يحتاج إليها كرجل أعمال .. ولكن ذكاء عبد الحليم حافظ كان يثور عليه أحيانا ويدفعه إلى أن يحسب حساب مصير الفنان .. كان يثور على نفسه كرجل أعمال ويستسلم للفن .. يعطى للناس شيئا جديدا ويعطى لنفسه حقنة فيتامين فنى تحفظ له مكانته وقيمتها الفنية إلى أن يعود رجل الأعمال ويتغلب على الفنان من جديد ..

وقد تأخرت هناء كثيرا حتى أحست بحاجةها إلى حقنة فيتامين فنى ، كان غرورها يعميها عن التقدير الصحيح لما وصلت إليه قيمتها بين الجماهير ، وربما لم يبدأ غرورها يخفت إلا بعد أن بدأت تلاحظ أن قيمة الهدايا والهبات التي تصلها بدأت تضعف .. إن بعض الشخصيات البرولية الذين كانوا يقدون عليها وفي يد كل منهم هدية لا تقل قيمتها عن قطعة ماس من حجم عشرة قراريط أصبحوا يزورونها بأيدي فارغة كمجرد استعادة ذكريات قديمة .. حتى صديقها مرتضى عبد الرحمن أبلغها تخليه عنها وابتعد عنها بعد أن أرسل لها معسكرته شيكا كأنه يدفع لها مؤخر الصداق .. إن قيمة الشيك أقل بكثير مما كانت تتظره ..

وقد مر على هناء أكثر من ثلاث سنوات وهي معتمدة اعتمادا أساسيا على صديقها مرتضى .. وكانت ميزته بالنسبة لها أنه ليس من أثرياء دول البترول الذين يجرون وراء المظاهر ويتحدثون كثيرا عن علاقاتهم بالفنانين ، ولكنه ثرى محلى .. مصرى .. رجل أعمال قديم استطاع أن يحتفظ بثروته ويزيد عليها بعد الثورة .. وهو عجوز يقول إنه في الثانية والخمسين ولكنه قطع لا يقل عن الخامسة والستين وإن

تبقى في لندن عشرة أيام فأقامت شهرين ، وأرسلت إلى القاهرة لنشر الصحف أنها تعالج نفسها هناك .. وبعد ذلك أصبحت تقضى كل عام ثلاثة أشهر على الأقل في قصرها هناك .. في لندن .. بل إنها في العام الثالث قضت ستة أشهر كاملة وتحملت الكثير من الإشاعات التي أحاطتها خلال غيبتها ، وكلها إشاعات لم تصل إلى اكتشاف صديقها محروس العبد الله فهي لم تكن تلتقي به أبداً في لندن ، وأصدقاؤهما هناك كانوا بضعة أفراد ليس من طبيعتهم نشر الفضائح ، وهو نفسه كان مصاباً بداء الصمت فلا تخرج منه كلمة تكشفها أمام الناس ، وعلى قدر ما كانت تستريح لصمته كانت أحياناً تضيق به .. تريده أن يتكلم .. أن يثرثر .. يسليها بكلامه وثرثرته ، وقد كان يتكلم أحياناً ولكنه لم يثرثر أبداً .. وهى تزداد تعوداً عليه كأنها أدمنته .. أدمنت كل شيء فيه حتى صمته ، بل إنها مرت بها فترة فكرت أن تتزوجه ، وقد عرض عليها الزواج فعلاً ، ولكنها قاومت التفكير في الزواج حتى رفضته .. كانت تعلم أنها لو تزوجته فكأنها تنازلت عن كل شخصيتها الفنية ، ولا شك أن أكثر ما يشده إليها ويربطه بها هو قيمتها وشهرتها الفنية .. إنه لا يحس وهو معها أنه مع مجرد امرأة تعجبه ولكنه مع الفنانة هناء وصنى المعروفة المشهورة ، ثم إنها عرفت منه أنه زوج لثلاث من نساء بلده ، سعوديات ، وسبق أن تزوج اثنتين واحدة علوية من سوريا والثانية كردية من لبنان ، ولو تزوجته لأصبحت مجرد واحدة من الحريم .. حريمه الخاص .. وربما تركها في السعودية وخرج يبحث عن امرأة أخرى .. لو تزوجته لأصبحت كالشحنة الغالية التي يشتري مثلها كثير من العرب لمجرد أنها غالية ثم يضعونها في

البيت وينسونها .. لو تزوجته لأراحته من انتظارها أو من حرصه على مرضاتها حتى يطمئن إلى أنها ستعود دائماً إليه .. لا .. لن تتزوجه .. وكان قد مر على صداقتهما أربعة أعوام عندما سافرت إليه في لندن وكان في استقبالها في المطار ليعتذر لها بأنه لن يستطيع أن يصحبها إلى القصر الذي تعودت أن تقيم فيه لأن زوجته أو على الأصح إحدى زوجاته تقيم فيه مع أولادهما ، وأنه قد اشترى شقة في عمارة تطل على حديقة هايدبارك لتقيم فيها .. وصدمت .. كانت قد تعودت على هذا القصر حتى أصبحت تحس أنه قصرها .. ملكها .. بل أنها كانت تسافر إلى لندن لتعيش في هذا القصر لا لسجد أن تلتقي به .. ثم إنه كان يستطيع أن يأخذ زوجته لتقيم في أى مكان آخر غير قصر ذكرياتها ، بل إنه لم يتعود أن يدعو واحدة من زوجاته إلى لندن ، وكان أولاده يأتون إليها وحدهم ويرسلهم في دراسات صيفية داخل الجامعات أو يتركهم يقيمون بعيداً عنه وعنهما .. ثم إن هناك شيئاً غير فيه .. إنها تحس في صمته بنوع من البرود لم تتعوده ، وابتسامته اتسعت عما كانت عليه فأصبحت ابتسامة مفتعلة .. ثم فوجئت بأن الشقة التي اشتراها لتقيم فيها قد اشتراها باسمها هى لا باسمه .. وفهمت .. إن هذه الشقة هى هدية الوداع وهى هدية غالية لا تقل قيمتها عن أربعين أو خمسين ألف استرليني .. شكراً يا صديقى العزيز .. ووجدت نفسها تتخلص بسرعة من شخصيتها كامرأة وتستعيد بسرعة شخصية الفنانة المعروفة المشهورة وتعامله كأحد المعجبين الذين يلقون الهدايا الغالية فى معبد الفن .. وزياراته لها بدأت تتباعد وأسلوبه فى لقائه أصبح أسلوب صديق لا أسلوب عشيق .. ثم

تبقى في لندن عشرة أيام فأقامت شهرين ، وأرسلت إلى القاهرة لتسهر الصحف أنها تعالج نفسها هناك .. وبعد ذلك أصبحت تقضى كل عام ثلاثة أشهر على الأقل في قصرها هناك .. في لندن .. بل إنها في العام الثالث قضت ستة أشهر كاملة وتحملت الكثير من الإشاعات التي أحاطتها خلال غيابها ، وكلها إشاعات لم تصل إلى اكتشاف صديقها محروس العبد الله فهي لم تكن تلتقي به أبداً في لندن ، وأصدقاؤهما هناك كانوا بضعة أفراد ليس من طبيعتهم نشر الفضائح ، وهو نفسه كان مصاباً بداء الصمت فلا تخرج منه كلمة تكشفها أمام الناس ، وعلى قدر ما كانت تستريح لصمته كانت أحياناً تضيق به .. تريده أن يتكلم .. أن يثرثر .. يسليها بكلامه وثرثرته ، وقد كان يتكلم أحياناً ولكنه لم يثرثر أبداً .. وهى ترداد تعوداً عليه كأنها أدمنته .. أدمنت كل شيء فيه حتى صمته ، بل إنها مرت بها فترة فكرت أن تزوجه ، وقد عرض عليها الزواج فعلاً ، ولكنها قاومت التفكير في الزواج حتى رفضته .. كانت تعلم أنها لو تزوجته فكأنها تنازلت عن كل شخصيتها الفنية ، ولا شك أن أكثر ما يشده إليها ويربطه بها هو قيمتها وشهرتها الفنية .. إنه لا يحس وهو معها أنه مع مجرد امرأة تعجبه ولكنه مع الفنانة هناء وصفى المعروفة المشهورة ، ثم إنها عرفت منه أنه زوج لثلاث من نساء بلده ، سعوديات ، وسبق أن تزوج اثنين واحدة علوية من سوريا والثانية كردية من لبنان ، ولو تزوجته لأصبحت مجرد واحدة من الحريم .. حريمه الخاص .. وربما تركها في السعودية وخرج يبحث عن امرأة أخرى .. لو تزوجته لأصبحت كالشخصة الغالية التي يشتري مثلها كثير من العرب لمجرد أنها غالية ثم يضعونها في

البيت وينسونها .. لو تزوجته لأراحته من انتظارها أو من حرصه على مرضاتها حتى يطمن إلى أنها ستعود دائماً إليه .. لا .. لن تزوجه .. وكان قد مر على صداقتها أربعة أعوام عندما سافرت إليه في لندن وكان في استقبالها في المطار ليعتذر لها بأنه لن يستطيع أن يصحبها إلى القصر الذي تعودت أن تقيم فيه لأن زوجته أو على الأصح إحدى زوجاته تقيم فيه مع أولادها ، وأنه قد اشترى شقة في عمارة تطل على حديقة هايدبارك لتقيم فيها .. وصدمت .. كانت قد تعودت على هذا القصر حتى أصبحت تحس أنه قصرها .. ملكها .. بل أنها كانت تسافر إلى لندن لتعيش في هذا القصر لا لمجرد أن تلتقي به .. ثم إنه كان يستطيع أن يأخذ زوجته لتقيم في أى مكان آخر غير قصر ذكرياتها ، بل إنه لم يتعود أن يدعو واحدة من زوجاته إلى لندن ، وكان أولاده يأتون إليها وحدهم ويرسلهم في دراسات صيفية داخل الجامعات أو يتركهم يقيمون بعيداً عنه وعنهما .. ثم إن هناك شيئاً تغير فيه .. إنها تحس في صمته بنوع من البرود لم تتعوده ، وابتسامته اتسعت عما كانت عليه فأصبحت ابتسامته مفتعلة .. ثم فوجئت بأن الشقة التي اشترتها لتقيم فيها قد اشترها باسمها هي لا باسمه .. وفهمت .. إن هذه الشقة هي هدية الوداع وهى هدية غالية لا تقل قيمتها عن أربعين أو خمسين ألف استرليني .. شكراً يا صديقى العزيز .. ووجدت نفسها تتخلص بسرعة من شخصيتها كامرأة وتستعيد بسرعة شخصية الفنانة المعروفة المشهورة وتعامله كأحد المعجبين الذين يلقون الهدايا الغالية في معبد الفن .. وزياراته لها بدأت تتباعد وأملويه في لقاءه أصبح أسلوب صديق لا أسلوب عشيق .. ثم

بدأت تسمع كلاما عن علاقة جديدة له مع امرأة سورية .. وصمتت .. أصبح يشكو من صحتها أكثر مما كانت تشكو من صمته .. وهى فى صحتها تعتمد أن تبدو مترفعة مغرورة كأى فنانة ناجحة .. وفى يوم واحد باعت الشقة التى اشتراها وأودعت فيها الضخمة فى البنك ، وربما كان من صالحها أن تحتفظ بها حتى يكون لها مقر فى لندن ، ومن يدرى قد ترتفع الأسعار فى السنوات القادمة ، ولكنها كانت تريد أن تنقع نفسها بأنها ليست مجرد امرأة عادية تملك شقة فى لندن ولكنها الفنانة الكبيرة التى تستطيع دائما أن تجد رجلا يدعوها إلى قصره ..

وعادت إلى مصر قبل أن ينقضى أسبوعان .. عادت وفى قلبها جرح .. هل كانت تحب محروس .. لا .. لقد كانت تحب الحياة التى يقدمها لها .. إنها لم تحب أبدا هذا الحب العبيط الذى يتحدثون عنه وتقع فيه النساء الساذجات .. إنها تحب ما يصل إليها لا ما تعطيه .. إنها تحب النجاح .. تحب الشهرة .. تحب الثراء .. تحب الفن عندما يعطيها لا عندما يأخذ منها .. تحب الموجود لا المجهول .. تحب اللحظات التى تسعدنا لا الأيام التى لم تأت بعد .. لا ..

لقد أحببت مرة هذا الحب الذى تعتبره الآن مجرد سذاجة .. كانت لا تزال فى الرابعة عشرة من عمرها . وكان اسمها أيامها سعاد محمد عبد العزيز ، لم تكن قد سميت بعد باسم هناء وصفى .. وكان الفن لا يزال بالنسبة لها هواية تتظاهر بها بين بقية البنات .. كانت تغنى وترقص بلدى وتمثل مقلدة كل مشاهير أهل الفن .. وقد عرفت

بهوايتها بين كل عائلات الحى فكانت تدعى مع أمها إلى كل لقاءات السيدات لتغنى وترقص وتمثل .. وكانت أيامها كلها لهوا صاخباً وكانت تملذ بمطاردة الصبيان لها إلى أن رأت عباس .. إنها لا تدري ماذا أحببت فيه .. ربما بهرها بزي طلبة كلية البوليس الذى كان يتمايل به أيام أجازته .. وربما أثارها أنه لم يحاول مطاردتها أو مغازلتها مما دفعها إلى أن تبدأ هى بمغازلته ومطاردته ، واستجاب لها فى كبرياء وعظمة ، وبدأت تعطيه .. كانت متعته فى أن تعطيه لا أن تأخذ منه .. لم تحس أبدا بأنها أخذت شيئا حتى وهى تعطيه بكرارتها .. لم تأخذ متعة ولا وعدا ولا حتى صورا زاهية لمستقبلها ، إنما فقط أعطته .. لذة العطاء كانت هى كل شيء تحس به .. تعطيه .. وترضيه .. تطيع أوامره .. وهو لا يريد لها أن تغنى أو ترقص إلا له وحده فامتنعت عن الرقص والغناء رغم تحايل صديقانها ورغم صرخات أمها ورغم أوامر أبيها .. كلهم يريدونها أن ترقص وتغنى بل إن كلا منهم لا يتصور لها مستقبلا إلا كمطربة أو راقصة ، ولكن عباس لا يريد .. وهى لم تمد تعطى إلا ما يريد عباس أن تعطيه .. وقد بدأ والدها يصحبها ويقدمها إلى بعض أهل الفن .. قدمها إلى محمد عبد الوهاب وإلى زكريا أحمد وإلى أحمد رامى وإلى عزيزة أمير وكثير من الذين كانوا يسيطرون على صناعة السينما أيامها .. لا يريد أن تكون حبيته مطربة أو ممثلة أو راقصة .. إن مستقبله كضابط بوليس يرفض ذلك .. فكانت ترفض أن تخرج مع أبيها فى طوافه بها على أهل الفن ، فإذا ألح تعمدت أن تخب أمه فيها ، وعندما أخذها إلى عبد الوهاب ليسمعه صوتها لعله يرسم لها مستقبلها ، تعمدت أن تغنى أمامه من مخارج

أنفها .. تعمدت أن تكون خفاء ، واستمع لها عبد الوهاب من خلال
ابتناسمة هادئة ثم قال ضاحكا :

— يا سلام .. شفايفك حلوة يا آنسة .. إنت بتاكلى بيهم ولا
بتاكلى من مناخيرك ..

وضربها والدها يومها علقه ساخنة تحملتها وهى سعيدة لأنها تعطى
حبيبها عباس ..

وهى امرأة فى الرابعة عشرة من عمرها تعيش فى انتظار أن تعطى
المزيد دون أن تأخذ .. ولكن عباس بمجرد أن تخرج فى كلية البوليس
اختفى من حياتها بلا حتى كلمة وداع .. وأيامها كادت تموت من
الصدمة ولكنها الآن تعرف أنه كان نهاية طبيعية لهذا النوع من الحب
الساذج .. نهاية لكل عطاء لا يقابله أخذ .. وبعد أن تحررت من
العطاء استسلمت لوالدها ليحملها إلى دنيا الأخذ .. أن تأخذ من
فنها .. وعرفت واشتهرت .. وبعدها بسنوات جاء عباس يحمل لها
باقة ورد .. ربما جاء لتعطيه كل ما وصلت إليه من فن ومجد وثراء ..
ورفضت أن تسمح له بالدخول وحمل لها الخادم باقة الورد ، وقلبتها
بين يديها .. إن ثمنها لا يزيد على خمسة وعشرين قرشا .. كل هذا لم
تأخذ ثمنه إلا خمسة وعشرين قرشا .

وهى لم تتزوج حتى اليوم ، ربما كان من حقها هى الأخرى أن
تحمل لقب عذراء الفن ، ولكنها مكتفية بإصرارها على لقب آنسة ..
الآنسة هناء وصفى ..

وهى الآن ليست فى حاجة لمن يعولها أو ينفق عليها .. إنها ثرية ..
فى منتهى الثراء .. وهى تخزن الألاف فى بنوك مصر وفى بنوك أوروبا

وفى دولاب ملابسها وتضع بعضها ودعة عند شقيقتها .. وهى أيضا
تملك عمارة وقطعة أرض فى منطقة الهرم .. إنها ليست محتاجة ..
ولكن الأخذ ليست قيمته فيما تأخذ ، ولكن فى مجرد الأخذ .. أن
تأخذ معناه أنها لا تزال فنانة ناجحة ولا تزال امرأة جميلة .. أن الأخذ
كالتصفيق .. تأخذ تصفيق الجمهور الواسع وتأخذ هدايا الجمهور
الضيق الذى يضم الأغنياء .. ولكنها تحس الآن أنها تفقده لذة
الأخذ .. وأنها تهتز بعنف فوق القصة التى وصلت إليها .. القصة
الفنية .. مضى الآن أكثر من عامين ولم يتقدم إليها أحد بعرض لتمثيل
فيلم سينمائى .. لقد تعودت على إلحاح منتجى الأفلام ، وكانت
تتباهى بأنها ترفض كثيرا من العروض فيلحون عليها بالإغراءات حتى
تقبل .. وفى آخر مرة تقدم إليها أحد المنتجين فرفضته فى انتظار أن
يلح عليها ، ولكنه خرج ولم يعد .. لم تعد تملك قوة الرفض ، ولا قوة
جذب الإغراءات .. وهى تستطيع أن تنتج فيلما لحسابها ومن أموالها
الخاصة .. ولكنها لم تنزل إلى هذا المستوى الذى ازدحم هذه الأيام
بنوع من الفئانات ، كل منهن تصادق رجلا من رجال البترول أو من
رجال الأعمال لينتج لها فيلما لحسابها ، حتى أصبح معظم الإنتاج
السينمائى الآن يمول عن طريق العلاقات الخاصة بين الفئانات
والأثرياء ، وربما لو اجتمع خمس من هذا النوع من الفئانات لاستطعن
أن ينشئن أكبر شركة للإنتاج السينمائى تنافس شركات هوليوود ،
وتزاول أعمالها فى دار تضم غرفة نوم وغرفة العقود .. لا .. لن تنتج
أبدا لحسابها الخاص ومن أموالها حتى لو ماتت من الجوع الفنى
واختفى اسمها بين الفئانات .. إن أكبر ما تعز به هو تهافت المنتجين

والمخرجين عليها .. هو أن يدفعوا لها لأن تدفع لهم ، وأن يكسبوا بها لا أن تكسب بهم ، وكل ما هناك أنها أهملت فيها مدة طويلة وأهملتهم .. ويجب أن تبدل مجهودا أكبر حتى تعود وتبرز شخصيتها في الوسط السينمائي والفني .. ثم إنها لن تتبع الطريق الذي تتبعه المطربات الأخريات ، حتى يهربن من دلال ونحكم الملحنين .. كل منهن تزوجت ملحنا .. فائزة تزوجت محمد سلطان .. ووردة تزوجت بليغ حمدي ، وفيروز تزوجت الرجائي ، وعابدة الشاعر تزوجت سيد إسماعيل .. و .. و .. كل منهن أصبح لها « ملحن شرعي » .. أبدا لن تبحث عن ملحن تتزوجه حتى لو كان عبد الوهاب .. إنها كأنها بذلك تضع فيها في صندوق زجاجي لا تستطيع أن تخرج منه .. كأنها تعيش العمر كله في لحن واحد ، وذوق فني واحد .. ثم إن الملحن الشرعي أبرد وأضعف من الملحن العازب ، إن بليغ حمدي أكثر تحررا في ألحانه مع أم كلثوم منه في ألحانه مع وردة .. شيء طبيعي فالزوج الملحن عندما يلحن لزوجه كأنه يساعد في أعمال المطبخ .. أبدا لن تشتري ملحنا وتزوجه كأنها تقبض عليه .. وصحيح أن المطربات المغتربات قد اكتسحن السوق .. فيروز اللبنانية ، ووردة الجزائرية ، فائزة السورية ، وعليا التونسية .. و .. و .. ولكنها تستطيع أن تسترد منهن السوق .. تستطيع أن تجدد زعامة أم كلثوم الفنية على كل العالم الفني .. ويجب أن تحاول .. يجب أن تتسى نفسها كأمراة وتعيش كلها في فنها .. وهنا ظهر في حياتها الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

إنها تعرفه من زمان طويل ربما منذ بدأت أولى خطاها في عالم

الفن ، ولكنها كانت دائما تعرفه من بعيد .. ولم تكن في حاجة إليه ولم يكن فيه ما يغريها به .. ولكن الأستاذ طاهر شيء كبير .. إنه يسيطر بشخصيته على عالم الفن كله .. يكفي أن يقول كلمتين ليرتفع فنان ويهوى فنان .. وهو صديق كل الكبار .. صديق عبد الوهاب وأم كلثوم ويوسف وهبي وفاتن حمامة .. و .. و .. إن مجرد صداقه لها قيمة كبيرة .. وفي الجلسات التي يتزعمها بنكاته اللاذعة وضحكاته وآرائه وأشعاره يتم كثير من الاطلاقات والصفقات الفنية .. وهي تعرف عنه كل هذا ولكن تحسب حسابه ولا ترضيه إلى أصدقائها .. كان يخيل إليها أنها ليست في حاجة إليه .. ومن يدرى .. ربما كان هو السبب في هذا الجفاف الفني الذي يحيط بها .. ربما كان في جلساته يذبحها بنكاته التي تصدر كأنها أحكام بطردها من عالم الفن .. ربما .. ولكنها يجب أن تسعى إليه .. إنها واثقة أنها تستطيع أن تستولي عليه .. وبعدها يصبح الأستاذ طاهر عبد الحميد هو السلاح الذي تسترد به كل وقتها فوق قمة الفن ..

وطاهر الأستاذ .. كان شخصية عجيبة في كل المجتمعات .. كان يستطيع دائما أن يفرض نفسه ويفرض ما يريد دون أن تكون له وظيفة رسمية تتيح له أن يفرض إرادته .. كان كل ما يرسم شخصيته هي مواهبه الخاصة ، وكان دائما واثقا مغرورا بهذه المواهب .. وربما بدأ نمروره منذ كان صبيا إلى حد أن تصور أنه ليس في حاجة إلى أن يتم تعليمه .. إن مواهبه تغنيه عن أن يكون تلميذا لمدرسين لا يصلون إلى مستوى الذكاء ولا إلى قدرته الخاصة في الوصول إلى العلم .. فعلا انقطع عن المدارس وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره وبدأ

يعلم نفسه .. أدمن القراءة وكان يفرط في إدمانه ، وإن كان بقى دائما لا يقرأ إلا اللغة العربية ، ولا يهتم إلا بما هو عربى .. لم يصل إلى مستوى عباس العقاد الذى استطاع أن يعلم نفسه علما واسعا يشمل العالم كله ..

وكان الأستاذ طاهر يعلم منذ البداية أنه ليس إنسانا وسيما .. لا وسيم الوجه ولا وسيم القوام .. كان قصيرا أقرب إلى قزم ، رفيعا كأنه بلا لحم ، ورأسه كبير ووجهه عريض كأنه يحمل فوق كتفيه حملا ثقيلا .. ولكنه منذ البداية أيضا استطاع أن ينسى الناس عجز وسامته بمقدرته على أن يشغلهم بحديثه .. منذ أيام صباه وأولاد الحسى يتجمعون حوله ليحكى لهم أى شىء .. يروى لهم قصصا ، أو يحكى لهم أخبارا عن أهل الحى ، أو يسمعهم أشعارا حفظها وأشعارا كتبها ، فى دقائق يصيحون ملك يديه يضحكهم أو يبكيهم ، ويشيرهم أو يخدمهم .. وبقي دائما هكذا .. موهبه الأولى هى الفن الحديث إنه فن أقوى تأثيرا من فن الكتابة والخطابة ومجاله أوسع .. إنه فن كل يوم وكل ساعة .. وقد نقل فنه — فن الحديث — إلى المستويات العليا .. مستوى الشخصيات التى تنزع كل مجال .. مجال السياسة ، ومجال الثراء ومجال الفن ومجال الصحافة .. وكان يتعمد الوصول إلى هذه الشخصيات .. كل الشخصيات على اختلاف مواقفها تجرى وراء طاهر عبد الحميد ليحكي لها السهرة بأحاديثه .. النحاس باشا يدعوه إلى جلسته ومحمد محمود باشا الذى يتزعم الحزب المعارض يدعوه .. وأم كلثوم وعبد الوهاب .. ويوسف وهبى وأنور وجدى .. وندوة « الأهرام » وندوة « المصرى » وندوة كلوب محمد على

وندوة نادى السيارات و .. و .. كل شخصية تعز وتفرح بأن الأستاذ طاهر يشترك فى سهراتها بأحاديثه ومواهبه .. ولم يكن الأستاذ طاهر يلبى أى دعوة .. كان دائما يعطى لنفسه حق الاختيار .. وكان الاختيار يقوم دائما على شىء يريده ويحققه دون أن يفصح عنه .. وكان أحيانا يتخذ موقفا معارضا عنيما ضد شخصية من هذه الشخصيات التى تمثل قمة المجتمع المصرى لمجرد أنها لا تحقق ما لا يفصح عنه .. وقد كانت أحاديث طاهر على قدر ما هى ممتعة على قدر ما يمكن أن تكون خطيرة .. وعلى قدر ما تخدم على قدر ما تهدم .. كان يستطيع بلباقته أن يضمن أحاديثه قصصا وروايات قد تطيح بوزارة وتلقيها خارج الحكم ، أو يجعل فنانة تطلق زوجها أو تهجر عشيقها ، أو يتسبب فى فشل مسرحية أو فيلم سينمائى أو القضاء على شاعر يحاول أن يثبت وجوده .. كان قوة ذاتية خطيرة ..

وكان فى شخصية الأستاذ طاهر خطأ آخر يختلف اختلافا كبيرا عن مظهره ، فرغم أنه كان يستقبل فى جميع الجلسات والسهرات استقبال الصديق لا استقبال المكانة الرسمية ، وترك له كل حقوق الصديق سواء كان جالسا مع رئيس وزراء أو زعيم من الزعماء إلا أنه كان يحس دائما فى دخيلة نفسه أن كل هذه السهرات ليست إلا مجال عمل .. وكلهم يضعونه فى مكانة معينة .. كلهم أسياده ، وكأنه مضحك الملك ، أو كأنه أبو نواس فى حضرة الخليفة .. وهو يجلس بينهم بعد أن يكون قد أعد كل كلمة يقولها وكل نكتة يطلقها وكل قصيدة شعر يرددها وكل خبر جديد يذيعه .. وهو يحس بالإرهاق من هذه الجلسات .. إرهاق لا يلدو عليه أبدا .. وهو يسعى بين حين

وآخر لأن يرتاح .. أن يجلس بين جماعة لا يحس بينهم أنه يعمل ويفتعل ويمثل .. وأن يجلس وهو يحس أنه سيد الجلسة .. أنه الرعيم .. أنه الأستاذ .. وكان يجد راحته بين الشبان الجدد الذين لا يزالون في الخطوات الأولى من معركة الحياة .. من النجاح .. وكان من بين مواهبه أنه يستطيع أن يكتشف المواهب الجديدة .. المواهب التي لا تزال معلقة على أغصان شجرة النجاح قبل أن تنضج .. فكان يلم حوله هذه المواهب الشابة ويدعوهم إلى جلسته في الليالي التي يعفى نفسه فيها من جلسات العمل .. هو الذي يختار من يدعوهم وهو الذي يدفع قيمة الحساب . ويجلس بينهم وكأنه جالس على العرش .. عرش العلم والفن والمعرفة .. ثم أنه الأستاذ .. أستاذ كل الأجيال الجديدة .. وكانوا يجلسون حوله وهم مبهورون بكل كلمة يقولها .. مبهورين بشخصيته .. تلامذة مبهورين بشخصية الأستاذ وينفخون فيه كل أحاسيس الأستاذ وغرور الأستاذ ومتعة الأستاذ .. وكان إحساسه بأستاذيته يدفعه إلى أن يشار كهم في مسؤوليتهم عن نجاحهم .. يراجع إنتاجهم ويتبع خطواتهم ، ويتوسط لهم لدى المسؤولين حتى يرتفع بهم إلى أعلى .

ولكن الأستاذ طاهر كان غريبا .. فلا يكاد واحد من الشبان الذين جمعهم حوله ينجح فعلا ويصبح ممثلا مشهورا أو مهندسا معروفا ، أو سياسيا له مجاله حتى يطرده من جلسته .. بل أحيانا يبدأ في إطلاق تشييعاته عليه .. التشييع الذي يصنعه في قالب نكتة .. إنه يحس كأن هذا الذي نجح قد تخلى بنجاحه عنه .. لم يعد تلميذه ولم يعد معتمدا عليه بل انضم إلى صف الشخصيات الهامة التي يعيش هو — أى الأستاذ

طاهر — معتمدا عليها .. وهو عنده من الأسياذ ما يكفيه وليس في حاجة لأن يضم إليهم سيذا آخر حتى لو كان هو الذي صنع هذا السيد أو ساهم في الوصول به إلى قصر السيادة .. كان هذا هو الأستاذ طاهر عبد الحميد الذي تجاهلته الفئانة هناء وصفى كل هذه السنوات التي عاشتها مغرورة تعطي حياتها الخاصة أكثر مما تعطي حياتها الفنية .. وبدأت تفكر كيف تكسبه ..

لا يمكن أن تبدأ الاتصال به لمجرد السؤال عن الصحة ، لقد مضى أكثر من خمس سنوات وهي لم تسأل أبدا عن صحته ، بل إنه سبق أن دخل المستشفى ليجرى عملية جراحية ولم تسأل عنه ولا حتى بياقة ورد ترسلها إليه نيابة عنها .. ربما الأفضل أن تتفق مع صديقتها فايزة على أن تدعوه إلى سهرة تقيمها وتدعوها معه يلتقيان لقاء صدفة .. ولكن لا .. إن لقاء الصدفة لا يكفي وقد تغلبها فايزة في الاستيلاء على طاهر .. يجب أن تجد عذرا للاتصال به اتصالا مباشرا .. أن تطلب منه مثلا أن تغني إحدى قصائده .. فعلا قضت أياما وهي تبحث له عن قصيدة .. إنها لم تعود أن تقرأ له ، بل لم تعود أن تقرأ الشعر عموما إنما فقط تغنيه .

ووجدت قصيدة قديمة عنوانها « صدى الآهات » اختارها لها ابن عمها محمود ، ثم رفعت سماعة التليفون بعد أن أعدت وحفظت كل كلمة تقولها .. وقالت في صوت متردد خجول من أيام غرورها :

— أنا هناء .. هناء وصفى .. و ..

وانطلق صوت طاهر يقطعها في كلمات ضاحكة :

— هناء .. متى عدت من القمر .. متى وصلت إلى الأرض ؟ ..
وقالت وقد أعادت لها ضحكة طاهر نقتها بنفسها :
— أنا كنت مريضة يا أستاذ طاهر وكنت أسافر إلى لندن كثيرا ..
لا بد أنك تعرف ..

وقال طاهر في صوته الضاحك :
— أبدا .. كلنا كنا نعتقد أنك صعدت إلى القمر مع أصدقائنا
الأمريكان وأن أهل القمر أمسكوا بك .. بعضهم قال إنك تزوجت
هناك وبعضهم قال إنهم أكلوك .. المهم الحمد لله على السلامة .. ما
هي أخبارك ؟ ..
وقالت ضاحكة :

— أخبرى أنى فى حاجة أن تقرضنى .. أن أستلف منك ..
وتغير صوت طاهر وقال ورنه جديده حنونة تنطلق مع صوته :
— أى شىء .. أأمرى ..

وقالت :
— أريد أن تسلفنى قصيدة أغنيها ..
وعاد طاهر يضحك قائلا :
— كنت أعتقد أنك فى حاجة إلى سلفة أكبر .. أفرعنى .. أى
قصيدة تريدن ؟ ..

قالت بسرعة :
— قصيدة صدى الآهات ..
وضحك طاهر ضحكة عالية ثم قال :
— يا هناء يا حبيبتي هذه القصيدة ليست لى إنها للشاعر عبد العظيم

فتحى .. هل تريدن أن أستلفها لك منه ؟ ..
وصاحت هناء كأنها تستغيث :
— لا .. لا .. لقد اخترتها لأنهم قالوا لى إنها لك .. أنت الأهم ..
اختر لى قصيدة من قصائدك ..
أرجوك يا أستاذ ..

وسكت طاهر برهة ثم قال فى رنة هادئة تنبض بالحرارة كأنه يلقي
قصيدة غزل :
— هناء .. الوسيلة الوحيدة هى أن أستلف منك بدلا من أن تستلفى
منى ..

وقالت هناء فى فرحة :
— تحت أمرك ..
قال :

— أنى أريد أن أستلفك أنت شخصا .. إن كل لمحة منك هى
بيت من أبيات الشعر .. وخطوطك أشبه بنغمات القوافى .. فدعيني
أستلف ملامحك وخطوطك وأترجمها إلى قصيدة شعر جديدة .. إن
الشاعر يعيش على اقتراض الجمال ..
وقالت هناء فى حياء مقتعل :
— اتفقنا .. لقد سلفتك نفسى .. تعال لتتناول العشاء عندى الليلة
لأسلمك السلفة ..

ووضع الأستاذ طاهر سماعة التليفون وبين شففيه ابتسامة ساخرة
يسخر بها من نفسه .. إنه يعلم أن هناء لم تتصل به إلا لأنها وجدت
نفسها فى حاجة إليه .. وهو يعلم أن أى فنانة لا تحتاج إليه إلا ليضمن

لها البقاء على القمة إذا كانت قد وصلت إليها .. أو ليصل بها إلى القمة إذا كانت لم تصلها .. وهناء وصلت إلى القمة ولكنه يعلم أنها وصلت بنفسها إلى حافة تكاد تسقط منها إلى الهاوية .. هاوية النسيان .. نسيان الجمهور لها .. وقد سبق أن احتاجت إليه فنانات كثيرات .. ربما كل الفنانات .. وكان يقع في الحب أحيانا .. أحب أكثر من مرة .. وكان يختار للحب أكثر الفنانات حاجة إليه .. الفنانة التي يحس أنها تبدأ به خطواتها الأولى .. يحس أنه أستاذها وخالق كيائها الغنى .. ولكنه كان دائما يعيش الحب بخياله أكثر مما يعيشه بواقعه .. وكان سرعان ما يضيق بخياله ويحس بحاجته إلى تجديد هذا الخيال فيهرب من هذا الحب .. أو ربما كان يقنع نفسه بالحب حتى يتحرر من عقدة وسامته .. قامته القصيرة كأنه قزم ، وقوامه الرفيع كأنه بلا لحم ، ورأسه الكبير العريض كأنه يحمل ثقلا فوق كتفيه .. إنه رغم هذا يجذب إليه النساء .. وخصوصا الفنانات .. ويجدن في مواهبه ما يغنيهن عن وسامته .. وفي أحاديثه وفي ضحكاته وفي ذكائه وفي خدماته ..

ورغم هذه الابتسامة التي كان يسخر بها من نفسه فقد كان قلبه يتأرجح في فرحة كبيرة .. إن هناك شيئا آخر .. إنها دائما بالنسبة له الأمل المفقود .. رغم أنه حاول كثيرا أن يضعها تحت رعايته ويدخلها بين أفراد هذا البلاط ، الذي يقدس مواهبه وذكائه .. إن عبد الوهاب وأم كلثوم من أفراد هذا البلاط ، ولكن هناء استعصت عليه ، فتجاهلته ، وانفردت بحياة بعيدة عنه ، وربما لهذا اقتربت من الهاوية وهي لا تزال في شبابها .. وهو فرح بأنها جاءت إليه .. وهو في حاجة

إلى الحب ..

وكان يعتقد أنه وصل إلى السن التي لا يحتاج فيها إلى الحب .. ولكن لا .. إنه يحب .. يحب هناء .. يحبها حتى وإن كان لم يجر بينهما سوى الحديث التليفوني وموعد لقاء .. وحمله خياله في لحظات كأنه يعيش الحب لأول مرة .. يعيش حبه الوحيد .. حب هناء ..

وقام يرتدى ثيابه استعدادا للقاء حبه .. وكان أشهر ما يعرف به طاهر هو أناقته .. الحلة من لندن والكرافت من إيطاليا والقميص من إيطاليا والحذاء باللي .. ولكنه في هذه المرة تعمد أن يكون أكثر أناقة ..

بكرمه ، وإنما الناس كلهم هم الذين ينشرفون بإكرامه وبدعوته إلى
الغداء والعشاء والجلسات والحفلات لمجرد الفرحة والتشرف
بوجوده .. إنه ليس فى حاجة إلى دعوة الصحفيين أو متعهدى
الحفلات أو منتجى السينما أو الشخصيات الرسمية .. إنه يفنه أكبر
منهم جميعا ، وتكفى ابتسامه أو كلمة حلوة يعطيها أو يشرفهم بقبول
دعوة هذا أو ذلك ، كل الفنانين الذين استمر وجودهم الفنى إلى آخر
العمر ، كلهم بخلاء .. وربما كان أحد أسباب هبوط عمر الشريف
إلى الدرجة الثانية من الفنانين العالميين هو أنه كريم وأنه متعلق بالمظاهر
الاجتماعية للطبقة الثرية .. يلعب القمار ويربى الخيل ويشترى الكلاب
مما جعل ثقل متاعبه المالية يشغله عن فنه ويضطره إلى قبول الظهور فى
أفلام رخيصة تهبط بمستواه .. ولكن هى — هناء — إنها ليست كريمة
وقد تعودت على أن تأخذ أكثر مما تعطى ، ولكنها الآن فى حالة
تفرض عليها الكرم إلى أن تسترد مجدها الفنى فتعود تأخذ أكثر مما
تعطى ..

وجاء الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

جاء يحمل بين ذراعيه لفافة كبيرة .. إنها تعرف ما فى هذه
اللفافة .. زجاجة من الويسكى وبعض المأكولات لزوم المزة .. إنها
اللفافة التى يحملها كل زائر ليل إلى فنانة رخيصة .. إلى هذا الحد
وصلت قيمتها الفنية .. إلى ما يساوى زجاجة ويسكى وبعض
المأكولات .. وصحيح أنها لم تصادق طاهر عبد الحميد ولم تختلط
به اجتماعيا بحيث يستطيع أن يقدر قيمتها الاجتماعية ، ولكنها كانت
تنتظر أن يقدر على الأقل قيمتها ومركزها كفنانة .. لا يهم .. يجب أن

قررت هناء أن تستقبل الأستاذ طاهر عبد الحميد كفنانة لا
كامرأة .. فنانة محترمة كأم كلثوم منذ كانت فى شبابها .. ومن يدرى
ربما كان لأم كلثوم فى شبابها قصص حب ولكنها كانت دائما
محترمة ، تعرف كيف تفرض احترامها .. وتعمدت هناء أن تختار ثوبا
لا يكشف عن شيء من أنوثتها .. وأن تعقص شعرها وتلون وجهها
بحيث لا تجعل من جمالها جمالا صارخا .. تعمدت أن تقلد أم كلثوم
كما تتصورها .. وحتى وهى تتفق مع الطباخ والسفرجى على تقديم
مائدة العشاء .. يجب أن يكون عشاء محترما ولا يقدم أى نوع من
أنواع الخمور .. لا يمكن أن تسمح أم كلثوم بتقديم الخمر فى بيتها
وإن كانت لم تسمح أبدا أن أم كلثوم دعت أحدا إلى العشاء أو الغداء ،
وكان يقال عنها إنها بخيلة .. ليست بخيلة على نفسها ولا على عائلتها
ولكنها بخيلة بخلا اجتماعيا .. وربما كان البخل هو إحدى الصفات
التي تميز الفنان الناجح فإن عبد الوهاب أيضا معروف ببخله وإن كانت
زوجته استطاعت أن تتحدى هذا البخل الاجتماعى وتفتح بيتها
لدعوات الغداء والعشاء .. إن البخل ميزة تترك للفنان التفرغ الكامل
لفنه وتجعله مطمئنا دائما إلى حياته الخاصة بحيث لا يشغل نفسه
بالحسابات والخوف من الإفلاس ، كما أنه صورة من صور الغرور
الفنى ، فالفنان البخيل يحس بأنه ليس فى حاجة لأن يتقرب إلى أحد

تحتمل ..

وقد دخل طاهر وهو يضحك ضحكة كبيرة وقال وهو يضع اللفافة على أقرب مائدة :

— جئت لألتقي بأهل القمر ..

وضحكت هناء ضحكة خافتة محترمة وقالت :

— أهلا وسهلا .. تفضل ..

وقال قبل أن يجلس وهو مستمر في ضحكته الكبيرة :

— ليس قبل أن أستعرض شكل أهل القمر .. أرجوك .. من أجل

خاضرى .. دورى بقوامك أمامى ..

وابتسمت في هدوء ودارت أمامه بقوامها الفاره المنسق وهو ينظر

إليها بعينين ملتصقتين كأنه يقرأ مستقبله .. مستقبل جبه .. إنه انتقل إلى

حالة الحب منذ حادثته بالتليفون .. كماداته .. يترك خياله يقرر له

حياته .. ولكن ما مصير حياته معها .. إنها أطول منه قامه وهو قزم وبدا

أكثر قزامة وهو واقف بجانبها .. يبدو كأنه رجل واقف بجانب عمود

النور .. لا يهم .. إن الحب يجمع دائما بين المتناقضات .. المرأة

البيضاء تضعف أمام الرجل الزنجى .. إن أزمة المجتمع الأوروبي

والأمريكى هى أن نساء يقعن بسهولة فى حب الرجال الزنوج ..

والرجل الرفيع يفضل أكثر المرأة السمينه التى تفضل هى الأخرى

الرجل الرفيع .. وكذلك الطويل والقصير .. كلما كانت المرأة أطول

فضلت الرجل الأقصر ، والرجل القصير يفضل المرأة الطويلة .. إن

كلا منهما لا يحس بنقص تجاه الآخر .. بالعكس .. كل منهما يحس

بأنه يكمل الآخر .. وأكثر من ذلك .. أن المرأة الجميلة تحس

أكثر برجولة الرجل الفحيح .. إن الرجل الجميل بالنسبة لها جنسيا كأنه أقرب إلى المرأة .. كأنه امرأة أخرى .. وأيضا بالعكس .. إن المرأة الأقل جمالا تحب جنسيا الرجل الأكثر جمالا .. إن هذا يبدو ظاهرا فى كل مجتمعات العالم .. وعلى كل حال فكل هذا لا يهم .. إن الأستاذ طاهر يعتمد دائما على موهبته أكثر مما يعتمد على شكله .. الموهبة التى استطاع أن يحقق بها كل هذا النجاح ، وكل هذه الشهرة فى كل المجتمعات .. موهبة الحديث .. كيف يضحك وكيف يبكى ، وكيف يكون مسلما وكيف يكون خطيرا ..

وهذأت عينا الأستاذ طاهر عبد الحميد فى مقتلته وتحولت نظراته إلى هناء كأنها نظرات حب .. حب ينطلق من خياله ويرسم فى عينيه كأنه آهات ..

وأجلسته هناء على مقعد ضيق أنيق كأنها تعمدت أن تختار هذا المقعد حتى لا يغوص بقصره ويجسده الرفيع فى مقعد آخر عريض متسع .. وجلست هى على مقعد آخر كأنها تعمدت ألا يضمهما مقعد واحد أو أريكة زيادة فى الحرص والاطمئنان ..

وانطلق طاهر يتحدث أحاديته الحلوة الذكية .. يروى لها قصص الشعر والشعراء ويحكى لها حكايات عن الفن والفنانين .. ومضى بأحاديثه طويلا ثم توقف قائلا ..

— ألن نشرب كأسا ؟ ..

وكان طاهر فى حاجة إلى كأس حتى يستعين بها على أن يعيش خياله .. أن يوح لها بحب أن يعد يده ليلمس يدها .. وقالت هناء باتسامة رجاء :

— أنت تعرف أنى لا أشرب ..

ونظر إليها كأنه لا يصدقها .. إنه فعلا لا يصدقها .. إنه يعرف عنها كل شيء دون أن تدري .. وربما لم يسمع أنها سكيرة ولكن ما يعرفه عن حياتها الخاصة لا يمكن أن يعفيها من الكأس .. ولكنه قال :

— أعرف .. لهذا جئت معى بكأسى ..

وهم أن يقوم ويمد يده إلى اللقافة التى حملها معه والتى كانت هناء قد تركتها حيث وضعها كأنها ترفضها ولا تريدها ..

وقالت هناء :

— أرجوك يا أستاذ ليس الآن ..

ونظر حوله نظرات متفتحة وهو يدور برأسه ، وقالت هناء بدهشة :

— عم تبحث ؟

وقال دون أن يتسم :

— إبنى أبحث عن الأستاذ الذى تخاطبنيه ..

وضحكت هناء قائلة :

— ليس هنا إلا أنت ..

أنا هنا لست الأستاذ أنا هنا اسمى طاهر .. وحتى أقنعك فإننى سأتنازل عن الويسكى لأن الذى لا يستطيع أن يستغنى عن الويسكى هو الأستاذ وليس طاهر ..

وضحكا طويلا ثم قطعت هناء ضحكتها كأنها خافت ألا يتوقف

الضحك أبدا ويضع عليها ما تريده من طاهر ..

وقالت :

— الحقيقة يا أستاذ طاهر و ..

وعاد يتلفت حواليه .. وابتسمت هناء قائلة :

— أسفة .. الحقيقة يا طاهر أنى أعيش أزمة فنية لا أدري كيف أخرج منها ..

واهتزت رموش طاهر كأنه فوجيء بحبيته وهى فى خطر .. فى مصيبة .. وهو يعرف أن هناء كفنانة قد فقدت الكثير وأن قيمتها الفنية تهتز بعنف بين بقية كبار الفنانين ، ولكنه لم يكن ينتظر منها أن تصرح له بذلك .. لقد تعود على أن يعيش النفاق .. إنه هو نفسه منافق لا يفصح أبدا عن حقيقته حتى عندما يضطر إلى الاقتراض ممن يعرفهم وهو غالبا يقترض ولا يرد المبلغ الذى يقترضه .. ولكنه عندما يقترض لا يعلن أبدا أنه فى حاجة إلى المال .. لا يستجدى ، ولكنه يغطى حالته بطرق مختلفة من طرق النفاق ويقبض قيمة القرض كأنه يمنح الطرف الآخر شرف إقراضه .. وهناء تقترض منه .. تقترض إنقاذه لها من أزمتها الفنية .. أن يلحق بها قبل أن تقع فى هاوية النسيان .. ولكنها لا تنافقه .. لا تكنفى باكتسابه ودفع ثمن إنقاذه لها بإغرائه بأنوثتها كما تعودت كثير من الفنانات .. إنها تصارحه بأنها فى أزمة فنية وكأنها ليست فى حاجة لأن تدفع ثمن هذا الإنقاذ ..

وقال طاهر كأنه يخفف عنها وهو يضحك ضحكة ضعيفة :

— السبب أنك متعالية .. فتزوجه .. لا تختلطين بالوسط الفنى ..

لا أحد مثلا فى الوسط الفنى إلا ويتصل بى أو ألقاه فى منتدى من المنتديات ، وأنت قد مضى عليك أكثر من خمس سنوات دون أن تتصل بى ودون أن ألقاك ولو صدفة .. وهذه العزلة أو العزلة التى جعلتك لا تعرفين أين تقع الأسواق الجديدة للفن .. السوق الفنية ليست هى

الآن الحفلات العامة ولا المسارح ولا حتى السينما .. السوق الآن هي سوق الكاست والتلفزيون .. والذي يتحكم في الأسواق الآن ليس أصحاب السوق المصرية ولكنهم أصحاب أسواق دول البترول .. إننى أعرف منتجين سينمائيين لا يهمهم الآن نجاح الأفلام في مصر ولكن يهمهم أولاً نجاحها في الكويت ودول الخليج .. إنهم يكسبون هناك أكثر .. ولذلك بدأت الأفلام تعتمد على نوع معين من المواضيع ومن الممثلات .. وكذلك في الغناء .. إن أحمد عدوية بيع في سوق الكاست أكثر مما يبيع عبد الحليم ، وعائدة الشاعر تبيع أكثر من نجاة .. والشعراء والكتاب هاجروا إلى دول البترول إما بأشخاصهم أو بإنتاجهم و .. و .. كل هذا أنت بعيدة عنه .. و .. وقاطعته هناك كأنها قررت أنها لن تستطيع أن تكسبه إلا إذا صارحته .. لن تستطيع أن تغلب على ذكائه إلا بأن تثير شففته عليها : — مهما كانت الأسباب فإن السبب الرئيسى هو أنى أهملت فنى .. أصبحت لا أغنى إلا كهواية .. لا أغنى إلا عندما يأتينى المزاج كأننى أغنى لنفسى لا للناس .. خيل إلى يوماً أنه يكفى أن أغنى كلمتين ليعيش الناس عليهما ستين ويكفى أن أمثل فيلماً فيعيش الناس فيه خمس سنوات .. ويكفى أن أمثل مسرحية ليكتفى الناس بها طول العمر .. كنت ضحية غرورى بنفسى .. وكنت ضحية الحياة السهلة .. ولمعت عيننا طاهر كأنهما امتلأتا بالدموع وقال فى صوت متهدج كأنه يكي مع هناك :

— لا تظلمى نفسك .. إن اسمك لا يزال فى القمة .. من لا يريد أن يمتع نفسه بفن هناك ..

وقالت وهى تبسم كأنها تسخر من نفسها :
 — إنك تحاول إن ترفه عنى بهذا الكلام .. أن الذين يعيشون فى القسم هم الذين يصدرون أوامرهم ويفرضون أنفسهم .. وأنا لم يعد لى أمر أستطيع أن أفرضه .. تصور أن عبد الوهاب مضى عليه أكثر من ستين وهو لا يسأل عنى بل يخل إلى أنه يتهرب منى .. وبلغ حمدى متزوج .. وكمال الطويل صاحب شركة إنتاج وإن كنت لا أعرف ماذا تنتج .. والموجى رغم طبيته إلا أنه صاحب مزاج ولا نستطيع أن نكتشف مزاجه .. وكذلك أصحاب شركات السينما لم يتقدم أحدهم إلى بشىء .. وأنت .. الشاعر المعروف .. متى عرضت على قصيدة أغنيها ومتى فكرت فى السؤال عنى لولا أنى سألت عنك ..
 ومد طاهر يده وربت على يد هناك فى حنان وقال وهو يكاد يكي فعلا :

— قلت لك إنهم مشغولون بالتلفزيون والكاست وأسواق البترول .. لا يهمك .. اعتمدى على ..
 وقالت كأنها تملى عليه مطالبها :
 — حتى الصحف .. لا أحد يهمه أن ينشر صورتنى أو يكتب عنى ..
 قال وهو يبتسم لها كأنه يعترف بحبه :
 — اعتمدى على أيضا وصديقى إن ما ينقصك هو أن تجدى من يستغل فنك وسأستغله أنا .. إنك أكبر من أن تحتاجنى إنما الناس كلهم فى حاجة إليك ..
 وطوال فترة العشاء لم يكف الأستاذ طاهر عبد الحميد عن ممارسة

فنه .. فن الكلام .. وكان قد ركز كلامه على أن يعيد لهناء نقتها بنفسها .. أن يقنعها بأنها ست الكل ، وأن يروى لها حكايات عن فنانين آخرين لتسخر منهم وتحس أنها أعلى منهم .. ونظراته تلمع دائما بالحب .. إنه يحبها وارتفعت درجات حبه بعد أن تأكد من مدى حاجتها إليه ..

وعندما هم بالخروج من البيت رفع يدها إلى شفتيه وقبلها .. لم يحاول أن يشب على قدميه ليقبلها على خدها ولكنه اكتفى بأن يقبلها قبلة أخرى على لحم ذراعها ..

وخرج دون أن يتناول قطرة من الويسكى .. غريبة .. لقد كان يخيل إليه أنه لن يستغنى أبدا عن الويسكى وقد كان يشربه في شبابه ليزداد انطلاقا ومرحا ولكنه الآن يشربه ليضمن التغلب على الأرق .. لينام .. إن الويسكى كأس خدومة تمنحك اللهو إذا أردت أن تلهو وتمنحك النوم إذا أردت أن تنام .. ولكنه لا يريد النوم ..

إنه في فراشه يعيش كله مع هناء .. وهو يريد أن يكتب لها شعرا تغنيه ، وهو لا يجد الشعر إلا من خلال العذاب .. أن ينقله خياله إلى تصور العذاب وأن يتعذب هو نفسه .. ووجد نفسه يرسم صورة لهناء كأنها قمة المأساة ويعيش هذه الصورة ويتعذب معها إلى حد أن يبكي .. يبكي فعلا .. ومن خلال دموعه يبحث عن أبيات الشعر .. كانت هذه هي طبيعته كشاعر .. وقد وجد البيت الأول من القصيدة ، ثم وجد البيت الثاني .. ودهمه نور الصباح وهو لا يزال جالسا في فراشه مع عذابه ودموعه وعلبة سحائر يكتب على ظهرها بقلم رصاص

رخيص ما يصل إليه من أبيات الشعر .. وانتشله الصباح من عذابه فنام ..

واستيقظ مع غروب الشمس .. استيقظ مع الحب ، وبمجرد أن فتح عينيه وجد نفسه منطلقا بكل حيويته وبكل نشاطه كأنه استعداد كل شبابه ولم يعد في حاجة إلى التأؤب والتمطى والاسترخاء الذي تعودته العجائز .. ومد يده إلى علبة السحائر وقرأ الأبيات التي سجلها عليها واتسم في فرح ، ثم جذب إليه آلة التليفون واتصل بهناء ، وصاح بمجرد أن سمع صوتها :

— وجدتك ..

قالت في دهشة :

— وجدتنى أين ؟

فقال ضاحكا :

— فى مطلع قصيدة .. كنت أعتقد أنى فى حاجة إلى أسابيع حتى أجذك ولكنى وجدتك بعد أول لقاء .. متى ألقاك ..

وقالت هناء فى فرح وهى تحس أنها بدأت تصل إلى ما تريد :

— الليلة إن لم يكن لديك ما يشغلك ..

وقال كأنه يتنهد :

— لم يعد هناك ما يشغلنى عنك ..

وقام من الفراش واستغرق مدة أطول فى تجميل نفسه ثم ذهب إليها ودخل البيت كما لم يدخله أمس .. لم يحس بتردد الضيف ولا بأصول زيارة الغريب ولكنه دخل كأنه صاحب بيت .. واندفع إلى حجرة الاستقبال دون أن يتبع السفرجى الذى فتح الباب .. ووقف برهة أمام

هنا يتطلع إليها وبين شفثيه ابتسامة كأنها قبله صامنة .. ثم ألقى بنفسه على الأريكة الواسعة دون أن ينتظر أن تختار له مكان جلوسه ، وقال في بساطة :

— تعالي بجانبى ..

ثم مد يده وأخرج من جيبه ورقة صغيرة كان قد نقل إليها أبيات الشعر التي سجلها ليلة أمس على علبة السجائر وقال وهو يعتدل في جلسته كأنه يعد نفسه للحلم الكبير :

— اقرئى ..

وقرأت هناء بعينها ثم صاحت :

— رائعة .. هائلة .. هذه أعجوبة يا طاهر ..

وكانت هناء لا تجامله ، إنها من كثرة ما غت الشعر ومن كثرة ما عرض عليها من قصائد أصبحت تتذوق كلمات الشعر فعلا حتى ولو لم تفهمها ..

وقال طاهر في بساطة :

— أسمعيني ما قرأته ..

وتلت هناء الأبيات بصوتها .. وقال طاهر بهدوء :

— مرة أخرى أرجوك ..

وتلت هناء الأبيات مرة أخرى وهي دهشة .. وقال طاهر في حدة :

— إنك تلتيني بلا إحساس ، كأنك تقرئين نشرة الأخبار أو كأنك

ترددى درساً في الأدب لطلبة المدارس الثانوية .. الإحساس يا هناء ..

الإحساس بكل كلمة وكل معنى .. الإحساس هو اللحن الأساسى فى

كل أغنية .. لحن يسبق اللحن الموسيقى .. والأغنية التى تغنيها

المطربة بلا إحساس تفشل حتى لو لحنها سيد درويش أو عبد الوهاب .. إن سر نجاح أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم هو إحساسهم بالكلمة والمعنى قبل إحساسهم باللحن الموسيقى .. للملحن حتى يلحنه لك كما يعطيك الشاعر إحساسه حتى تغنيه أرجوك .. أسمعيني إحساسك ..

وقالت هناء مبتسمة :

— كأننى أتلقى الدرس الأول ..

وقال طاهر وبين شفثيه ابتسامة مفتعلة :

— آسف لا أقصد ولكنى أعيش كلنى فى رسم هذه القصيدة و ..

وقاطعته هناء بأن بدأت تتلو البيتين وهى تحاول أن تبرز إحساسها بالكلمة .. بدأت كأنها تستعين بمواهبها كممثلة .. تمثل الكلمة وتمثل المعنى .. وظلت تعيد ترديد البيتين دون أن تتوقف إلى أن أحست بأنها اندمجت فيها فعلا ، لم تعد تمثل ، إنها تعيش الكلمات .. وطاهر بجانبها صامت سرحان كأنه يستمع إلى أسطوانة موسيقية بعيدة ثم فجأة صاح وهو يشد قلمه من جيبه :

— ورقة .. أى ورقة ..

وتوقفت هناء وهمت بأن تبحث عن ورقة ، ولكن طاهر شد كراسه صغيرة لمحها بجانب التليفون وفجها فى عجلة كأنه يخشى أن يضيع منه شيء وكب بيتا من الشعر .. ثم قال وهو لا يزال يعيش مع قلمه فوق الورقة :

— هناء لا تتوقفى .. أسمعيني أبيات البداية ..

وعادت هناء تردد البيتین بينما طاهر يردد كلمات لا تسمعها ، ويهز رأسه الكبير كأنه خروف يحاول أن يشق الأرض بقرنيه بحثا عما يأكله ثم يرفع رأسه ويشد بأصبعه فى شعر رأسه .. ومضت فترة .. ثم فجأة رفع القلم وكتب سطرا آخر عاد وتلاه بينه وبين نفسه ، ثم ألقى بالكراسة بعيدا فوق المائدة وانهار بظهره فوق حافة الأريكة وهو ينهج بأنفاسه كأنه عاد من مشوار طويل ..

وكانت هناء قد توقفت عن ترديد البيتین وقامت ومدت يدها إلى الكراسة لتقرأ ما كتبه طاهر ولكنه جذب يدها بعيدا قائلا :
— ليس الآن .. ليس قبل أن تأتى لى بكأس .. لن أعفيك هذه المرة ..

وابتسمت هناء ابتسامة حلوة واسعة وقالت :

— حاضر .. كل ما تريد ..

ودخلت وتعمدت أن تعود بزجاجة أخرى غير التى حملها معه طاهر فى لقاء أمس ، ربما لتقنعه بأنها لم تكن فى حاجة إلى ان يحمل لها شيئا ، وقال طاهر مبتسما :

— هذه زجاجة أخرى ..

وقالت هناء مبتسمة :

— هذه زجاجة من البيت وأريد أن أعودك أن تشرب ما فى

البيت .. إنه بيتك يا طاهر ..

ونظر إليها مبهورا وقال وهو يرفع الكأس إلى شفثيه :

— لم يعد لى بيت إلا حيث أجذك ..

وشرب طاهر الكأس ثم أخذ الكراسة وأخذ يتلو البيتین اللذين

كتبهما .. وهناء مبهورة .. مبهورة حقا .. ثم بدأت تتلوها هى الأخرى ، ثم تضيفهما إلى البيتین الأولين وتعود وتتلو وإحساسها يعيش بلا افتعال وبلا تعمد فى كل كلمة .. وأفكارها تتحرر أحيانا فتبحث بها عن الملحن الذى يمكن أن يلحن كل هذه المعانى .. إنها تريد أن تغنيها .. اليوم .. غدا .. لا تصبر ولن تحتمل قبل أن تغنيها ..

والسهرة طالت بين ترديد الشعر وحكايات طاهر الذى لا يتخلى عن الكأس .. ثم مديده لها وأمسك بيدها وجذب نفسه إليها ، وشب بعنقه وقبلها من خدها ثم حاول أن يتسلل بشفثيه إلى شفثيه ، ولكنها ابتعدت عنه بسرعة ورشاقة وهى تقول ضاحكة :

— أرجوك يا طاهر .. ليس بعد ..

وقال وهو يتوسل إليها بعينيه :

— إنك لا تدريين كم تعذبت يا هناء .. إن كل كلمة من هذه الأبيات هى رنين عذابى .. عذاب الحب .. أحبك يا هناء .. قالت :

— إنه ليس عذاب الحب إنه عذاب التمنى .. فدعنا نعيش فى هذا التمنى حتى تستمد منه الوحى إلى أن تنتهى من القصيدة .. قال :

— إنى أعيش الحب يا هناء ..

قالت :

— إن الحب لإحساس والتمنى رغبة .. والرغبة تتحقق وتنتهى فى لحظات والإحساس ينمو كبذرة الورد ويحتاج إلى وقت حتى يطرح الحب .. دعنا نجرد الحب من الرغبة حتى نطمئن إلى نمو البذرة ..

قال :

— أنا لست مجرد رجل يا هناء ..

قالت :

— أنا ضيعت نفسي عندما كنت مجرد امرأة .. أنا فنانة وأنت فنان .

واقتربت منه ومسحت على رأسه بيدها فى حنان وقالت :

— إبنى لا أرفضك ولكنى أبقي عليك ..

وقال :

— إنك ترفعين عذائى إلى مستوى أرقى .. تضعينى فى نعيم العذاب ..

— وأكمل كأسه وقام منصرفا ، وجرت وراءه هناء تعطيه الورق الذى كتب عليه أبيات الشعر ، وقال وهو يسرع الخطى كأنه يهرب منها :

— سأتركها معك إلى أن نلتقى غدا ..

ولم تنته القصيدة فى أيام .. ومضت شهور قبل أن ينتهى طاهر منها ، وكان يقضى ليلاته معها فى بيتها .. وحدهما .. يشرب الكأس ويطارحها الشعر ويروى لها النكات والحكايات ، وقد يصل ليلتها إلى أبيات أخرى من القصيدة وقد لا يصل إلى شيء .. ولم تكن هناء تبادله الكأس أبدا مصممة على أنها لم تعود الخمر وكانت فى الواقع تحس معه أنها فى حاجة إلى كل وعيها وكل ذكائها حتى تنقى ذكائه وتشرب من مواهبه .. وكان يذكرها بصديقها القديم الثرى العجوز مرتضى عبد الرحمن ، فقد كان يقضى معها مثل هذه الليالى ، ويروى لها

ذكرياته ويحدثها عن الفن أيام زمان ويسمعها تغنى أو تلقى أمامه مقطعا من مسرحية سبق أن مثلتها ثم يتركها دون شيء سوى بضع قبلات أكثرها فوق خديها وأقلها بين شفتيها .. ولكن هناك فارقا بين مرتضى وطاهر .. كان مرتضى لا يتردد عليها سوى مرة أو مرتين فى الشهر وطاهر يتردد عليها كل ليلة حتى تضطر أن تفتعل الحجج لترجع نفسها منه فى بعض الليالى .. ومرضى كان سخيا يتحمل ماليا أكثر مما تحتاج وأكثر مما تريد .. كانت تهر بسخائه .. وطاهر لا يتحمل أى نفقات بل إنها عودته ألا يحمل لها حتى الهدايا البسيطة وأن يجد زجاجة الويسكى فى البيت ولكنها أخذت منه صدق مساعيه لانتشالها من أزمتها الفنية وأخذت منه طعاما جديدا لقصائد الشعر .. لقد حفظها من الشعر القديم والحديث أضعاف ما كانت تحفظ وأصبحت تروى الشعر برنة جديدة كأنها تقلده .. وأخذت منه فن الحديث .. أصبحت تتكلم كما لم تكن تتكلم .. ثم أخذت منه صورا للناس المعروفين وللمجتمع بكل أطرافه ..

وقال لها يوما وفى عينيه نظرة جادة كأنه يتطلع إلى مشروع جديد :

— متى يوم ميلادك ؟

وقالت فى دهشة :

— لماذا .. إبنى أنعمد أن أنسى يوم ميلادى .. لا أم كلثوم لها يوم

ميلاد ولا عيد الوهاب وطبعاً ولا عبد الحليم ..

وقال فى جدية :

— إنه ليلة الأحد القادم .. وسنقيم حفلة هنا فى البيت ..

وقالت وهى تنظر إليه فى حيرة :

— لم أتعود أن أقیم حفلات فى بيتى ..
قال فى تسرع :

— سيكون حفلا ضيقا لن ندعو إليه أكثر من عشرة أو أقل .. إنك
فى حاجة إلى التقرب للمجتمع .. المجتمع الذى نحتاج إليه ..
قالت :

— ولكن الذين أعرفهم لست فى حاجة إلى خدماتهم والذين
أحتاج إلى خدماتهم بيتى وبينهم جفاء لأنهم تخلوا عني منذ فترة
طويلة ..

وقال كأنه قائد المسيرة :

— دعي الأمر لى ..

ثم رفع سماعة التليفون وبدأ يوجه الدعوات إلى حفل عيد ميلاد
الفنانة هناء وصفى .. دعا اثنين من رؤساء تحرير الصحف ، وثلاثة من
كتاب صفحات الفن المعروفين ووزير الثقافة ثم ثمانية لم تكن هناء
سمعت عنهم من قبل ثم عرفت أنهم من شباب الجيل الصحفى الجديد
الذين يتبنى طاهر مواهبهم ويحيط نفسه بهم ليتمتع بالحساس
الأستاذية .. وقال لها إن هؤلاء هم أهم المدعوين لأن الصحافة تعمل
بأصابعها لا برؤوسها وهؤلاء هم أصابع الصحافة .. وكان يوجه
الدعوة بأسلوب ضاحك كأنه يدعوهم إلى سماع نكتة ، ويقدم لكل
دعوة بحكاية مرحة عن هناء ثم اكتفى بالدعوات وأراح نفسه من
التليفون وهو يتسم ابتسامة مغرورة ..

وقالت هناء وهى فى حيرة :

— هل تعتقد أن الوزير سيأتى ؟

وقال ضاحكا :

— لو كنت دعوته كوزير لا عتذر ولكنى دعوته كصديق ولذلك
سيأتى بلا حرس وفى سيارته الخاصة وهو يمنى نفسه بليلة يتحرر فيها
وينرح ..
قالت :

— هل سأغنى ليتها ؟ ..

وقال كأنه يتهمها بالسذاجة :

— لا .. لا .. إنك أكبر من ذلك . إنك لا تدعين الناس لسماعك
بل الناس هم الذين يدعون أنفسهم .. وما دمت أنت الداعية فلا
تغنى ..

وفى اليوم التالى كان الأستاذ طاهر عيد الحميد فى زيارة صديقه
رفعت عبد الله عضو مجلس الشعب وصاحب مصانع المنطقة الحرة ،
وقال له فى بساطة :

— هل معك ثلثمائة وخمسون جنيهها ..

وقال السيد رفعت وهو يضحك .. إنه يضحك دائما ما دام طاهر
معه :

— خير يا أستاذ ..

وقال طاهر فى جدية :

— مشروع جديد ..

وقال السيد رفعت وهو يطلق ضحكة كبيرة :

— مشروع نسائى أو رجالى ..

وقال طاهر بجدية :

(خيوط فى مسرح العرائس)

— مشروع فنى ..

وقال رفعت مستمرا فى ضحكته :

— خلاص .. كله يرخص فى سبيل الفن ..

وفتح السيد رفعت درج مكتبه وأخرج دفتر الشيكات وقال من خلال ضحكته :

— ألا يكفى ثلثمائة جنيه فقط ..

وقال طاهر فى حدة :

— ولا ملهم ناقص ..

وأخذ الشيك كاملا وقال وهو يهم بالانصراف :

— حتى أكون صريحا فلا أعذك بأن أرد المبلغ قبل عام ..

واكتفى السيد رفعت بإطلاق ضحكة كبيرة ..

وكان طاهر قد قرر أن يتحمل نفقات الحفل الذى قرر إقامته فى

بيت هناء رغم أنها تحرم عليه أن يتحمل شيئا يدفعه من جيبه إلى حد

أنها ترفض هداياه وترفض دعواته ولم يكن هذا يرضيه .. إنه يريد أن

يشعرها بأنه رجل كامل يتحمل مسئوليتها كاملة حتى يضمن ربطها

بحاجتها إليه فلا تحتاج لأى رجل آخر .. وقد كان يتحمل رفضها

حتى يقنعها بأن كل ما يربطها هو الفن .. ولكن الآن وفى هذه المناسبة

لن يستسلم للرفض .. وهو يحصل على دخل كبير .. إنه موظف

رمزى كرئيس لدار الكتب العربية ومرتب يوازي مرتب وكيل وزارة

رغم إنه لا يتردد على دار الكتب إلا لبحث عن كتاب .. وهو عضو

فى سبع لجان فى سبع مؤسسات ويتقاضى عن كل لجنة مكافأة ثابتة

ولكنه يعتمد أكثر على قصائده .. ينشرها فى الصحف ويبيعها

للمطربين والمطربات ثم يجمعها فى كتاب ويحصل على حق الأداء

العلنى من الإذاعة والتليفزيون وشركات الأسطوانات والكاست سواء

فى مصر أو خارج مصر .. إنه يكسب كثيرا .. إنه فى قمة الثراء الفنى

فى حدود الفن الأدبى ، ورغم ذلك فهو مفلس دائما .. إن كل قيمة

المال عنده أن يتفقه .. أحيانا يبدو كأنه يتخلص من هذه النقود كأنه

يكرهها :..أو كأن كل ورقة جنيه ليست سوى عصفور محبوس فى

جيبه ويتمتع بإطلاق حريته بعيدا عن القفص .. ولذلك فهو يقترض

دائما ولا يهيمه أن يرد القرض لأنه يؤمن بأنه يقترض من ناس ليسوا فى

حاجة إلى رد القرض ، ثم إنه يحضر مهرات وليالى هؤلاء الناس ،

ويتحمل إحياء هذه الليالى بكلامه ونكاته وحكاياته .. إنه كأى فنان

يبيع فنه ، ورغم ذلك فهو لا يطالب بأجر هذه الليالى .. ونظير ذلك

فمن حقه قطعاً أن يقترض عندما يحتاج وألا يرد القرض ، وإن كان

يتعمد أن يرده فى صورة هدايا من كتاب يصدر له أو من أسطوانته

تسجل لأشعاره .. هكذا كان طاهر ..

وكانت هناء ملخومة قبلها بليال بالإعداد للحفل ، وفوجئت فى

صباح يوم الأحد بمندوبين من محل جروبى يدخلون البيت وهم

محملون بأطنان من متطلبات الحفل .. إنه طاهر الذى أرسل كل

ذلك .. وعدد المدعوين لا يزيد عن خمسة عشر ولكن طاهر أرسل ما

يكفى للاحتفال بمائة مدعو .. وزجاجات الويسكى والنبىذ والشمبانيا

تكفى خمارة ، ثم اتفق مع طاه وعدد من السفرجية كلهم من جروبى

لإدارة الحفل ..

وابتسمت هناء فى فرح هادئ وأحسست كأنها تلقت هدية من

أيها ، وعندما جاء طاهر قالت :

— أنت مجنون ولكن حلاوتك فى حناك ..

ثم انحنى فوق قامته القصيرة ثقله على خده ثم على خده الآخر ، وظلت ملتصقة به كأنها تعطيه الحق فى قبلة على شفيتها .. ولكنه أزاح وجهه بسرعة عن وجهها .. إنه ليس على استعداد الآن لأى نوع من القبل ، إنه يعد نفسه للحفل كأى ممثل يتفرغ لتقمص الشخصية قبل أن يظهر على المسرح .

وجاء المدعوون وكانت هناء تردد بينهم :

— لولا الأستاذ طاهر لما شرفتمونى ..

كأنها كانت تريد أن تضع لومها باعترافها بالفضل لصاحب الفضل .

وقال الوزير ضاحكا :

— إنك لم تجربى دعواتنا .. الدعوى لن أقبلها إلا منك ..

وقالت فى دلال :

— إننى أنتظرك بلا دعوة ..

وقال الوزير وهو يتذوقها بعينه :

— أنا والتلفزيون والإذاعة تحت أمرك ..

وهى تنتقل بين المدعوين تسمع من كل واحد حكاية أو تروى له حكاية إلى أن استولى طاهر على الحفل كله يروى نكاته ويشير جدلا ويرسم صورا مضحكة للشخصيات العامة ، ثم بدأ يروى الشعر والكل صامت كأنه يسمع أغنية جديدة لأم كلثوم ، وفجأة توقف وقال فى مرح :

— الليلة سأقدم لكم اكتشافى الجديد .. لقد سمعتم هناء تغنى

وسمعتوها على المسرح وفى السينما . ولكن أنا وحدى سمعتها تروى الشعر ، وبما أننا نعيش الاشتراكية فإن من حقكم جميعا .. من حق الشعب .. أن يطالب بأن تروى له هناء الشعر ..

وبدأت هناء تروى الشعر كما حفظت كلماته ومعانيه بإحساسها .. وبهت المدعوون .. لم يسمعا الشعر أبدا من امرأة بمثل هذا النغم وحلاوة الإلقاء .. وروت هناء شعرا للمتنبى ، ثم شعرا لشوقي واختتمت بشعر طاهر والمدعوون لا يريدونها أن تنتهى أو تختتم ..

وعلى مائدة العشاء كانت هناك « تورتة » عالية من خمسة أدوار .. لقد أخطأ طاهر إن هذا النوع لا يقدم فى أعياد الميلاد .. إنه لا يعرف .. أو ربما أراد أن يشتري أغلى شيء من كل شيء .. وكان فوق التورتة شمعة واحدة ، وقال طاهر معلقا ضاحكا :

— إن هناء تعتبر أنها ولدت الليلة من جديد ..

وبدأ المدعوون فى الانصراف وبقي طاهر وتركت هناء شفيتها له .. إنها أول مرة تتيح له شفيتها .. فقط شفيتها ..

وفى اليوم التالى بدأت الصحف والمجلات كلها تكتب عن هناء .. صورها تنشر كبيرة وأخبارها مطولة .. ولم توقف الصحف من يومها عن الكتابة عنها .. أحسنت أنها استعادت كل مجدها .. ثم ..

انقضت أيام وإذا بها تفاجأ بحرم الدكتور رمزى مصطفى طلبها فى التلفزيون .. إن رمزى مصطفى نائب رئيس الوزراء ومن أكبر

الشخصيات الهامة في المجتمع المصري .. وقالت حرم نائب رئيس الوزراء في صوت رقيق متواضع :

— إننا لم نتعارف .. أو على الأصح أنت لا تعرفيني ولكن كلنا نعرفك ونسمعك ونراك .. وقد دعوت بعض الأصدقاء في سهرة خاصة مساء غد فهل أحظي بك .. إنهم كلهم يريدون لقاءك .. وفوجئت هناء .. بهتت .. وقالت في صوت مرتج :

— يشرفني يا أفندم .. يشرفني ويسعدني .. وبعد أن وضعت سماعة التليفون بدقائق ، رن الجرس من جديد وعادت ترفع السماعة .. إنه طاهر يقول في صوت جاد كأنه رجل أعمال :

— هل اتصلت بك زوجة نائب رئيس الوزراء ؟

وقالت هناء وهي تتلقى مفاجأة أخرى :

— هل أنت .. لقد كنت أعتقد أنه مقلب دبر لى ..

وقال ضاحكا :

— إنه صديقى وقد طلبت من زوجته أن تدعوك ، فقرحت أكثر من

فرحتي بك ..

وقالت هناء في تردد :

— هل سأذهب معك ؟

وقال طاهر :

— لا يا عبيطة .. تذهبين لتقدمي نفسك شخصية مستقلة حتى

عنى ..

قالت :

— وهل أصبح معى فرقة موسيقية أو على الأقل عازف العود والكمان ..

وقال طاهر :

— لم أكن أعتقد أنك فى مثل هذه السذاجة .. هل سمعت أن أم كلثوم تلبى دعوة خاصة ومعها فرقة موسيقية .. إنك مدعوة دعوة تشرف بك لإحياء الحفل .. وبعد أن يلحوا عليك كثيرا وكثيرا جدا ، تغنين بناء على طلب الجماهير وسأنتق مع الأستاذ الحفناوى أن يكون قريبا منا هو والكمان حتى أدعوه بالتليفون قبل أن تغنى .. هل يكفيك الكمان ؟

وقالت هناء مبهورة :

— يكفينى ..

وقضت هناء ليلتها وهي ترتجف تخاف أن يضيع صوتها منها هناك .. إنها أول مرة تدعى فيها إلى هذا المجتمع وبصفتها الخاصة .. وقد نجحت .. نجحت في الحفل كسيدة مجتمع ونجحت عندما غنت .. وبدأت الدعوات تتوالى عليها من يومها من الذين التقت بهم وعرفتهم ومن الذين لم تعرفهم بعد .. أصبحت شيئا كبيرا .. أحسنت وهي في الخامسة والأربعين من عمرها بأنها استردت كل مجدها الذى عاشته في الثلاثين ..

وتمت القصيدة التى يكتبها طاهر ..

رائعة ..

كل كلمة فيها لم تغن من قبل ، وكل معنى خاطر جديد ..

وقالت هناء :

— تعتقد من يضع اللحن ؟

وقال طاهر وهو يتسم في زهو بنفسه :

— إن أضعف ما فيك هو سذاجتك .. إذا جريت وراء ملحن فأنت ضعيفة .. شحاذة .. ولكن انتظري أن يجرى وراءك كل الملحنين واختاري أحدهم كأنك تعطفين عليه بمجدك .. هكذا تعودت أنا .. وسأبدأ أولاً بنشر القصيدة ثم أنتظر ..

ونشرت القصيدة .. وأثارت ضجة .. واتصل عبد الوهاب بالأستاذ طاهر وقال بلهجة التي يستعملها عندما يريد أن يأخذ منك شيئاً :

— إيه ده كله يا أستاذ .. إيه ده كله .. أنا كنت عيان وخففتي يا

طاهر بالقصيدة بتاعتك ..

واتصلت به فائزة أحمد وصاحت :

— محمد ابتدا يلحن القصيدة يا أستاذ .. ما حدش حيفنيها الا

انا .. انت سمعت آخر غنوة غنتها ..

وبدأت فائزة تغني في التليفون وطاهر يقرأ في الصحف ..

ودخل عليه بليغ حمدي وهو منكوش الشعر وارم العينين وقال في أسلوبه المهدب :

— أنا ما نمتش يا أستاذ طاهر .. اسمح لي الحن القصيدة دي ..

إذا ما كنتش توافق على ورده اختار انت اللي تغنيها ..

واتصلت به شادية .. وقالت بحلاوة أنوثتها :

— طاهر .. القصيدة دي بتاعتني .. علشان خاطري .. اوعى

تزعلني ..

وبدأت الصحف والمجلات تتساعل عن سيغني قصيدة الأستاذ طاهر عبد الحميد ، ومن يتولى تلحينها واسم هناء يتردد كثيراً لأنها المطربة الأولى ولكن لأن صداقتها بطاهر قد أصبحت حديث الأوساط الفنية والأدبية .. إلى أن نشر في الصحف وبالخط العريض « عبد الوهاب يلحن وهناء تغني » ..

وكان عبد الوهاب ذكياً يعرف مدى ارتباط طاهر بهناء ، ومنذ قرأ القصيدة وأعجب بها وهو يلحن فيها وقد وضع مقاييسه الموسيقية على أساس أن تؤديها هناء .. وعندما ذهب إليه طاهر ليتفق معه على اللحن ، قال له عبد الوهاب :

— ما رأيك لو غنتها هناء ؟

وابتسم طاهر فهو لا يقل ذكاء عن عبد الوهاب ..

وابتسم عبد الوهاب فهو لا يقل ذكاء عن طاهر ..

واتصل عبد الوهاب بهناء وطاهر جالس معه ..

وفرحت هناء فرحة العمر .. إن عبد الوهاب يريد بها بعد أن مضى أكثر من عامين وهو يتهرّب منها .. وعندما ذهبت إليه تركها تحس كأنه لم ينسها أبداً .. كأنها تعيش معه كل يوم من أيام العمر بل إنه ذكرها بيوم أن رآها لأول مرة وهي صغيرة وقد جاء أبوها ليقدمها إليه لعله يصنع منها شيئاً وكيف تعمّدت يومها أن تغني من أنفها حتى يرفضها عبد الوهاب .. وقد رفضها عبد الوهاب فعلاً .. وبعد سنوات وبعد أن نجحت كمغنية على ألحان غيره لحن عبد الوهاب لها لحناً واحداً ثم أبعداها عنه بعد أن بدأ غرورها يأخذها بعيداً عن الفن .. وهو الآن يقبلها من جديد من أجل قصيدة أعجبته لا لمجرد أنها تغني ..

وقال عبد الوهاب لهناء وطاره جالس بينهما :

— غنى .. غنى أى شىء ..

وغنت هناء .. غنت وهى تحاول أن تقدم له كل ما يملكه صوتها .. وعبد الوهاب يطلب منها أن تغنى سيكا .. ثم يغير رأيه ويطلب منها أن تغنى نهاوند .. كأنه يبحث فى داخل صوتها عن الطريق الذى يختاره ليصل به إلى لحنه ..

واستغرق إعداد اللحن أربعة شهور .. أكثر .. ستة شهور .. وطاره دائما مع هناء فى معظم التدرجات الموسيقية ودائما مع عبد الوهاب ، وعبد الوهاب فرح به ، إن الاستيلاء على طاهر يعتبر كسبا كبيرا لكل شخصية .. وعبد الوهاب يتلذذ بأنه كسبه .. اشتراه بلحن ووضعه بجانبه ..

وكانت هناء قد اقترحت على طاهر أن يحتفظ بالأغنية بعد أن تسجلها لتخرج بها فى فيلم سينمائى .. إنها بذلك تبدأ حياتها الفنية فى صورة قوية .. فالفيلم يعرض كل يوم ويستمر طويلا ولحن لعبد الوهاب كقيل بإنجازه ..

ورفض طاهر بحدّة وصرخ :

— إن المطرب لا يمكن أن يثبت قيمته إلا بمواجهة الجماهير .. أم كلثوم كسبت الملايين من أفلامها الأربعة ولكن لم تعيش ولم تستمر إلا بمقدرتها على مواجهة الجماهير حتى آخر أيامها .. أى قدرتها على الوقوف على المسرح ..

وقالت هناء وهى تتحدث كتلميذة بليدة :

— ولكنى لن أكون وحدى على المسرح .. سأضطر أن أستعين

براقصة ومنولوجست وغيرهما .. حتى أملا الليلة .. لا أستطيع أن أعطى ليلة كاملة وحدى .. أنا لست أقوى من عبد الحليم أو من وردة أو من فائزة ..

وقال طاهر وهو يخطط بيده على ساقه :

— تستطيعين .. ستأخذين الليلة كلها وحدك .. أنت لست أضعف من أم كلثوم ولكنها أطول منك نفسا .. ولذلك لن تغنى ثلاث وصلات فقط كما كانت تغنى أم كلثوم فى شبابها ، ولكنك ستغنين أربعاً .. لأن وصلاتك لا يمكن أن تمتد بطول وصلات الست أم كلثوم ..

وقالت هناء وكأنها تهيم بالبكاء من قسوة الأستاذ :

— ولكن ماذا أغنى ؟

قال فى لهجة الأستاذ :

— أغانيك القديمة .. يجب أن تثبتى للناس أن نجاحك نجاح ممتد وليس نجاحا أنفذاً به عبد الوهاب أو طاهر عبد الحميد .. ستغنين أولاً أغنية قديمة .. ثم لحن عبد الوهاب .. ثم أغنيتين أخريين من أغانيك .. إنك لا تدرين كم يتمتع الناس بسماع الأغانى القديمة .. ليست الأغانى القديمة جدا كأغاني سيد درويش فحسب ، ولكن الأغانى التى لم يمر عليها سوى سنوات .. فكلها أغان تذكروهم بأيامهم القديمة ، كأنهم يرون أنفسهم فى اليوم صور الذكريات .. ولو غنت فائزة أحمد اليوم أغنية « يا أمة القمر على الباب » لنجحت بها أكثر من نجاحها ببعض أغانيها الجديدة ..

وهناء تعطى كل ما فيها استعدادا للحفل .. كل يوم فى بروفات مع

عيد الوهاب ثم تذهب إلى بيتها لتوالى بروفات أغانيها القديمة التي اختارها لها طاهر .. وطاهر دائما معها .. وبعد لكل شيء .. وكان يرمقها .. لا يريد أن يرحمها .. وكان يستبد بها التعب أحيانا فتقع على وجهها وتبكي .. تبكي من قسوة شهوة النجاس .. وطاهر الأستاذ .. الخالق .. لا يهدأ هو الآخر ولن يهدأ أبدا حتى يتم خلقه ، ولا يخفف عنه إلا متعته بأنه الأستاذ .. بأنه الخالق .. بأنه السيد .. إنه هنا هو السيد وليس مجرد متحدث موهوب يسلى بحدِيثه الأسياد .. أنه هنا لا يأخذ شيئا من الأسياد ولكنه يعطى .. يعطى الناس لأنه السيد .. لأنه الخالق .

وجاءت الليلة الكبرى ..

وكان الأستاذ طاهر عبد الحميد جالسا في الصفوف الأولى من صالة المسرح في انتظار رفع الستار حتى يرى ما خلق ..

— ٣ —

ونجحت هناء ..

عادت إلى عرش القمة في ليلة واحدة وفي حفل واحد .. وطاهر عبد الحميد جالس في الصف الأول يتطلع إلى هناء وهي فوق المسرح وإحساس غريب بدأ يزحف في داخله .. إن أذنيه مركّزان على تعليقات الجمهور وتجاوبه مع هناء ، وشيء ينتفض بداخله كلما سمع التصفيق الحاد .. وقد كان المفروض أن يكون سعيدا .. ولكنه ليس سعيدا .. إنه يحس كأن هذا الجمهور ليس سوى قبيلة متوحشة تهجم عليه لتخطف منه هناء .. يحس أنه نجار أو حداد كلف بصناعة تمثال وأن مهمته انتهت .. صنع التمثال وجاء صاحبه ليأخذه .. مهمته انتهت .. بالنسبة لهناء .. انتهى من صنعها ولم يعد أمامه إلا أن يتركها للناس ..

وفي مقطع من مقاطع أغنيته التي لحنها عبد الوهاب ارتفع التصفيق أكثر ، وكررت هناء المقطع مرة ومرتين وثلاثا .. وهو يكاد يحس .. يحس أنه يريد أن يقف بين الناس ويصرخ .. أنا الذي صنعتها .. صنعتها لي وحدي .. صفقوا لي لأنني صنعتها .. لا تصفقوا لها من غيري .. لا تأخذوها بعيدا عني ..

وعقدته القديمة تتحرك .. عقدة كراهية الأسياد حتى لو كان هو الذي صنع منهم أسيادا .. وهناء أصبحت منذ الليلة سيدة .. سيدة

الغناء أو سيدة الفن .. سيدة لا تحتمل أن يحيط بها إلا موظفو بلاطها الخاص أو الذين يستعبدونهم فيها . وسيجد نفسه يوما ما وهو يحاول أن يكسبها كما كان يحاول أن يكسب أم كلثوم .. وأن يناققها كما كان يناقق أم كلثوم ، وأن يخافها ويحسب حسابها كما كان يخاف أم كلثوم .. سيصبح بالنسبة لها مجرد مضحك الملك يسليها ويحى حفلاتها ولن تحتاج إليه بعد اليوم كأستاذ لها .. أو كقائد تستسلم له حتى يبنى بها المجد .. كسيد لها .. يصنعها ويخلق منها ما يريد .. وثورة السخط بدأت تستبد به ..

السخط على نصيبه ..

والسخط على هناء ..

هكذا في ليلة واحدة انقلب كل هذا الحب إلى كل هذا السخط .. وكانت وصلة الغناء قد انتهت وأسدل الستار في انتظار الوصلة التالية .. كان المفروض أن يقوم ويذهب إلى هناء في غرفتها خلف المسرح ليهنئها بنجاحها أو على الأقل ليقول لها رأيته .. ولكنه لم يذهب .. إنه يعرف أنه سيجد في غرفتها زحاما من المعجبين ومن الذين بدأوا يدعون صداقتها ، ومن مستمعيها القدماء الذين استردتهم بنجاحها هذه الليلة .. ومن صغار الصحفيين الذين يجرون وراء كل حدث جديد .. وسيكون هو هناك واحدا منهم .. وهو لا يقبل أن يكون بالنسبة لهؤلاء مجرد واحد .. لا يمكن .. وبقي جالسا على مقعده بالصف الأول ، وفكره الساخط يستبد به ..

— إنه يعرف أنه لا يمكن أن يجمع بينه وبين هناء الحب ..

إنه وحده الذى يحب ..

أما هي فلا يربطها به إلا حاجتها إليه ..

والحب له عمر ..

والحاجة لا عمر لها ..

إنها منذ الليلة ليست فى حاجة إليه إلا كشخصية عامة .. ليست أكثر من حاجة أى شخصية ناجحة أخرى له .. لن يربطها به هذا الرباط الذى ينفرد به دون باقى الرجال إلا استمرار حاجتها إليه .. إنه يعلم هذا ويحس به ..

ورفع الستار مرة أخرى وبدأت هناء تغنى ، وكل أذنيه مركزتان على سماع تعليقات الجمهور ويلتقط بهما التصفيق كأنه طلقات مدافع مترليوز ..

إنهم يأخذونها منه ..

وانتهى الحفل .. وانتهى التصفيق .. وقام من على مقعده يحاول أن يهدئ ثورته ويتحایل على نفسه حتى يتحرر من سخطه .. إنه يجب أن يذهب إليها الآن ويصحبها إلى البيت .. هذا هو واجب الأستاذ .. وحمل حشرتة على نفسه وسار إلى الباب الخلفى للمسرح ليدخل إليها .. ولكنه وجد زحاما يدخل قبله .. كلهم يريدون لقاء هناء ، وكلهم سيقذفونها بكلمات الإعجاب .. والإعجاب بهناء لا يمكن أن يقتصر على الفن إنه دائما يحمل الإعجاب بها كامرأة .. كأننى .. وسيكون واحدا من بين هؤلاء .. لا .. لا يمكن .. من الأشرف له أن يذهب إلى بيته حتى لا يبدو بين الناس كأنه مجرد واحد من المعجبين .. وقد يبدو هذا تعاليا .. ولكن التعالى ليس كثيرا عليه .. إن من حق الأستاذ الخالق أن يتعالى ..

وأشار إلى ناكسى وطلب من السائق أن يتجه به إلى بيته .. ولكنه بعد أن تحرك الناكسى بضعة أمتار عاد وطلب من السائق فى لهجة عصبية أن يتجه به إلى بيت هناء .. كأنه قرر الانتحار .. وفتح له الخادم الباب ، ودخل كمادته بلا استئذان ، وجلس حيث تعود أن يجلس فى انتظار هناء ..

إنها تأخرت .. الساعة الآن الثالثة صباحا .. لا يمكن أن تكون قد قبلت دعوة إلى العشاء .. وسمع أصواتا مرحة تصعد إلى أذنيه من الشارع .. لقد عادت .. لم تعد وحدها ولا فى سيارتها .. طبعاً .. إن المعجبين لا يمكن أن يتخلوا عنها .. هذه المرة تركوها أمام البيت وبعدها لن يتركوها إلا داخل البيت .. وتعهد أن يرسم على وجهه ملامح سعيدة فرحة .. إنه لم يكن من قبل يتعمد رسم أى شيء من ملامحه عندما يلتقى بهناء ..

ودخلت هناء ، وما كادت تراه حتى انطلقت مهللة فرحة ، وقفزت إليه واحتضنته وقبلته فوق وجتيه ، وقالت كأنها تزغرد بفرحتها :
— أين كنت .. لقد انتظرتك فى المسرح .. قل رأيك .. رأيك يا طاهر ..

وقال طاهر وهو يتسهم ابتسامة واسعة كأنه يرسمها بين شفتيه :
— المهم رأى الناس .. وقد قال الناس رأيهم ..

وقالت هناء ضاحكة :
— لقد قال الناس رأيهم فيك وفى عبد الوهاب وفى أنا .. ولكنى أريد أنا أسمع رأيا فى وحدى .. رأيك .. وقال وهو يفتعل الجدية :

— هائلة يا هناء .. هائلة .. ولكن ربما كنت قد رفعت الطبقة فى المقطع الثانى أكثر من اللازم .. لا يهم .. إنها أول حفلة .. ونظرت إليه هناء كأنها تلومه :

— ما حدث قال لى كده يا طاهر .. حتى عبد الوهاب عندما حدثني بالتليفون فى المسرح .. أنت غاوى نقد .. ونظر إليها طاهر كأنه يتعجب من أنها تعترض على شيء يقوله ، وأخذ يصغر ويضيق من نقده وهناء تناقشه وهو يحس أنها تناقشه بشخصية ولهجة الفنان الذى تأكد من نجاحه وتأكد من أنه أصبح يملك الجمهور .. هى الآن المالكة .. هى التى تمنع وتعطى .. هى الأستاذة .. هى وليس هو .. ومد يده إلى حيث تعود أن يجد زجاجة الويسكى .. وقالت هناء كأنها تلومه :

— ياه .. الساعة الرابعة .. ولم يرد عليها طاهر وأفرغ كأسه .. ثم التصق بها وقبلها على ذراعها قائلاً :

— هذه ليلة النجاح .. ثم رفع شفتيه إلى خدها ، وهناء مستسلمة دون أن تبادلته قبلته وهى تحس بتعب وصل إلى حد الزحف .. ورفع طاهر شفتيه إلى شفتيها يقبلها فى شراهة لم يكن قد عودها عليها .. إنه يريد أن يأخذ منها الليلة أكثر مما أخذ أى واحد من الجمهور .. يريد أن يكون له شيء لا يستطيع الجمهور أن يصل إليه .. شيء له وحده .. ولكن قبلته لم تستمر طويلاً .. أراحته هناء عن صدرها فى عنف كأنها تنفضه عن (خيوط فى مسرح العرائس)

نفسها ، وقامت واقفة وهي تقول فى حدة وقرف :
— ليس هذا وقته يا طاهر .. أنا متعبة .. دعنى الآن .. ولنلتقى
غدا ..

إنها ترفضه .. وكانت ترفضه من قبل ولكنه كان رفضاً بدلال ..
رفضاً تحرص فيه ألا تحرجه .. ولكنها الآن ترفضه وتطرده .. كأنه
تجراً عليها .. على ملكة الفن .. ونظر إليها نظرة طويلة ثم قال كأنه لا
يرال مصراً على التمسك بشخصية السيد الأستاذ :

— ادخلى أنت ونامى .. وسأكمل الكأس وأنصرف ..
ووقفت قبالة وهي متفلة بالقرف كأنها حائرة كيف تتخلص من
هذا الكابوس .. ثم دخلت غرفتها دون أن تقول له ولا حتى كلمة
تصبح على خير .. وسمعا تدير المفتاح فى باب غرفتها ..
وأخذ يشرب ..

شرب كل ما فى الزجاجه ..

ولم ينصرف ..

سقط على الأرض ونام ..

وقامت هناء من النوم على صوت خبطات عالية فوق الباب وفتحت
لتجد الخادمة أمامها تقول فى صوت مرتعش :

— سى طاهر راقده على الأرض فى غرفة الصالون ..

وجرت هناء فزعة ورأت طاهر ملقى على الأرض .. وصرخت ..
خيل إليها أنه مات .. مات فى بيتها .. يادى الفضيحة .. يادى
المصيبة .. وركعت بجانب الجنة وأخذت تهزها فى عنف وهسى
تردد :

— طاهر .. طاهر ..

وسكنت عندما رآته يفتح عينيه ثم عاد وأغمضهما وعادت تهزه فى
عنف وقسوة ، إلى أن فتح عينيه هذه المرة ، وقال فى صوت نائم :
— كم الساعة ؟

وقالت هناء فى سخط :

— قم وقف أولاً ..

وقال طاهر فى هدوء وهو يعتدل جالسا :

— كان يخيل إلى أنى أحلم .. لم أصدق أنك بجانبى حقاً ..

قالت فى سخط محدد :

— ما هذا يا طاهر .. كيف تبيح لنفسك أن تنام هنا بأى حق ..
وماذا يقول الناس إذا علموا .. ألا تخاف على من كلام الناس ..
أرجوك قم واذهب إلى بيتك ..

ونظر إليها طاهر وهو يسخر منها ومن نفسه .. لقد مضى أكثر من
عام والناس تحدث عنه وعنهما .. لقد أصبحت قصة حبه لها قصة
رئيسية فى كل السهرات وكل المقاهى .. ولم تكن هى تهتم بما
يقال .. وربما كانت تتعمد تأكيد هذه القصة لتتفاخر بحبه .. كانت
تسمح له بأن يدعو أصدقاءه إلى بيتها ، وكانت تدعى باسمه فى بيوت
الناس المهمين الذين قدمها إليهم .. فماذا حدث .. كل ما حدث أنها
انتقلت فى ليلة واحدة .. ليلة نجاح .. إلى شخصية أخرى .. شخصية
فى غنى عنه ولا تحتاج إليه ولا إلى قصة حبه ، وأصبحت تعتقد أن
شهرة ارتباطها به تسيء إليها .. إنها الآن فى حاجة إلى شيء آخر ..
وقال طاهر فى برود :

.. آسف .. غلبني الخمر فسقطت نائما .. كم الساعة الآن ؟
وأجابته هناء وهي تفرز أنفاسها في قرف :

— الساعة الثامنة .. لم تدعني أنام سوى ساعتين ..
وقال في برود وهو لا يزال جالسا على الأرض :

— لو خرجت الآن ورأني البواب لتصور أنني كنت يظفا حتى
الآن .. أى كنت معك فى الفراش .. وخرجت بعد أن انتهيت
منك .. من الأصبح حتى لا تتطلق الإشاعات أن أبقي هنا إلى ما بعد
الظهر ، حتى إذا رآني البواب خارجا اعتقد أنني كنت مدعوا على الغداء
وأنه لم يرني وأنا أدخل البيت ..
وصرخت هناء :

— والسفرجى لما يجي ويشوفك نائم هنا .. والطباخ ..
والسائق .. وكل منهم سينقل الخبر إلى كل من يراهم .. وتنشر
الحكاية .. تضيعني فى صباحية فرحى بالحفلة ..
وقال طاهر فى برود وكأنه يسخر منها :

— هناك حل آخر .. أن أقول إنى جئت بعد الحفل لأهناك
فانتابتنى أزمة أسقطتنى راقدا .. واستدعني صديقى الدكتور عزت ..
ونستطيع أن نتفق معه على أن يعلن خبر الأزمة وأنه منع عنى الحركة ،
وفى هذه الحالة يجب أن أبقي هنا ثلاثة أيام على الأقل .. حتى تنفى أى
شبهة ..

وصرخت هناء :

— لن يصدق أحد هذه القصة الرخيصة .. قسم وانصرف ..
وارحمنى .. خف على قبل أن أخاف منك ..

وقال طاهر وهو يضحك كأنه يحاول أن يخفف عنها :

— لو طلبت الآن فنجان قهوة فلن يزيد هذا من الإشاعات ..
وصاحت هناء :

— فنجان قهوة يا بنت يا سنية .. بسرعة .. وقام طاهر ومسح
وجهه بالماء وساوى شعر رأسه وملابسه وشرب فنجان القهوة ، وقال
وهو خارج وهناء تودعه وهي تبسم له ابتسامة مفتعلة كأنها تعطيه
رشوة حتى لا يغضب منها :
— سآراك الليلة ..

قالت وهي تضغط على ذراعه فى حنان :

— لا .. إنى متعبة .. وأم كلثوم تعودت أن تنعزل يومين بعد كل
حفلة رغم أنها لم تكن تغنى إلا وصلتين وأنا غنيت أربع وصلات ..
دعنى أستريح الليلة يا طاهر ..
وهم طاهر أن يفتح الباب فأوقفته هناء وقبلته على خديه .. وفتحت
له الباب .. وخرج ..

والفتفت بعدها إلى الخادمة سنية قائلة فى صوت آخر يحمل رنين
الرجاء :

— اسمعى يا بنت .. ولا كلمة .. فاهمة .. أى كلام سأسمعه
ستكونين أنت السبب .. وأخرب بيتك ..
وجذبته وراءها إلى حجرتها وأعطتها ورقة بعشرة جنيهات وقالت:
— شدى الستائر .. لا توقظينى مهما حدث ومهما نمت .. حتى
لومت ..

ونسيت هناء حكاية طاهر وهي راقدة ترسم ما تريده غدا .. يجب

أن تتصل بالمعلم مذبولى متعهد الحفلات حتى تحدد معه موعد الحفلة التالية .. وتدعو واحدا من المخرجين لتحدثه فى إنتاج فيلم .. و ..

ونامت قبل أن تتم رسم الخطة ..

لم تكن هناء قد فكرت فى الاستغناء عن صداقة طاهر أو عن حبه لها .. وكانت تعترف بينها وبين نفسها أنه قدم لها الكثير وأنه أعاد لها كل مجدها القديم بهذه الليلة الواحدة التى غنت فيها للجمهور .. وكانت تعترف أنه شخصية يحتاج إليها كل الفنانين وكل الشخصيات العامة ، وأن مواهبه تمنحه القوة لأن يحقق ما يريد لمن يريد ، كل ما هناك أنها بدأت تستعيد ثقته بنفسها وأصبحت تعتمد أكثر على نفسها فى إدارة أعمالها الفنية .. لاشك أنه يكفى الآن أن تتصل بأى متعهد حفلات يقيم لها حفلا ، ولا شك أن عبد الوهاب وبلغ والموجى سيسعون وراءها لتغنى لهم ألحانهم ، ولا شك أن كل منتج سينمائى وكل فرقة مسرحية ستعرض عليها البطولة ..

ولكن الذى تغير هو طاهر .. لا يستطيع أن يعود حيث كان منها .. تغير الهدف الذى كان حبه يدفعه إليه .. كان الهدف أن يعيد إليها مجدها ، أما الآن فالهدف هو أن يحمى نفسه من هذا المعجذ قبل أن تتعالى عليه .. وقد استمر يتردد عليها كما كان ، ويصحو من النوم على رنين جرس التليفون لسمع صوتها تسأل عنه ، أو يصحو ليتصل بها بالتليفون ويسأل عنها .. ولكن شيئا تغير .. إنه يتصور أنه يجرى وراءها أكثر مما كانت هى التى تجرى

وراءه .. ولم تعد له كل ليلة .. ليال كثيرة تسهرها حتى مع بعض العائلات الصديقة دون أن يدعى معها ، وكثيرا ما ذهب إليها دون موعد فلا يجدها فيجلس وحده فى بيتها فى انتظارها ، ثم إنها أصبحت تنصرف فى مجال فنها دون أن تستشير .. وهو لا يغار عليها ولكنه يغار منها .. إنها لم تستغن عنه برجل آخر ولم تبدل صداقته راحبه بحب آخر .. إنها تأخذ نفسها منه ..

وقالت له هناء وهو جالس معها بعيدا عنها فمئذ أن حاول أن يأخذها لم يحاول مرة أخرى أن يقترب منها :

— جاعنى اليوم المعلم مذبولى .. وهو لا يريد أن يكفى بحفل واحد كل شهر .. قال لى أم كلثوم عندما كانت فى سنى كانت تغنى كل ليلة .. وهو يصير على أن يقيم حفلا كل أسبوعين .. ما رأيك ..

ونظر إليها طاهر وبين شففيه ابتسامة كأنها ستار يخفى وراءه حقيقة مشاعره .. إنها بعدت عنه كل هذا البعد بعد حفلة واحدة ، فألقى أى مدى تبعده عنه بعد حفلها الثانى .. وقد استردت بعد الحفل الأول مجدها وبدأت تتعالى ، فماذا يحدث بعد أن تسترد مجدا أعظم .. ربما عادت تتجاهله وتستغنى عن حاجتها إليه كما كانت وهى فى شبابها .. وقال وهو يحاول أن يحتفظ بشخصية الأستاذ دون أن تهتز :

— أعتقد أنه يجب أن تبخلى على الناس .. دعى الناس تنتظرك أكثر .. لا تكونى كمطربات شارع الهرم ، تفرضين نفسك على الجمهور كل ليلة ولا حتى كل أسبوعين ..

قالت فى حماس :

— ولكن مدبولى يصير .. وهو يريد أن يحتكرنى خمس سنوات .. مستعد لكل شىء .. ثم إنى فى حاجة لأن أغنى وأظهر كثيرا .. إنى أحس بنفسى كأنى ما زلت مبتدئة ..

وقال بلا حماس :

— اعتمدى على الأسطوانات والكاست .. ويكفى أن تظهرى للجمهور مرة كل شهر ..
قالت فى بساطة دون أن تحس أنها تتحداه أو تخرج عن طاعة أستاذها :

— دعنى أفكر ..

والله عال .. منذ متى وهى تعتمد على فكرها .. وعلى كل حال فالحاج مدبولى صديقه ويستطيع أن يتصرف معه .. وبعد يومين كان طاهر قد اتصل بالحاج مدبولى ودعاه إلى لقائه فى المقهى التى تعود أن يجمع فيها تلاميذه ومريديه والثى يمارس فيها شخصيته كسيد .. كأستاذ .. كمعزى زمانه ..
وجاء الحاج مدبولى وهو يسير فى خطوات متلكئة ، فهو لا يربطه بطاهر إلا الخوف .. الخوف منه ومن ذكائه ومن أهدافه ..
وصاح طاهر ضاحكا وهو يقدمه إلى الجالسين :
— أقدم لكم عقلية اقتصادية فى مصر .. الرجل الذى يجب أن يخلف طلعت حرب .

وقال الحاج مدبولى فى استسلام ذليل :

— اقتصاد إيه بس يا طاهر ييه .. لا تبدأ فى إطلاق النكت

اعمل معروف ..

وقال طاهر وهو لا يزال يضحك :

— يا راجل .. اعترف أنك أعظم اقتصادى .. أنك الرجل الذى وهب كل أمواله للفن فأقام أكبر حفلات نجوم الغناء دون أن يحقق مليما واحدا كربح واسألوا مصلحة الضرائب ..

وأحنى مدبولى رأسه بينما انطلقت الضحكات حوله .. إنه يعرف ما يقصده طاهر .. إنه يهدده بفضح مشاكله مع الضرائب .. لا بد أنه يمهّد لشيء يطلبه .. إنه يبدأ طلباته دائما بالتهديد ..

بعد أن استمر طاهر فترة يثير الضحكات حول مدبولى ، بدأ يعامله ويتحدث إليه برقة واحترام كبير ثم انزوى به جانبا وسأله برقة فى صوت هامس :

— ما هى أخبار نشاطك ..

وقال الحاج مدبولى كأنه يفرح قلب طاهر :

— بدأت أعد للحفلة القادمة للأستاذة هناء ..

وأخفى طاهر امتعاضه من منح هناء لقب أستاذة وسأل :

— ومتى ؟

وقال مدبولى وهو لا يزال يعتقد أنه يهدى طاهر هدية :

— الشهر القادم ..

وقال طاهر فى جزع :

— حرام عليك يا حاج .. إنها لم تعد أى أغنية جديدة .. ولو

ظهرت لتعيد نفس الأغاني التى غنتها فكأنك تحكم عليها بالفشل ..

وقال الحاج مدبولى فى دهشة :

— كلام غريب يا أستاذ طاهر .. أم كلثوم أحيانا تقضى الموسم كله بأغنية واحدة ..

وقال طاهر ساخرا :

— هناء مش أم كلثوم .. هناء هي هناء فقط ولا تزال فى حاجة إلى رعاية فنية ، وإذا أردت أن نخدمها فأقمها أنك لن تقيم لها حفلا آخر إلا إذا انتهت من أغنية جديدة ، بهذا تدفعها إلى العمل قبل أن يركبها الغرور ..

ونظر مدبولي إلى طاهر فى دهشة .. إنه يعرف علاقته بهناء ويعرف أنه السبب فى إعادتها إلى قمة النجاح بعد أن كانت قد ذلت فنيا .. ولكنه الآن لا يريد أن تغنى .. ربما وقع بينهما خصام الحب وقرر أن يؤدبها ، وربما كان صادقا فى رأيه ويريد فعلا أن يدفع هناء إلى مزيد من العمل قبل أن يلحق بها الغرور .. أن تهبط وقتها لأغنية جديدة بل أن تهبط لحفل جديد .. إن مدبولي لا يدري ، ولكنه هز رأسه موافقا وقال :

— على كل حال أنا سأقدم لك خدمة كبيرة يا مدبولي .. ما رأيك لو جمعت عبد الحليم ووردة فى ليلة واحدة .. بدل أن يغنى عبد الحليم وتكمل السهرة راقصة أو منولوجست وتغنى ورودة وتسندها نجوى فؤاد .. تجعلهما هما الاثنين يكمل أحدهما الآخر .. يغنى كل طرف وصاتين ..

وقاطعه مدبولي قائلا :

— يا ريت يا أستاذ ولكن أحدهما لا يطيق الآخر ولن يقلل المظهر فى حفل واحد ..

وقال طاهر فى حماس :

— المهم الفكرة .. أن يقتصر الحفل على الغناء فقط .. ودعنى أحقق لك الفكرة ..

وقال مدبولي فى فرح وكان طاقة جديدة فتحت له فى سماء الفن :
— ربنا يخليك ويعطيك يا أستاذ .. دى فكرة تجيب فى الحفلة الواحدة قطار ذهب .

وقام مدبولي وقد قرر بينه وبين نفسه أن يلغى السهرة التى كان بعدها لتحييها هناء ، لأنه يطمح أن يحقق له طاهر هذا المشروع الجديد ، وفى الوقت نفسه لأنه يخاف غضب طاهر لو أقام حفلا لهناء دون موافقته ..

وقال له طاهر :

— هذا الكلام بينى وبينك يا حاج .. لا داعى لأن تعرف هناء ما اتفقنا عليه ..

وقال الحاج وهو يتسم فى خبث :

— مفهوم يا أستاذ .. عيب .. اطمئن ..

وبعد يومين ذهب طاهر ليقتضى السهرة فى بيت هناء ونقلته نائفة تكاد تحطم كل ما حولها وقالت بصراخها :

— تصور الرجل المجنون مدبولي .. إنه لا يريد أن يتولى إقامة حفل .. إنه يهرب منى بعد كل هذا الربح الذى حققته له وفى حفلة واحدة .. وتصور .. إنه يشترط أن أغنى أغنية جديدة ..

واقترب طاهر منها وقال وهو يربت على خصرها لأنه أقصر من أن يصل إلى كفها :

— امدهني أولاً يا هناء .. دعينا نناقش الموضوع بهدوء ..

وعادت تصرخ :

— لقد سلطوه على .. إنى أعرفهم .. إن ما يحدث بين وردة وفايزة ونجاة وشادية ، أصبح كله يقع على رأسى أنا وحدى .. سلطوه على حتى لا أفضى عليهم كلهم ..

وشدها طاهر من يدها وأجلسها على الأريكة وجلس بجانبها فأحنت رأسها فوق كتفه وأخذت فى البكاء .. وامتلاً صدر طاهر بالفرحة .. لقد عادت إليه .. عادت محتاجة إلى الأستاذ .. إلى السيد .. وقال وهو يمسح بكفه على ذراعها العارية :

— إنه يشترط أن تقدمي أغنية جديدة .. ربما كان له حق ..

ورفعت رأسها وعادت تصرخ :

— لا يمكن .. سأبحث عن متعهد حفلات آخر ..

وقال فى هدوء :

— لن نجدى من فى قوة الحاج مديولى ..

قالت من خلال دموعها :

— هل تعرف ماذا يعنى البحث عن أغنية جديدة .. يعنى أن أبقي ثلاثة أو أربعة شهور بعيدة عن الناس فأعود كما كنت يكاد الناس أن ينسونى ..

وقال وكفه لا يزال يمسح على ذراعها المازية دون أن تحس به هناء :

— إن الأسطوانات والكاست أصبحت فى كل بيت .. إن عبد الوهاب كما تعلمين رفض أن يأخذ أجراً على اللحن نظير أن تحصل

شركته .. صوت الفن .. على حق تسجيل كل أغانى الحفل فى أسطوانات وكاست .. وعبد الوهاب يعلم أن الأسطوانة أقوى من الحفل وأوسع انتشاراً وأطول عمراً وتحقق ربحاً أكبر من عشر حفلات .. لا تنسى هذا .. لا تنسى أنك أقوى فى الكاست منك فى الحفل .. الحفل يضم مئات والكاست يضم ملايين .. ثم الإذاعة .. كل ذلك لن يترك الناس تنسأك ..

وقفرت واقفة فى حدة وصرخت :

— لن أترك هذا الشهر يمر دون أن أقيم الحفل ..

وقال طاهر والفرحة لا تزال تزغرد فى صدره .. فرحة الشماعة :

— دعيني أتصل بالحاج مديولى سأقنعه .. سأقنعه ..

وعادت تصرخ :

— إنه ليس فى حاجة إلى إقناع .. إنه فى حاجة إلى أمر .. إنه

تضامن ضدى مع عدواتى ..

وقال فى هدوء وقد استعداد كل ثقتة بنفسه :

— دعيني أحاول .. اطمئني ..

ونظرت إليه بكل عينيها نظرة تمتلئ بالحيرة والشك .. لأول مرة

يرى فى عينيها هذه النظرة .. نظرة شك ..

وقالت وكأنها تهرب منه :

— حاول إن استطعت .

وجرت إلى غرفتها وسمع المفتاح يدور فى الباب .

ومضت أيام وهناء لا تعتمد على طاهر وحده بإقناع الحاج مديولى

ولكنها تتخط بين جميع طوائف مجتمع الفن ، تحاول إقناع الحاج

مديولى .. وطاهر من الناحية الأخرى يشغل الحاج مديولى بإمكان

...مبق مشروع الجمع بين وردة وعبد الحليم فى حفل واحد ،
، يجمعه بكل منهما بين الحين والآخر دون أن تدري هاء شيئا ..
، الإرهاق يمتصها وتذوب تحت تهديد الخيبة ، وتلتقى كل ليلة بطاهر
أعله يصل بها إلى طريق الأمان ..

وفوجئت هاء بحرم نائب رئيس الوزراء تدعوها إلى حفل يقيمه لها
فى رجاء :
— كلنا فى انتظارك وكلنا نريد أن نتمتعنا ..

وقد رت هاء أن طاهر هو الذى سعى لهذه الدعوة .. وكان طاهر
قد أراد أن يخفف عنها خوفها من أن ينساها الناس ، وأن يلقى اعترافها
بأنها لا تستطيع أن تستغنى عن فضله عليها وأنه هو الذى يقدمها
للناس ، وعندما دعاه نائب رئيس الوزراء إلى حفل خاص يقيمه قال
ضاحكا وهو يتلقى الدعوة :

— وطبعاً حسنم هاء ..

وقال نائب رئيس الوزراء :

— يبقى من بختنا ..

وعاد طاهر يقول ضاحكا :

— ولكن دع السيدة حرمكم وهى تدعوها تطلب منها أن تحبى
الدعوة بغنائها .. فأنت تعلم أن هاء بخيلة ولملك لا تعلم ولكنى
أعلم ..

وعندما التقى طاهر بعد ذلك بهاء قال لها :

— هذه المرة يجب أن تذهبى بأوركسترا كامل .. إنهم كلهم

يتمنون سماعك ..

وقالت هاء وهى تقذفه بنظرة الشك :

— مستحيل .. لقد علمتني أن أم كلثوم لم تكن تذهب إلى حفل
خاص بأوركسترا كامل ولا حتى بعازف واحد .. ولا تغنى إلا إذا طال
الإلحاح عليها .. قلت لى إن المطربة لا تستجدى المستمعين ولكنها
تترك المستمعين يستجدونها .. ماذا حدث حتى تقبل الآن أن أغنى فى
حفل خاص .. هل تغيرت أنا أم أنت الذى تغيرت .

ونظر إليها طاهر كأنه خائف منها .. ورأسه يغلى إنها لا تريد أن
تعود كما كانت .. التلميذة المستسلمة للأستاذ .. قطعة العجين
المستسلمة لأصابع تخلقها وترسمها من جديد .. كل هذا حدث
بأغنية واحدة وحفل واحد .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان قد
أعطاهما أغنيتين وحفلين ..

وقال فى استسلام :

— لك حق .. اذهبى وحدك .. ولا تغنى إلا بعد أن يذوب
المدعوون تحت قدميك .. وسألتق مع الحضاوى ليلحقنا بكماته
عندما نقبلين الغناء كما كان يحدث من قبل ..
ولم ترد عليه ..

ربما لم تكن تستمع إليه ..

وذهبت إلى الحفل ، وكان قد سبقها إليه .. ودخلت وهى أكثر
مغالة فى مظهر تعاليتها واعتزازها بنفسها تريد أن تقول للجميع إنها
أميرة الطرب .. وإمبراطورة السينما .. وملكة المسرح .. ورئيسة
مجلس قيادة الفن .. وجلست بين المدعوين وهى تستعمل كل ذكائها
فى أن تكون محدثة ناجحة .. إنها تقلد طاهر فى أسلوب حديثه دون

أن تدري .. وقد نظرت إلى طاهر وقالت متعالية :

— أسمعنا آخر نكتة يا أستاذ طاهر ..

كأنها تصفعه .. كأنها تنزل به إلى مستوى مضحك الملك .. وهم لسانه أن يرد عليها بصفعة تثير ضحك المدعويين منها وعليها ، ولكنه توقف وقال فى برود :

— لم يحن بعد موعد النكت ..

ودعى المدعوون إلى العشاء قبل أن يبدأوا الحفل الساهر .. ورأى طاهر هناء وهى تميل على حرم نائب رئيس الوزراء وتتبادلان الهمس .. ثم قامت هناء متجهة إلى باب الخروج وحرم النائب فى وداعها .. وجرى وراءها طاهر ، وعند الباب قالت له حرم النائب : — دعها يا أستاذ طاهر .. إنها متعبة .. إننا نضحى بها فى سيل راحتها وصحتها ..

وخرجت هناء دون أن تلتفت إلى طاهر ..

وعاد يجلس بين المدعويين وهو يغلى .. لا يمكن أن تصل به إلى هذا الحد ، وكأنها تشطيه من حياتها .. تصرف دون اتفاق معه ..

لا يمكن ..

لا يمكن ..

— ٤ —

كانت هناء تتقلب فى فراشها ودموعها تفرق وسادتها كأنها تصنع لنفسها بحرا تفرق فيه .. لماذا انسحبت من حفل رئيس الوزراء . لماذا لم تنتظر حتى يلحوا عليها للغناء فتغنى .. لماذا لم تصحب معها فرقة موسيقية كاملة كما نصحتها طاهر .. لعلها عادت إلى الغرور الذى ضيعها فى شبابها وكاد يصل بها إلى هاوية النسيان .. أو لعلها حاولت أن تغلب على الصدمة التى قذفها بها الحاج مديولى متعهد الحفلات وهو يرفض أن يقيم لها حفلا ثانيا بعد أن نجحت كل هذا النجاح فى حفلها الأول ، فتعمدت أن تهرب إلى مظهر الغرور .. أن تقول لهؤلاء المدعويين فى بيت رئيس الوزراء إنها ليست فى حاجة إليهم كسمتعين .. وأن تقول لصاحبة البيت إنها لم تكن فى حاجة إلى دعوتها .. وأن تقول للأستاذ طاهر عبد الحميد إنها ليست فى حاجة إلى أن يتوسط لها لدعوتها إلى سهرات كبار الشخصيات .. ربما كان هو فى حاجة إلى هذه السهرات التى يستكمل بها قوته بادعاء صداقة الحكام .. أما هى .. إنها أكبر من كل ذلك .. أكبر بفنها من الحكام .. إنها تملك أكبر شقة فى عمارة الفن .. تتسع لأضخم جمهور يمكن أن يملكه فنان ولو أنها شقة لا تزال خالية من الأثاث .. خالية من المقاعد التى يجلس عليها الجمهور .. بسيطة .. فى يوم واحد تستطيع أن تفرش شقة الفن .. الغرور . الغرور .. الغرور ..

الغور يعود ويسحبها إلى هاوية النسيان ..

وهنا تنقلب فوق فراشها ورأسها غارق في بحر دموعها ،
وتضرب على وسادتها يديها وتعض عليها بأسنانها .. يجب أن تقاوم
هذا الهرور .. يجب أن تعود وتضعف وتقف بنفسها على حافة الهاوية
وتمد يديها تبحث عمن يتقلدها .. يجب أن تعود إلى طاهر وتعيش بين
أصابعه يحركها كيف يشاء .. إنها تعترف بأنها تعالت عليه بعد نجاح
حفلاتها وحاولت أن تتحرر من الحياة بين أصابعه ، ونسيت أن هذه
الأصابع هي التي صنعت هذا النجاح ، وهي التي جددت كل شبابها
الفنى ، وهي التي جاءت إليها بعبد الوهاب يلحن لها ، وهي التي
أطلقت حولها الصواريخ الصحفية .. و .. و .. يجب أن تسترد طاهر
عبد الحميد .. تسترده كله ..

وأخذت حبات « الليريم » حتى تنام .. وقضت ساعة طويلة في
صباح اليوم التالي حتى تسترد كل أعصابها .. ثم رفعت سماعة
التليفون واتصلت بطاهر وقالت ورنه من الأنوثة الضعيفة تتراقص في
صوتها :

— إنى غاضبة منك .. لم تعد تحبني ..

وقال وصوته مجهود أجش :

— يا ريت .. لقد عودنى حبك على نعيم العذاب ولكنه بدأ
يأخذنى إلى عذاب الجحيم ..

قالت وهي تركز ذكائها في اختيار كلماتها :

— انك تهرب من النعيم بحثا عن الجحيم .. لماذا لم تلحق بى ليلة
أمس بعد أن تركتك وخرجت من الحفل ..

قال كأن صوته دخان سيجارة يتكسر بين شفتيه :

— ومن أدرانى أين ذهبت ..

قالت كأنها تخفف عنه :

— لقد عودتنى أن تبحث عنى ..

قال :

— خفت أن أصدم ..

قالت :

— أنت الذى تركتنى لأصدم بجفائك .. طاهر إنى أنتظرِكَ

الليلة ..

وسكت برهة ثم قال وقد بدأ صوته يسترد بعض انطلاقه :

— هل أنت بحاجة إلى ..

وقالت كأنها تدلله :

— ليست مجرد الحاجة إليك .. لقد تعودتك .. لم أعد أستطيع

الاستغناء عنك ..

ووضع سماعة التليفون وتهد من خلال ابتسامته كأنه ارتاح ، ثم
لمعت عيناه لمعة الذكاء الخبيث كأنه يعرف سر كل كلمة قالتها له
هنا ..

وتعمدت هناء هذه المرة أن تستقبل طاهر بعد أن أبرزت أنوثتها
أكثر في اختيار ثوبها وفي عقصة شعرها وفي استغنائها عن حداثها ..
استقبلته حافية القدمين كأن أى مكان فيه فراش .. كأنها لن تكفى بأن
تقدم له نفسها كفنانة فقط بل أيضا كامرأة ..

ودخل إليها طاهر وعيناه تلمعان بذكائه الخبيث ، وفي لمح

واحدة لاحظ ثوبها الذى اختارته ، وعقصة شعرها والألوان التى صبغت بها وجهها .. إنها تثيره .. ولم تعود أبدا على أن تثيره .. وقديمها الحافيتين .. إنه يعلم أنها تستريح بلا حذاء ، وأنها تبقى دائما فى بيتها حافية ، ولكنها كانت تستقبله دائما وقدماءها فى حذاءها ، كأنها تعتمد أن تستقبله بصفة رسمية كضيف لا كصاحب بيت ولا حبيب .. واتسعت ابتسامته .. كل ذلك دليل على أنها عادت محتاجة إليه .. فى أشد الحاجة إليه ..

وهم أن يجلس على المقعد العريض الذى عودته فى أول أيامها أن تجلسه عليه ، ولكنها شدته من ذراعه وأجلسته على الأريكة لتجلس ملتصقة به كما يطمئنها دائما ..

وقالت هناء كأنها تهتم بالبيك :

— طاهر .. خبرنى ماذا حدث لى لقد عدت منهارة كما كنت قبل أن ألتقى بك .. أحس كأنى أضيع من جديد .. كأنه لم يعد لى أحد .. إبنى أصحو من النوم لابيكي ولا أعود إلى النوم إلا بعد أن تفسرغ دموى .. حرام .. حرام .. يا طاهر ..

وألقت رأسها على صدره وأخذت تبكى ..

ومد طاهر ذراعه فوق كتفها وهو يقول :

— لم يحدث شيء .. وأنت فتانة وتعرفين أن لا شيء سهل ..

وهبطت هناء فى جلستها قليلا حتى تستطيع أن توازى كتف قائمتها الطويلة بكتف قائمته القصيرة ، وقالت :

— كيف لم يحدث شيء .. مضى ثلاثة أشهر ولم أستطع أن أحيى

حفلة ولا وصلت إلى أى اتفاق خاص بفيلم سينما ، والجرايد بدأت

تجاهلنى ، وحتى الدعوات الخاصة بدأت تقل من حولى وأنت تعلم أنى لا أقبل إحياء الأفراح .. أتعرف لماذا تركت حفلة نائب رئيس الوزراء لأننى أحسست أنهم لم يدعوني إلا تحت إلحاح وساطتك .. لقد أصبحت معقدة ..

وارتفع صوت إجهاشها بالبكاء ..

وربت طاهر على كتفها ثم مال عليها وقبلها من وجنتيها ، وإذا بها — لدهشته — تدير إليه شفتيها .. هذه أول مرة تعطى له شفتيها برضاها ..

وتركه هناء يقبلها وهى تحس كأن فوق شفتيها كمامة تسقط فيها أنفاسها .. لا شيء سوى أنفاس .. وهى تضيق وتقرف من هذه الأنفاس .. وشدت شفتيها من فوق شفتيه وقالت :

— كفافك يا طاهر .. إنك لا تريد منى إلا قبلاى .

وقال وهو يضمها بعينيه مبهورا بقبلاها :

— إبنى أقبل فيك الفن ..

وقفزت واقفة لتستريح منه وهى تتظاهر بأنها قامت لتعدله الكأس ، ثم قالت :

— اسمع يا طاهر .. افتتعت بأنى يجب أن أعد أغنية جديدة قبل أن أظهر فى حفل جديد .. مارأيك فى قصيدة « صدى الآهات » .. هل تذكرها .. إنها القصيدة التى اعتقدت يومها أنها قصيدتك ثم تبين لى أنها قصيدة الأستاذ عبد العظيم فنى .. وأخجلتنى يومها .. هل تذكرها .. مارأيك فيها ؟

— واعتدل طاهر فى جلسته كأنه أفاق من طعم قبلاها وقال وهو

يتسم ابتسامة ساخرة :

— لا أذكرها ..

قالت فى حماس :

— إنى لا زلت محتفظة بها ..

وقفزت بسرعة وفتحت درجا أخرجت منه القصيدة .. وهو يتبعها وسخرته تملأ عينيه .. إنه يعلم الآن سر هذا السخاء الذى تعامله به هناء .. إنها تريد أن تستعمله مدير أعمال فقط .. لم تعد حريصة أن يكون هو شاعرها الوحيد .. ربما كانت تقلد أم كلثوم التى لم تكن تسمح بأن يحتكرها أحد .. لا مؤلف أغاني ولا ملحن .. وقد يست هناء أن تستفيد منه بعد أغنيته الأولى فأرادت أن تلجأ إلى غيره ، وحتى تطمئن إليه تريد أن تدعه هو الذى يصل بها إلى غيره ..

وقرأ طاهر القصيدة ثم قال :

— رائعة .. لقد أثارت ضجة شعرية عندما نشرت .. ولكنها فى

حاجة إلى ترجمة ..

قالت فى دهشة :

— ماذا تغنى ؟

قال فى بساطة :

— ترجمتها إلى شعر غنائى .. ليس كل شعر مكتوب يصلح للغناء

الغناء فى حاجة إلى نبض خاص فى الشعر يجعله يصلح للغناء .. وهناك أشعار كثيرة نجحت كأشعار مكتوبة وسقطت عند غنائها .. أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم ونجاة وشادية كل هؤلاء غنوا أشعارا رائعة فسقطوا بها رغم أنها لا تزال رائعة كأشعار مكتوبة .. كأشعار

المناسبات مهما بلغت روعتها فإنها تسقط كشعر غنائى وتنتهى بانتهاء المناسبة .. هناك أغان كثيرة غنيت لجمال عبد الناصر وانتهت بانتهاء عبد الناصر .. كالشعر المسرحى .. ليس أى شعر مكتوب يمكن أن يكون مسرحية .. وشوقى وعزيز أباظة وصلاح عبد الصبور يعتمدون أن يعبروا عن المسرح بالشعر ، لا أن يعبروا عن الشعر بالمسرح .. وهذه القصيدة فى حاجة إلى ترجمتها إلى شعر غنائى .. غناء يعبر عنه الشعر لا شعرا يعبر عنه الغناء .. الأساس فى كل فن هو المجال الفنى .. مجال القراءة أو مجال التردد أو مجال الغناء أو مجال المسرح أو مجال السينما والتلفزيون .

وقالت هناء فى ذهول :

— لا أفهمك .. ولكن قد يكون هناك كلمات يمكن أن تطلب من

الشاعر تغييرها .. أم كلثوم كانت تعدل فى كثير من القصائد التى

تغنيها .. وربما غيرت لك أنت أيضا عندما غنت لك ..

وقال فى حدة :

— لم تغير لى شيئا .. لم تكن فى حاجة أبدا لأن تغير كلمة

واحدة ، بل لم تكن هى التى تختار فإنى أنا الذى كنت أختارها لتغنى

لى ..

وابتلعت هناء ريقها كأنها ترتجف من الخوف وقالت فى تردد :

— طاهر .. إنى أعرف أنى لن أضمن النجاح أبدا إلا إذا غنيت من

شعرك وكلماتك .. بل إنى لا أستطيع أن أغنى كما أغنى لك .. ولكنى

أعلم أن كل قصيدة تستغرق منك شهرا .. ستة شهور وربما أكثر ..

لذلك فكرت أن أتسعين بهذه القصيدة إلى أن تنتهى أنت من قصيدة

تكتبها لى حتى لا يضيع الوقت وأنا بعيدة عن الناس ..
وقال طاهر وهو يبدو غاضبا :

— إنك لا تصدقيني فى حكمى على هذه القصيدة .. لنعرضها
إذن على عبد الوهاب ..

ونظرت إليه فى شك .. إنها تعلم مدى صداقته لعبد الوهاب
وتخشى أن يحرضه ضد القصيدة .. وقالت فى تردد :

— لنجرب بليغ حمدى ..
وقال ساخرا :

— إن بليغ لا يقبل أن يناقش بك زوجته وردة ..
قالت فى رجاء :

— إذن نعرضها على محمد الموجى ونحتفظ بعبد الوهاب
لقصائذك .
قال :

— الموجى معناه أنت وحظك .. ولا يمكن أن تضمنى حظك معه.
غدا نذهب معا إلى عبد الوهاب ..
ورفع كأسه إلى شفثيه وهى تنظر إليه حائرة ، ثم خطت فى عصبية
وأفرغت لنفسها كأسا .
وأمتلأت عيناه بالدهشة ..

إنها المرة الأولى منذ عرفها التى تشرب معه كأسا ..
وصحبها فى اليوم التالى إلى لقاء عبد الوهاب .. وبدأ طاهر يقول
رأيه فى القصيدة قبل أن يقرأها عبد الوهاب وكأنه يعلن الحرب عليها
وهنا لا تملك أكثر من أن تردد كلمة أو كلمتين ، وعبد الوهاب حائر

ينقل بينهما عينيها الذكيّتين والنقطة بسرعة ما يريد طاهر .. إنه لا يريد
أن تغنى هناء هذه القصيدة .. وقبل أن يقرأ القصيدة قرر ألا يلحنها لا
لأنه يخاف طاهر ولكن لأنه لا يستطيع أن يتفرغ للتلحين بينما جو
مضطرب يحيط به .. كى يلحن يجب أن يعيش هادئا وهو يخلق
اللحن ، ولن يتركه طاهر ولا هناء هادئا أبدا ..

وقدم له طاهر القصيدة .. وأخذها عبد الوهاب وقرأها .. وقالت
هناء كأنها تقامر بعمرها :

— ما رأيك يا أستاذ ؟

وقال عبد الوهاب فى هدوء :

— مستحيل أن أقول رأيى الآن .. إنى فى حاجة أن أستوعبها
وأحس بكل كلمة فيها وأبحث بخيالى لكل كلمة عن نغم .. وبعدها
أقول رأيى ..

واطمأن طاهر إلى أن عبد الوهاب قد رفض القصيدة ، فإن عبد
الوهاب تعود أن يعبر عن رفضه بعدم إبداء الرأى ..
وقامت هناء وهى لا تفهم شيئا ..
وقال طاهر عندما وصل بهناء إلى بيتها :

— اطمئنى وصدقينى .. إلى أن ينتهى عبد الوهاب من تلحين هذه
القصيدة سأكون قد انتهيت من قصيدة لك .. وقد سبق أن قلت عندما
وضعت لك الأغنية الأولى إنى أريدك أن تقرضينى نفسك حتى
أستوحى شخصيتك وخطوط ملامحك وتخيل حبي .. وأنت التى
تملكين فرض الكلمات على خاطرى .. وقد تنتهى القصيدة فى يوم أو
يومين .. أنت المستولة .. قولى لى .. لقد أفرضتك نفسى ..

وقالت هناء وهى تضحك :

— أقرضتك نفسى على ذمة عبد الوهاب ..
ثم رفعت كأسها قبل أن يرفع كأسه ..

وعاد طاهر كما كان .. كل ليلة فى بيت هناء .. وكان يحاول فعلا أن يبدأ فى قصيدة جديدة ، ويجلس قبالتها كأنه يستوحىها ، وقد يكتب كلمة أو كلمتين على غلاف علبة السجائر ثم يلقى بها بعيدا كأنه يتبرأ منها .. وهو يعلم أنه ليس فى حالة إطلاق الشعر .. لكن يكتب شعرا يجب أن يعيش فى نعيم العذاب .. عذاب الحب .. عذاب الولادة .. عذاب عملية الخلق .. ولكنه لا يعيش نعيم العذاب إنه يعيش عذاب الجحيم .. إنه فى داخله يعيش معركة يركز عليها كل ذكائه وكل إحساسه ، وهو يعلم أنها معركة قاسية قدرة .. معركة الاحتفاظ بهناء بين أصابعه .. معركة يستخدم فيها أسلحة الكذب والخداع والتفريغ فكيف يمكن أن ينطلق شعر غنائى من خلال مثل هذه المعركة ..

وهناء بجانبه والكأس أمامها .. لقد تعودت حتى الآن أن تكفى بكأس أو كأسين .. وتركه يتحدث كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ثم تركه يقبلها فوق وجنتيها وقليل ما تمنحه شفتيها قبل أن يتركها فى نهاية الليل ..

وقالت هناء :

— طاهر .. إلى أن يقول عبد الوهاب رأيهِ وإلى أن تنتهى من القصيدة أعتقد أننا يجب الإعداد لفيلم .. سأتصل بمخرج أدعوه لنناقش الموضوع ..

وقال طاهر فى براءة الأستاذ :

— الفيلم لا يبدأ بالاتصال بالمخرج .. ولكنه يبدأ أولا بالبحث عن قصة .. إن القصة هى أساس أى بناء سينمائى .. وبعد أن نجد القصة يجب أن نبحث عن المنتج إنه رأس المال الإنتاج السينمائى وبعد ذلك دور المخرج والسينارست والمصور إلى آخر التشكيلة ..
وقالت هناء وعيناها تطلان إلى بعيد كأنها تذكر شبابها :

— المنتج أمره سهل ..

وقال طاهر كأنه يحررها من أحلامها :

— لا .. ليس سهلا .. وتذكرى الحاج مديولى فقد كانت له شروط متعبة ، ومنتعده الحفلات هو نفسه المنتج السينمائى .. أفضل أن نبدأ بالبحث عن قصة .. ما رأيك فى الأستاذ محمود حماد .. إنه الصرخة الجديدة فى عالم القصة .. ندعوه ونهيه له جو الإيحاء بقصة جديدة ..

وقالت هناء فى سذاجة :

— لماذا لا ندعوك كاتباً مشهوراً .. إن الكتاب أصبحوا الآن من نجوم الشباب ..

وقال طاهر ساخراً من سذاجتها :

— إن شباك التذاكر غدار .. إنه يفتح كل أدراجهِ للكاتب أو للممثل ثم فجأة يطرده ويشتري كاتباً أو ممثلاً آخر .. لقد كان الكاتب المحامى محمد كامل حسن نجم شباك التذاكر فى يوم ما حتى إن صورته كانت تعلق على دور السينما بجانب صور بطل وبطلة الفيلم ثم فجأة اختفى .. أغلق شباك التذاكر أدراجهِ فى وجهه .. وأنصحك

أن تبدئي بقصة لكاتب شاب .. لا يعتمد على قوة اسمه حتى ينسب النجاح كله لك .. وقد قلت لك إن أم كلثوم تعتمد ألا تعتمد على ملحن واحد ، حتى تكون هي التي ترفع الملحن وليس الملحن هو الذي يرفعها ، وكذلك كانت تعتمد فنان حمامة .. لا تكاد تمثل فيلما لكاتب مشهور حتى تعقبه بخمسة أفلام لكاتب لم يعرفوا بعد ، وكذلك كان يوسف وهبي أيام مسرح رمسيس إلى أن انتهى بأن أصبح هو الذي ينسب إلى نفسه تأليف المسرحية حتى يتخلص من تأثير اسم آخر على اسمه ..

قلت في حدة :

— إنك تنسى أنه قد مضى الآن ستة أشهر ولم أقدم شيئا .. لا غناء ولا مسرح .. والاتفاق مع كاتب على أن يكتب قصة جديدة قد يضيعني ست سنوات بعد الأشهر الستة .. لقد مضى شهران وأنت تعد قصيدة جديدة ولم تنته منها بعد ..

قال وهو يتلقى ثورتها بخبت :

— صدقيني إن الوصول إلى قصيدة أصعب من الوصول إلى حكاية .. أقصد قصة .. وعلى كل حال سأجمع لك كيبا من مجموعات قصص لكل الكتاب واختاري بينها ..

قالت وهي غاضبة :

— اختر لي أنت .. أنت الأستاذ ..

وقال الأستاذ :

— إنني أستطيع أن أختار لنفسى ولكنى لا أستطيع أن أختار لك .. إن ممثلي القمة أى الممثل الشيعان الشيعان بالمجد والنجاح يصير على

أن يختار بنفسه القصة التي يمثلها حتى يضمن الوصول بها إلى قمة النجاح .. إن التمثيل هو الانتقال بالنفس إلى شخصية أخرى ، وحتى يضمن الممثل قدرته على الانتقال إلى هذه الشخصية الأخرى يجب أن يحس بها ويعيشها قبل أن يجسدها .. وهذا هو الفرق في القدرة الفنية بين الممثلين .. ممثل لا يستطيع أن ينتقل إلا إلى شخصية واحدة .. شخصية عسكرية بوليس .. أو شخصية ابن بلد .. أو شخصية باشا .. وهو لا يحتاج إلى أن يختار ما يمثله إنما يترك ذلك للمنتج أو للمخرج .. فإي قصة تحتاج إلى هذه الشخصية الواحدة يستطيع أن يمثلها .. أما الممثل الذي يرفض أن يكرر نفس الشخصية في الأفلام أو المسرحيات لأن قدرته الفنية تتسع لمختلف الشخصيات فهو يصير على أن يختار القصة أو يوافق على اختيارها كيوسف وهبي أخيرا وكمعاد حمدي أخيرا بعد أن تحرر من دور الفتى الأول .. ثم إن سبب تدهور الفن السينمائي في مصر هو أن المنتج هو الذي يختار القصة .. لا يمكن للعقلية التجارية أن تصل إلى مستوى الفن ، إنما هو يختار بدوافع شخصية أو لأن هناك كتابا أرخص من كاتب .. وقاطعته هناء صارخة :

— إنني شبت محاضرات .. أريد أن أخطو خطوة عملية .. سأصل بنفسى بالمخرج عز الدين ذو الفقار وأترك له كل شيء .. ونظر إليها في ذعر كأنها تهدده بالقتل ثم استجمع أعصابه وهدوؤه وعاد إلى لهجة الأستاذ قائلا :

— لا يمكن أن يخدمك الآن عز الدين ذو الفقار .. إنه فنان عظيم رائع ولكن نقطة الضعف فيه هي نفس نقطة الضعف التي أعانيها أنا .. إنني

لا أستطيع أن أكتب الشعر الغرامى إلا إذا أحببت فعلا ولهذا أكتب لك ، وكذلك عز الدين ذو الفقار لا يستطيع أن يختار بطله الفيلم الذى يخرج به إلا إذا أحبها .. وأحبها بكل كيانه حتى يستمد من حبه القدرة على التعبير بفنه .. وهو الآن يحب نجاة ويخرج لها فيلما وأعتقد أنه يحبها لدرجة أن يخرج لها فيلما آخر ..

وقالت فى يأس :

— لتتصل يوسف شاهين لقد عاد إلى نشاطه وأصبح مشهورا ..

وقال طاهر ساخرا :

— يوسف شاهين لن يفهمك .. وقد كان يوسف مخرجا أما الآن فهو سائح يحمل كاميرا .. تهمة الصورة ولا يهمه الموضوع .. ثم إنه صاحب مبدأ « أنا وحدى » ولذلك فهو يضع اسمه فى الإعلانات أكبر من أسماء أبطال الفيلم وأحيانا يصير على ألا يحمل الإعلان إلا اسمه هو وحده .. إنه مؤسس مدرسة « أنا وحدى » التى انضم إليها أخيرا حسام الدين مصطفى ..

وصرخت هناء كأنها تولول :

— لا تجتنى بكلامك .. سأنتقل بعز الدين ذو الفقار وسأخذه من نجاة وأشدّه إلى حى حتى يخرج لى الفيلم ..

ثم هدأت من صراخها واقربت منه وهى تبسم ابتسامة كبيرة وقالت وهى تلتصق به :

— طبعاً مع الاحتفاظ بحبك .. لن يكون عز الدين إلا فيلما وينتهى .. أما أنت .. أنت كل شيء .. وكل العمر ..

وعلت شفتى الأستاذ طاهر عبد الحميد ابتسامة ساخرة ، وتركها

ترفع سماعة التليفون لتتصل بالأستاذ عز الدين ذو الفقار وخرج بعد أن أقنعها بأنه مرتبط بموعد هام ..

واستطاع طاهر أن يلتقى بعز الدين ذو الفقار بعد يومين ، وهو يعرف طبيعة عز الدين فهو على قدر إحساسه الفنى ورقه الفنية وشذوذه الفنى إلا أنه لا يزال متأثرا بشخصيته كضابط سابق فى الجيش ، فإذا ثار كان حادا فى ثورته ، وإذا أصيب فى غروره الفنى دخل فى معركة كأنها معركة حربية .. وكان عز الدين يحب طاهر ولا يرى فيه إلا شخصيته الفنية بل إنه يقدر حديثه الشيق وذكاؤه فى السيطرة على جلساته .. إنه موهبة فنية ، وعز الدين يحب ويصادق الفن كلما وجده .. واستطاع طاهر أن يجذب الحديث بينه وبين عز الدين إلى أن جاءت سيرة هناء .. وقال عز الدين فى بساطة :

— لقد اتصلت بى أمس .. تريد أن أخرج لها فيلما .. وقد بدأت أفكر فعلا فى الموضوع ..

وقال طاهر ضاحكا كأنه يداعب عز الدين :

— ونجاة ..

وقال عز الدين دون أن يضحك :

— أنا لست مخرج أفلام نجاة وحدها ولكن إيماني الفنى بنجاة لا يعادله أى إيمان آخر .. ولكنى لا أريد لهذا الإيمان أن يحتكرنى .. لن أقع فيما وقع فيه فؤاد المهندس وترك نفسه تحتكره شويكار ، بعكس حسن يوسف الذى لم يترك نفسه لتحتكره زوجته شمس البارودى .. الإيمان كالزواج كالحب لا يجب أن يؤدى إلى الاحتكار الفنى .. لذلك أفكر بعد أن أنهى من فيلم نجاة أن أخرج فيلما بلا نجاة ..

وربما تكون هناء ..

وقال طاهر فى ابتسامة بريفة :

— ولكن عجيبة .. أن هناء اتصلت أيضا بالمخرج حسن عبد
العليم .. وأعتقد أنها فاتحته فى نفس الموضوع ..

واحترق وجه عز الدين كأنه أهين وقال فى حدة :

— متى حدث هذا ؟

قال طاهر فى خبث :

— لا أدري .. ربما من يوم أو يومين .. سمعت الخير من بعيد ..

وصرخ عز الدين :

— والله عال .. يعنى يا أنا يا حسن عبد العليم .. قل للست أو

للآنسة إني معتذر عنها .. إن الفنانة التى تضعنى فى مستوى أى مخرج

آخر تبقى ليست فنانة .. تبقى مختلفة المقاييس الفنية .. قل لها إني لن

أعمل معها حتى ولو فى خيال الظل ..

وكانت هذه هى طبيعة عز الدين .. الثورة العسكرية العنيفة التى لا

تثيرها سوى كلمة واحدة ..

وقال طاهر فى براءة :

— لن أبلغ هناء شيئا .. كأنك تطلب منى أن أنشر إعلانا فى صفحة

الوفيات .. وكلامك إعلان لوفاة مشروع يتعلق بمستقبلها ..

وقال عز الدين فى سخط :

— إن مستقبل هذا النوع من الفنانات لا يمكن أن يتحمله إلا مخرج

كحسن عبد العليم ..

وافترقا ..

وبعد يومين كان طاهر فى بيت هناء وقد حمل معه مجموعة من

قصص أشهر كتاب مصر وصحب معه أيضا الكاتب الشاب محمود

حماد ، على أن تبدأ هناء فى قراءة القصص إلى أن تختار من بينها بينما

حماد يكتب لها قصة جديدة لعلها تقنع بها ..

وقال الكاتب الشاب فى تلمع وعينه تترددان أمام وجه هناء :

— إني أفكر فى أن أكتب قصة من حياتك ولكي أكتبها أرجو أن

تروى لى حياتك كلها ..

ونظر إليه طاهر نظرة رفض .. والله عال .. إنه يحاول أن يتسلل إلى

هناء بحجة الاستماع إلى قصة حياتها .. كثير من الكتاب والصحفين

وصلوا إلى أجساد الفنانات عن هذا الطريق .. الغنى .. إنه لا يستطيع

أن يبتكر وسيلة جديدة للوصول .. وقال طاهر بسرعة :

— لا .. إن الفنان لا يستطيع أن يمثل قصة حياته ، مع أنه يستطيع

أن يمثل قصة حياة شخص آخر .. أولا لأن موهبة التمثيل هى موهبة

التجرد من النفس والتخلص فى نفس أخرى .. أى فى شخصية

أخرى .. إن سعاد حسنى لو منلت قصة حياتها لفشلت ولكنها تستطيع

أن تمثل قصة حياة فائن حمامة مثلا .. والعكس بالعكس .. وثانيا

لأنك لن تقول فى القصة كل ما فى حياة هناء .. ستضطر أن تخفى أهم

ما فى هذه الحياة وقد تضطر أن تكذب .. إن الفنان لا يبدو أبدا بقصته

كاملة أمام الناس إنما يبدو بقصة أخرى يرسمها ويلونها .. وقد سمعت

أن عبد الحليم حافظ أعد قصة حياته ليمثلها كفيلم ، ولكنى لا أعتقد

أنه سيمثلها ، ربما لأن القصة التى أعدت له فيها كثير من الصدق ..

ابحث عن قصة أخرى لهناء يا أستاذ حماد ..

وقبل أن يستمر الثلاثة فى الحديث عن القصة قالت هناء :
 — طاهر .. أنا اتصلت بعز الدين ذو الفقار ووعدنى أن يرد وأن يمر
 على ولكنه لم يرد ولم يمر ولا اعتذر .. مارأيك ..
 وقال طاهر وهو يخفى شماتته تحت لسانه :
 — اتصلى به ثانية ..
 وقالت وكأنها تهتم بالكاء :
 — حاولت ولم أستطع .. لعله يتهرب منى ..
 قال طاهر فى غرور المنتصر :
 — اتصلى به الآن ..
 وقامت هناء ورفعت سماعة التليفون واتصلت بعز الدين ..
 وسمعت صوته يرد عليها .. وبسرعة انقلت إلى شخصية ناعمة وقالت
 فى دلال :
 — كده برضه يا أستاذ .. أربعة أيام مضت منذ وعدتني .. على
 الأقل كنت فى انتظار أن أراك .. ألا تحب أن ترانى ..
 وطاهر بجانبها وسمع صوت عز الدين يصرخ كعادته عندما يكون
 فى معركة عسكرية :
 — آسف يا آنسة .. آسف .. مشغول .. ليس عندى وقت ولا
 عقل ولا عمل معك .. ابحتى عن غيرى .. مع السلامة ..
 وألقت سماعة التليفون ..
 وسقطت هناء على المقعد مبهورة الأنفاس ..
 وقال طاهر وهو يربت على كفها :
 — لقد حذرتك من عز الدين .. لا بد أن نجاة سمعت أنه اتصل

بك .. إنك لست أى فنانة يا هناء إنك فنانة خطيرة على كل الفنانات ..
 واتركى لى الموضوع ..
 وفى الليلة التالية ذهب إلى بيت هناء وبصحبة المخرج حسن عبد
 العليم ، وقدمه صائحا :
 — الأستاذ حسن وافق على إخراج الفيلم .. قال لى إن حلقة منذ
 بدأ فى الإخراج هو أن يخرج فيلما تمثله هناء .. لم يبق الآن إلا
 القصة .. وكان حسن عبد العليم من المخرجين المعروفين وإن لم يكن
 فى مستوى عز الدين .. واستسلمت هناء .. وبدأت تناقش الموضوع
 معه ومع طاهر .. وقال حسن :
 — يا ترى من المنتج ؟
 وصرخ طاهر :
 — لسنا فى حاجة إلى المنتج الآن .. بعد أن ننتهى من القصة
 والسيناريو سيتقدم ألف منتج ..
 وقال حسن :
 — المهم قبل أن نبدأ أن نحدد الميزانية .. إننا نستطيع أن نتج فيلما
 يتكلف نصف مليون جنيه ، وفيلما يتكلف مائة ألف ، وفيلما يتكلف
 خمسة آلاف .. المهم أن نحدد الميزانية حتى نفكر فى حدودها ..
 أى المهم أن يبدأ معنا المنتج ..
 ونظر طاهر إلى حسن كأنه يتهمه بأنه تعدى حدود اختصاصه
 وقال :
 — اترك لنا هذا الموضوع .. تعال أولا نتصور الشخصية التى
 تفضل أن تظهر بها هناء فى الفيلم .. شخصية بنت الباشا .. أم شخصية

فلاحة .. أم شخصية بائعة جرائد .. كل هذه الشخصيات ظهرت فى الأفلام القديمة .

وقالت هناء ساخرة :

— أفضل أن أمثل شخصية مجنونة ، فإننى أحس الآن أنها أقرب الشخصيات إلى ..

ونظر إليها طاهر كأنه يتسلل إلى أعماقها ليفهم ما تعنيه بكلمتها . وقال المخرج حسن عبد العليم :

— فكرة .. إنها فعلا فكرة جديدة ..

وصرخت هناء :

— إننى سأجن فعلا إن لم أبدأ فى العمل .. وهذا الفيلم أريد أن أعرضه فى الموسم القادم أى بعد ستة شهور .. يجب أن أعمل .. أن أظهر أمام الناس .. و ..

وقاطعها طاهر قائلا فى لهجته التى ينغمها حتى يصبح مقنعا كاللحن الذى يصاحب الجمهور :

— يا هناء لا تظلمى نفسك .. إنك تذكريننى بالتافهين الذين يعتقدون أنه بمجرد غيابهم شهرا ينساهم الجمهور .. تذكريننى بصديقى عضو مجلس الشعب الذى جاءنى أمس يسألنى .. ما عندكش سؤال أقدمه لوزير فى المجلس .. وقلت له إنه لم يهض سوى شهر واحد على سؤاله الأخير .. فقال ببساطة .. أريد أن أتكلم فى المجلس حتى لا ينسانى الجمهور .. أى كلام .. والجمهور كله يعلم أنه نائب تافه .. النائب أو السياسى القوى قد تمضى عليه دورة كاملة دون أن يتكلم لأنه واثق من نفسه ويصر ألا يتكلم إلا إذا كان كلامه

يقيم الدنيا ويقعدها .. وتذكريننى أيضا بكاتب معروف يكتب قصته فى ثلاث حلقات ولكنه عندما ينشرها فى الصحف يقسمها إلى عشرين أو ثلاثين حلقة لمجرد أن يكرر نشر اسمه حتى لا ينساه الناس ، فى حين أنه ظلم نفسه بهذه الوسيلة وأصبح الناس يرفضون قراءته فى الصحف منتظرين أن يقرأوه فى كتاب .. وكذلك كتاب اليوميات .. إن كثيرين منهم لا يهمهم ما يكتبون ولكن يهمهم نشر أسمائهم كل يوم .. وإحدى الصحف كانت تنشر لأكثر من عشرة كتاب عامودا يوميا لا يقرأ الناس منها إلا عامودا واحدا لكاتب واحد ، لأنه الكاتب الذى لا يفشل كتابة العمود .

وأنت لست من هذا النوع .. أنت لا تعتمدين على ترديد نفسك ولكنك تعتمدين على قوة موهبتك .. إن فائن حمامة غابت عن السينما وعن البلد أكثر من خمس سنوات ثم استطاعت بفيلم واحد أن تنجح وكأنها لم تغب عن جمهورها يوما واحدا .. وسعاد حسنى أصبحت تنتج فيلما كل عامين ورغم أنها لا تعتمد هذه الغيبة إنما هى ضحية كسلها وضحية الآراء التى تحيط بها إلا أنها عندما تعود فى فيلم فكأنها لم تغب .. وأنت .. وأنت نفسك لقد أهملت جمهورك سنوات طويلة .. ثم نجحت كل هذا النجاح فى حفلتك الأخيرة .. وليس الفضل لك فى هذا النجاح كله لعبد الوهاب ولا للقصيدة التى كتبتها لك .. إن الفضل لك .. أنت وفنك .. ولولاك لسقط اللحن وسقطت القصيدة .. لا تستجدى الجمهور .. لا تظلمى نفسك ..

وهنا تستمع إليه وهى حائرة هل تستلم لمنطقه أو تقاومه .. هل تصدقه أم تشك فى نياته .. وهو يحلق فى وجهها بعينه الكبيرتين اللتين

تطلان من رأسه الضخم الذى يحمله فوق كتفيه الضيقتين وقوامه القصير التحيل .. يريد أن يكشف أين وصل بها بمنطقه الذى يصطادها به لتعود وتميش بين أصابعه .. إنه يحس أنها لا تزال تمرد وتقاوم وتحاول أن تحطم من حولها قبضات هذه الأصابع .. وأصبحوا يجتمعون كل ليلة ..

هنا تقرأ فى كتب القصص لتقتنع نفسها بواحدة منها .. وطاهر ينفخ الدخان بحثا عن أبيات لقصيدته .. والكاتب محمود حماد يفرّد أمامه أوراقا ويكتب .. والمخرج حسن عبد العليم يناقش ثم يسجل بعض النقاط .. والكأس تدور عليهم جميعا ..

وهنا التى كانت قد بدأت بكأس واحدة تهدى بها أعصابها ، ثم أصبحت الكأس كأسين ، أصبحت الآن لا ترفض الكأس الثالثة .. وهى حائرة فيما يجرى فى بيتها .. لم تعود أن تجتمع بالشاعر والكاتب والمخرج ليعملوا معا ولكن طاهر قال إن هذه هى الوسيلة الوحيدة حتى يعمل الجميع معا وينتجوا عملا مشتركا بسرعة .. قال لها إن عزيزة أمير كانت تنتج كل أفلامها هكذا .. كانت تجمع حولها من يعدون لها أفلامها ، وكلمة من هذا وكلمة من ذاك وتتم كتابة القصة .. وصورة فى خيال هذا وصورة أخرى فى خيالها أو فى خيال آخر ويحدد المخرج مشاهد الفيلم .. إنهم فى أفلام هوليوود لا ينفرد أحد بالعمل بل يعملون جميعا فى اجتماع يضمهم ..

وهنا تحاول أن تقتنع وحتى تعين نفسها على الاقتناع تلجأ إلى كأس أخرى .

وقال طاهر :

— تعينا .. نستريح يا جماعة .. ما رأيكم فى برتينة .. والتفوا بسرعة حول المائدة وبدأوا يلعبون ورق الكوتشينة .. وهناء تضحك ضحكة سكرى وهى تجلس وتلب معهم .. وأصبحت مائدة القمار مائدة كل ليلة ..

ودخل طاهر إليها وبصحبه رجل ضخم .. إنه محبوب عبد ربه .. مقال معروف سمعت عنه هناء وسمعت أنه جمع الملايين من صفقات مقاولات حققها فى دول الخليج .. وقال طاهر يقدمه لها وهو يهال بصوته :

— محبوب بيه .. طبعاً معروف ..

وقال محبوب وهو يتلع هناء بعينه :

— ده منى العمر يا ست .. أنا لا أدري كيف أرد جميل الأستاذ

طاهر ..

وشد طاهر هناء من ذراعها وابتعد بها وهمس فى أذنها :

— اتفقت معه على أن يتولى إنتاج الفيلم .. إنه لقطة .. لن يتدخل فى العمل .. فقط سيدفع .. الحد الأدنى مائة ألف جنيه ..

وهزت هناء رأسها والتفتت إلى محبوب وقالت فى لهجة باردة :

— أهلاً وسهلاً محبوب بيه .. شرفتنا ..

وجلس محبوب على مائدة القمار ..

وهناء تائهة فى كأسها ..

وفى آخر الليل بعد أن انصرفوا كلهم رفع طاهر فى يده عددا من الجنيهات وقال ضاحكا :

— الجانبونا ..

ولم ترد عليه هناء وعاد يقول :

— فقط كمكافأة للخدم .. إنهم يسهرون معنا ..

ولم ترد عليه ..

ووضع طاهر الجنيهاً فوق المائدة ، واقترب منها وقبلها فوق جبينها وقال :

— تصبى على خير ..

ولم ترد عليه ..

اتسعت مائدة القمار .. دعا طاهر أصدقاء آخرين .. ومحجوب عبد ربه يصحب معه أصدقاءه .. وأصبح المخرج حسن عبد العليم يصحب معه كل ليلة واحدة من الفنانين لتساعد في إحياء السهرة .. ولم تعد اللعبة التي يلعبونها أوراق الكوتشينة هي لعبة الكومي أو لعبة الواحد والثلاثين كما بدأت .. إنهم يلعبون البوكر .. البوكر المكشوف .. وارتفعت قيمة الجانبونا التي يتركونها على المائدة كل ليلة .. خمسمائة بل وصلت إلى ألف جنيه .. ومع ذلك فكل ليلة تبدأ باجتماع الأربعة .. هناء والشاعر والكاتب والمخرج .. ليبحثوا عن قصة الفيلم .. وهناء أصبحت تعلم أن لا شيء سينتهى وأن كل ما وصلت إليه هو أن أصبح بيتها منتدى للعب القمار .. وهي تعلم أن بيوتاً كثيرة من بيوت الفنانين وبعضها بيوت لكبار الفنانين تنقلب كل ليلة إلى نادى قمار ، واتسع بعض هذه النوادي إلى أن أصبح يشد إليه كبار الضيوف العرب .. الحمد لله أن طاهر لم يدخل إليها بعد بأحد من الضيوف العرب .. وهي لا تريد كل ذلك .. لا يمكن .. إن أم كلثوم

لم يكن بيتها أبداً نادياً للقمار .. ولكن هل هذا هو بيتها .. أبداً .. لقد أصبح بيت الأستاذ طاهر عبد الحميد ..

وتقضى ليلها بين اللاعبيين غارقة في كأس الخمر .. وتترنح .. وتضحك ضحكات السكارى .. وتطلق وتغنى دون أن يطلب أحد منها الغناء .. وصوتها يتمزق بين أبخرة الخمر التي تملأ صدرها .. وأعصاب عنقها تبرز وهي تشد النغم كأن كل ما في عروقه خمر .. وانطلقت ليلة وقد استبد بها الخمر وألقت نفسها فوق صدر الكاتب محمود حماد وهي تصيح ضاحكة :

— كم قبله تحتاج حتى تتم القصة ..

ثم تركته وألقت بنفسها فوق المخرج حسن عبد العليم :

— حدد بسرعة كم يكلفني الإخراج .. قبله .. أم غصة .. أم ليلة .. ثم ففزت ووقفت أمام محجوب عبد ربه وشدت القميص الذي يليسه فوق صدرها وصرخت ونهداها عاريتان :

— ادفع .. ادفع بسرعة .. الإنتاج لن ينتظر ..

ثم أخذت تقفز حول المائدة وهي تصيح :

— إني أبيع .. من يشتري .. إني أبيع .. من الشارى .. أبيع انفن .. هذا هو الفن .

والكل صامتون .. مبهورون .. وطاهر يجرى وراءها يحاول أن يمسك بها ..

وفجأة توقفت كأنها أفأقت ، ورفعت يديها تغطي بهما نهديهما العاريتين .. وهي تدبر عينيها بينهم في نظرات تائهة ضائعة .. ثم انطلقت تبكى وأخذت دموعها وجرت بها إلى غرفة نومها وطاهر

يلحق بها .. ومدت يدها إلى درج بجانب فراشها وأخرجت زجاجة
م صغيرة بها حبوب حمراء ..
إنها تنتحر ..

وضربها طاهر على يدها وأطاح بالزجاجة الحمراء وسقطت فوق
فراشها صامتة ، كأنها أغشى عليها .. وطاهر جالس بجانبها يحيطها
بيده .. إنها الآن بين أصابعه .. كلها بين أصابعه .. لم يعد فيها شيء
يمكن أن يفلت منه .. وقد عاد إحساسه كله بأنه الأستاذ .. أنه
السيد .. أنه الخالق .. وهو يتعذب من حاجتها إليه .. يتعذب بحبه
الذي يفرض عليه أن يعطى .. يعيش نعيم العذاب .. والكلمات
ترتجف في صدره وتحت لسانه .. كلمات الشاعر المعذب ..

وشد ورقة من علبة بجانب الفراش وأخذ يكتب ..

ولم يشعر بكل الناس وهم يغادرون البيت ..

ولم يفكر أن يستدعي طبيباً لينقذ هذا الجسد الملقى بجانبه على
الفراش .. إنه يكتب ..

إنه يعيدها إلى الحياة ..

وتمت القصيدة ..

وبدأ عبد الوهاب يلحن ..

والصحف تكتب ..

وهنا وطاهر في انتظار أن تبدأ القصة من جديد ..

أرجوك خذنى من هذا البرميل

أنا امرأة من الكويت ..

وأجمل ما فى أنى كويتية .. وأنا أعرف أن الناس كلهم سواء فى البلاد العربية أو فى البلاد الأجنبية لا يستطيعون أن يفهموا معنى المرأة الكويتية أو يقدروا شخصية المرأة الكويتية إنما يضعونها ضمن نساء دول الخليج .. واحدة من نساء العراق أو السعودية أو قطر أو أبو ظبي أو .. أو .. أبدا إن المرأة الكويتية نوع قائم بذاته .. شخصية لها مقوماتها وتقاليدها ومعنوياتها التى تختلف تماما عن شخصية المرأة فى أى دولة من الدول العربية .. الاختلاف ليس فى الشكل .. أى ربما لم تكن للمرأة الكويتية ملامح تميزها عن المرأة السعودية أو المرأة العراقية إلا طبعاً فى لهجة الحديث ، واختلاف اللهجات يصل إلى حد يبدو كأن كلا منهن تتكلم لغة أخرى ليس بينها لغة القرآن .. ولكن الاختلاف فى الشخصية نفسها ، وفى الوضع الاجتماعى ، وفى قيمتها كجنس أى كامرأة ..

وقد لا يصدقنى أحد عندما أؤكد أن المرأة الكويتية هى أكثر النساء حرية فى البلاد العربية .. أكثر حرية من نساء مصر ومن نساء لبنان وسوريا ومن نساء العراق ومن كل النساء ، رغم أن المرأة عندنا ليس لها حق الانتخاب ولا الترشيح لمجلس النواب ولا من حقها أن تكون

وزيرة ولا شيئا من كل هذا الكلام الفاضى الذى يضحك به الرجال على عقول النساء باسم الحرية وباسم إعطاء المرأة حقوقها .. إن حرية المرأة هى حريتها فى ممارسة شخصيتها وفى كل ما يمس وجودها وفى مساواة تامّة مع شخصية الرجل .. وهذا هو ما تتميز به المرأة الكويتية ..

والى عهد قريب كانت المرأة الكويتية تعيش محجبة وراء العباءة ، ولكن الحجاب لم يكن له أثر أبداً على شخصية المرأة الكويتية .. إن التقاليد لا تحدد المظهر الخارجى ويمكن دائماً أن تتغير وتتطور ببساطة ولكن الشخصية شىء آخر غير التقاليد ، إنها كيان وطبيعة الإنسان نفسه التى يتوارثها جيلاً بعد جيل ولا تتغير حتى مع تغير مظاهر التقاليد .. المرأة الكويتية السافرة اليوم لا تختلف فى شخصيتها أبداً عن المرأة الكويتية التى كانت محجبة بالأمس ، ولا فى حرية هذه الشخصية وكيانها القائم بذاته ، فى مواجهة شخصية الرجل ..

وحتى تفهمونى يجب أن ترجعوا إلى تاريخ مجتمع الكويت منذ وجد هذا المجتمع .. لقد وجدنا كمجتمع كل رجاله من البحارة والغطاسين من صيادى اللؤلؤ والتجار والقراصنة .. وكان رجالنا يعيشون فى البحر أكثر مما يعيشون على الأرض .. يغيبون شهوراً ، ويتركون الأرض للأطفال والعجائز والنساء ، فأصبحت المرأة بحكم هذا الواقع الاجتماعى هى التى تحكم فى الأرض والرجل لا يحكم إلا فى البحر .. المرأة التى تركها زوجها وأبوها وابنها إلى البحر وقد يغيبون سنوات فى مياه المحيطات أصبحت هى المسئولة عن الأطفال إلى أن يكبروا ويهاجروا إلى البحر ، ومسئولة عن العجائز إلى أن

يهاجروا إلى قبورهم ، ومسئولة عن الاحتفاظ بكيان القبيلة لتستقبل فيها الرجال عندما يعودون من البحر لقضاء أجازاتهم .. مسئولة .. مسئولة .. وهى مسئولة تتطلب الحرية الكاملة .. الحرية الشخصية .. حرية الفكر الذى يسبق التصرف .. كانت المرأة الكويتية فى القديم امرأة حرة ، وكانت الحرية هى المسئولة ..

ثم تطور المجتمع الكويتى والمرأة الكويتية لا تزال تعيش طبيعتها كامرأة حرة ، ولكن هذا التطور قضى على المسئولية الشاقة التى كانت المرأة تحملها ، فأصبحت حرة بلا مسئولة ..

وهذا هو سر متاعب المجتمع الكويتى والمرأة الكويتية .. وطبعاً كان تطور المجتمع الكويتى هو الأثر المباشر السريع لاكتشاف البترول فقد استقر الرجل الكويتى على الأرض .. لم يعد يعيش فى البحر بحثاً عن الرزق بل أصبح يحفر الأرض فينطلق منها الرزق .. إنه حتى لا يحفر الأرض بيديه بل يجلس فى بيته ويستدعى من يحفرها له .. ولم يعد يغوص فى قاع البحر باحثاً عن حبات اللؤلؤ ليبيعها وتتحلى بها نساء الأغنياء ، بل أصبح هو من الأغنياء يشتري اللؤلؤ ويحلى به نساءه .. وعندما استقر الرجل على الأرض ضاعت مسئولة المرأة .. لم تعد هى المسئولة عن كيان القبيلة .. لم يعد كل من حولها أطفالاً وعجائز .. لم يعد كل شىء فى يدها هى ..

وشىء آخر سببه البترول للمجتمع الكويتى ، وهو تعدد القبائل فوق أرض الكويت .. إن قطعة الأرض الصغيرة أصبحت تحمل عشرات القبائل الغربية الزاحفة .. قبيلة أمريكية ، وقبيلة هندية ، وقبيلة

فلسطينية ، و قبيلة إيرانية و قبيلة لبنانية ، و قبيلة يمنية ، و قبيلة مصرية ..
و .. و .. قبائل تزحف من كل أنحاء العالم و تتجمع حول آبار
البترو ل ..

و احتارت القبيلة الكويتية صاحبة الأرض كيف تواجه هذا الزحف
القبائلي .. إنها ليست قبائل غابرة تأتي و تذهب .. ولكنها قبائل تأتي
و تستقر .. تعيش معنا إلى الأبد ..

و لم تجد القبيلة الكويتية ما تواجه به الزحف إلا الهرب ..

لم تهرب إلى البحر كما تعود أهل الكويت ..

ولكنها هربت إلى السماء ..

ارتفعت أو ترفعت ، و اتخذت لنفسها عرشا فوق قطعة من
السحاب تطل منه على القبائل الزاحفة .. تطل إطلالة المالك على
رعيته .. في كبرياء المالك ، و صلف المالك ، و ثراء المالك ..

و وسط هذا الزحف القبائلي العالمي ضاع مظهر الشخصية
الكويتية .. لم يعد في الكويت شيء كويتي .. سيارة أمريكية ..
و ثوب من كريستيان ديور الفرنسي .. و ساري من الهند .. و طبق كبه من
لبنان .. و كرافت من هارولد الانجليزى .. و حلة ملوخية من مصر ..
و صينية بقلادة من سوريا .. و بيت على الطراز الأسباني .. و جامع على
الطراز التركي .. و .. و .. و هذا الضياع لا تجده نسي الشوارع
فحسب ولكنك تجده داخل البيت الكويتي .. لم يعد هناك بيت
كويتي يعبر عن شخصية كويتية قائمة بذاتها و طراز كويتي متوارث ،
ولكنها مجرد بيوت غريبة يسكنها كويتيون ..

و المصيبة الأكبر التي وقعت بعد البترول هي مصيبة الفراغ .. فراغ

الوقت و ليس هناك أقسى على الرجل و المرأة من الفراغ .. و أصبح كل
أهل الكويت يعيشون كأنهم يعتمدون على أوراق اليانصيب .. دخل
البترو ل نفسه ليس أكثر من قيمة ورقة يانصيب كسبتها الكويت ..
مجرد حظ .. مجرد منة من الله لا دخل فيها لمواهب الفرد و لا لعبقريه
الفرد و لا لمجهود الفرد .. و انعكس كل ذلك على حياة الفرد
و شخصية الفرد .. أصبح مجرد إنسان في يده أوراق يانصيب و يعيش
بلا عمل في انتظار الربح .. حتى طبيعة الإنسان الكويتي التي تسرى في
دمه حولها البعض منهم إلى أداة ترفيهية لشمضية أوقات الفراغ ..
فالكويتي من طبيعته أنه تاجر ، ولكنه لم يعد يتحمل أن يعبر الصحراء
على قوافل الجمال أو يعبر المحيطات إلى الهند و إيران في سبيل
التجارة ، لقد أصبح بعضهم يقبع في بيته و يعطى أمواله لغريب أو
لشركة أجنبية لتتاجر له بها ، بل إنه أصبح من حقه أن يتاجر حتى دون
أن يفاخر بأمواله فقد أصدر قانونا بأن لا أحد من الأجانب له الحق أن
يتاجر في الكويت إلا وله كفيل كويتي .. و الكفالة هي مجرد أن يمنح
الكويتي اسمه لأجنبي ليتاجر به و يصبح من حقه نصيب في الربح دون
أن يعمل أو يفاخر أو يبذل جهدا .. و من طبيعة الكويتي أيضا المغامرة
الذكية .. إن صيد اللؤلؤ ليس إلا مغامرة ذكية للبحث عن الجواهر
الغالية .. مغامرة يتدفع إليها غائصا في البحر حتى لو كتمت أنفاسه ..
ولكنه أصبح يفاخر باصطياد النساء .. لم يعد يغوص في البحر ، ولكنه
يغوص في فنادق لندن و باريس أو يغوص بين عائلات لبنان أو سوريا
ليصطاد امرأة .. لم يكن في حياة الرجل الكويتي كل هذا العدد من
النساء الأجنبية قبل اكتشاف البترول .. أى قبل البترول دولار .. إننا

نحن النساء الكويتيات ننظر إلى هذا النوع من النساء اللاتي يفدن على أسرة رجالنا ، لا على أنهن نساء بل مجرد بضائع .. بضائع يشتريها الرجل ليقضى بها أوقات الفراغ كما يشتري نرجيلة يدخنها أو حصانا يركبه ..

والمرأة الكويتية .. أنا .. إن ثقل الفراغ عليها أقسى وأخطر من ثقله على الرجل .. وقد كان من طبيعتها قبل اكتشاف البترول أن تتحمل مسؤولية هدف أساسي في حياة قبيلتها ووطنها .. كان الرجال يحرون ويتركون لها كل مسؤولية الأرض .. ولكن الآن ليس للمرأة الكويتية هدف إلا تمضية أوقات الفراغ .. وحتى عندما نصر البنت على أن تتم تعليمها وتساfer إلى مدارس بيروت أو مصر أو لندن ، لا تقصد العلم نفسه إنما تقصد فقط تمضية أوقات الفراغ .. إنقاذ نفسها من ثقل وقسوة الفراغ .. ولكن العلم ما دام ليس له هدف لا يمكن أن ينقذ البنت من أوقات الفراغ ، ولهذا تعرضت كل بناتنا لكل مساوئ الفراغ ، بل أصبح المجتمع الكويتي مضطرا أن يتستر على أوضاع لم يكن أبدا يبيحها لمجرد اعترافه بأن الفراغ أصبح له احتياجات .. حتى هذا النوع من الاحتياجات ..

ورغم كل هذا التطور في حال الكويت فقد بقي الكويتي والكويتية كل منهما صاحب شخصية قائمة بذاتها بين بقية دول وإمارات الخليج .. شخصية تتميز بالحد الأقصى من الذكاء .. إننا أذكى أهل الخليج .. بل أذكى أهل العرب .. وهم يسمونا يهود الخليج نسبة إلى الذكاء المنسوب لليهود ولكنني أؤكد أننا أذكى من اليهود ألف مرة ، ولو كنا ولدنا في فلسطين لكان اليهود الآن هم الذين يعانون مشكلة

البحث عن وطن .. ولا شك أن الذكاء الكويتي قد تطور في مسؤوليته بعد اكتشاف البترول .. فقد كان الذكاء الكويتي مركزا على الكسب .. البحث عن الثراء .. أما بعد البترول فلم يعد الكسب ولا البحث عن الثراء يحتاج إلى كل هذا الذكاء ، بل أصبح ما يحتاج إلى ذكاء هو الإنفاق .. كيف تنفق ما تكسبه .. وأقوى ما يحرك هذا الذكاء هو طبيعة طمع الفقير في أموال الأغنياء .. كل الفقراء طامعون في أموالنا .. ويجب أن نكون من الذكاء بحيث لا ندفع إلا الحد الأدنى مع الاحتفاظ برضاء الفقراء حتى نتجنب لعنتهم .. وهم يقولون إننا بخلاء .. أبخل من أهل السعودية .. لا .. إننا لسنا أبخل ولكننا أذكى .. أذكى ونحن نأخذ وأذكى ونحن نعطي ..
هذه هي أنا ..

كويتية ..

ومشككتني أنني منذ البداية لا أطيق أوقات الفراغ .. ولا أطيق أن أستريح على شيء لا يتحرك .. كل شيء يجب أن يتحرك ، ويتحرك بإرادتي وتحت قيادتي .. إن شخصيتي التي أحرص عليها هي نفس شخصية جدتي وجدة جدتي .. أريد أن أحمل المسؤولية وحدي كامرأة وليخرج الرجل إلى البحر ويعود ليضع بين يدي ما حصل عليه .. ما كسبه .. لأدبره له وأحتفظ به ثم يعود إلى البحر ويتركني وحدي وهو مطمئن إلى مستقبله ومستقبل البيت والأولاد ومستقبل الأرض ..

وقد بدأت كما تبدأ أي فتاة من بنات العائلات الكبيرة العريقة في الكويت .. كل حياتي في البيت .. أدرس في البيت ، وألعب في

البيت ، وأشاهد أفلام السينما فى البيت ، وتحدثت عن العالم خارج البيت كأنه عالم الكبار فقط وربما كان السبب فى هذا هو أننا نبدأ كبارا ونحن فى الثامنة من عمرنا .. وقد كنت ابنة ثمانى سنوات عندما بدأت أتحدث مع بنات العائلات ومع الجوارى والخادمات عن الرجل .. عن الزواج .. عن الجنس .. كنت فى العاشرة من عمرى وأنا أعرف كل شيء عن الجنس وأحس به أيضا وإن كان إحساسا ينطلق من الخيال لا من الواقع الجسدى .. وليس هذا غريبا ولكنه نتيجة طبيعية للفراغ الذى تتعرض له البنات والصبايا بين جدران القصور .. وربما كنت منذ أيام طفولتى وأنا ناثرة على هذه الجدران التى تحيط بى .. جدران القصور .. أريد أن أعود إلى خيمة جدتى وأنطلق أجرى وأمرح فوق رمال الصحراء وأقف على شاطئ البحر فى انتظار الرجال وهم عائدون من رحلة تجارة أو رحلة قرصنة ، وسيوفهم البائرة تتأرجح فوق خصورهم وأكتافهم تحمل صناديق الغنائم وبريق الذهب الذى عادوا به .. خيال .. وقد كنت أعبر عن خيالى بالشقاوة والعفرفة .. كنت أكثر بنت بين بنات العائلة كلها شقاوة .. وكان لى فى كل يوم ضجة وخناقة وأحيانا جريمة صغيرة تثير الضحك أكثر مما تثير الألم أو الندم .. ولكنى لم أكن دائما هذه البنت اللعوب العفرفة فقد كنت أحيانا أجد نفسى أبكى .. أبكى بعنف كأن كل خلجة من خلجاتى تذوب فى دموع .. كلمة واحدة أو لفظة واحدة وأبكى .. وإذا بكيت لا أكف عن البكاء إلا بعد أن أضعف وأنام .. وأحيانا كانت شخصيتى كلها تتحول إلى شخصية رقيقة حاملة كأنى ارتفعت إلى أرقى مستويات عواطف الإنسان ورقة الإنسان وأنفرد كلى إلى سماع

الأغنى العربية وكثيرا من الأغنى الأجنبية وأنا نفسى أغنى .. وغنائى يطربنى أنا ولا يهمنى إذا كان يطرب الآخرين .. وربما لو كنت قد درست الغناء أو تعلمت العزف على آلة موسيقية لتمتعت نفسى أكثر وأنا أغنى .. ولكنه الكسل .. فلانى أستطيع أن أشتري المستمعين وأشتري إعجابهم حتى لو كانوا منافقين ، دون حاجة إلى أن أعلم الموسيقى والغناء ..

هذا التناقض فى شخصيتى جعلنى أبدو بين بنات العائلة كأنى شخصية غير طبيعية ، وربما كنت فعلا غير طبيعية بالنسبة للمقاييس العامة ، وقد كنت فى الوقت نفسه ومنذ طفولتى محبوبة من الجميع .. إني أثير الحياة فى كل مجتمع أكون فيه منذ كنت طفلة وصبية ، وهو ما يجعل الكل يريدونى بينهم يحبونى ويتحملونى ..

وعندما أصبحت فى العاشرة من عمرى تركت الكويت وانتقلت إلى القاهرة لألتحق بالمدرسة الإنجليزية للبنات .. ولم أسافر إلا بعد معركة عنيفة مع أبى وأمى والعائلة كلها .. فالعائلة لم يكن يخطر على بالها أنى فى حاجة إلى العلم .. إن بنات العائلات الكبيرة فى الكويت كلهن لسن فى حاجة إلى العلم .. العلم كما يتصورونه هو طريق للرزق وبناتهم والله الحمد فى غنى عن الرزق .. الله أغناهم .. وأنا نفسى لم أكن فى الواقع أحس بحاجتى إلى العلم ، ولم تبد على أى مقدمات لأى موهبة علمية ، ولم أكن أفكر فعلا فى أن أكون خريجة جامعة ولا حتى خريجة مطبخ .. أقصد دراسة أعمال البيت .. وكل ما حدث هو أنه تقرر أن يسافر أخى الأكبر ليتحق بكلية فيكتوريا فى الإسكندرية .. كنا قد وصلنا إلى العهد الذى أصبحت فيه العائلات تنباهى بأن أولادها

يتعلمون في الخارج .. ويتعلمون اللغة الإنجليزية .. لماذا لا يكون من حق البنت أيضا أن تتعلم في الخارج .. لقد أصبحت هذه هي أيضا موضة بنات الكويت .. أصبحن يسافرن ليتعلمن في مصر وبعد أن تغيرت أحوال الحكم في مصر أيام جمال عبد الناصر أصبحن يسافرن إلى بيروت أو إنجلترا أو أمريكا ، ولكن على أيامى لم تكن هذه الموضة قد انتشرت بعد فاحتجت إلى ضجة أثيرها في وجه أهلى حتى أسافر إلى مصر .. إذا سافر أخى فيجب أن أسافر أو أنتحر .. وكنت واثقة أنى لن أنتحر فإن أبى يحبنى ويدلنى ولا يرد لى طلبا ، ثم إنه رجل يتميز بالجرأة على مجازاة التطور ، ولن يتردد فى أن يكون من أوائل رجال القبيلة الذين أرسلوا بناتهم لتلقى العلم فى الخارج ، وكذلك أمى لا شك أنها من أنصار كل موضة جديدة وإرسالى إلى مصر هى الموضة "التي يمكن أن تنبأى بها أمام صديقاتها ..

وأصبحت فى مصر .. فى القسم الداخلى بالكلية الإنجليزية للبنات ..

إن الحرية خارج بلدك لها طعم آخر غير الحرية التى تحصل عليها داخل بلدك .. طعم حلو يفتح شهيتك إلى حد يهددك بالتخمة وقد نفع صرعى لها .. وقد ذقت حلالة الحرية الواسعة وإن كنت أحيانا أصاب ببعض المرارة لأنى أثبت أنى مسئولة عن نفسى هناك كما أنا مسئولة عن نفسى هنا .. والمرأة كالرجل فى تقديرها لحريتها .. إن بعض الرجال يسافرون إلى الخارج سواء فى طلب العلم أو للسياحة فيفتهمون فى استعمال حريتهم .. الحرية هى أن تكون له فى كل ليلة امرأة .. وأن يلعب القمار بحرية .. وأن يشرب الخمر علنا .. وأن ينطلق فى

الرقص .. و .. و .. حتى إذا عاد إلى بلده أفقد نفسه حريتها لأنها حرية سرية لا يستطيع أن يجاهر بها .. حرية سوداء .. هؤلاء الرجال لا يقدرّون أن النساء أيضا معرضات لما تعرضوا له .. معرضات وهن فى خارج الكويت لأن يضعفن أمام إغراء الحرية .. فتكون الحرية هى حرية تذوق الرجال فى الفراش .. وحرية الخمر والقمار .. و .. و .. فإذا عادت هى أيضا إلى بلدها أفقدت نفسها حريتها وعاشت تتعذب بإغراءات الإثم أو الحرية الآتمة .. وكذلك فإن هناك رجالا يضعفون أمام حريتهم الاجتماعية وأمام اطمئنانهم إلى أنهم بعيدون عن الرقباء .. إنهم دائما يحترمون أنفسهم مع كل مستويات الحرية ، وكذلك النساء .. نساء كويتيات كثيرات سافرن إلى الخارج وعشن وحيدات بلا زوج أو أب ورغم ذلك احترمن هذه الحرية واحتملن عبء مسئولياتها ..

ورغم ذلك — وبعيدا عن مبادئ العفة والطهارة — فإن المرأة الكويتية خارج الكويت لا تزال إلى اليوم تختلف عن نفسها وهى داخل الكويت .. تختلف فى علاقتها الاجتماعية ، وفى اختيار ثوبها ، وفى مكياج وجهها .. إنى أعرف زوجا وزوجة يرقصان الأفرنجى خارج الكويت ويرقصانه علنا فى المحال العامة ، ولا يرقصانه وهما فى بلدهما الكويت حتى ولا فى حفل خاص داخل البيت .. لماذا .. ربما لأنهما يشعران فى الخارج بأنهما يتحدثان لغة أجنبية ويمارسان كل المظاهر الاجتماعية ويرقصان كأنهما يتحدثان هذه اللغة الأجنبية ورغم ذلك فإنى أتمنى أن يكون أهل الكويت وهم خارج الكويت هم أنفسهم داخل الكويت ..

وقد بقيت طالبة في كلية البنات الإنجليزية بمصر الجديدة ثلاث سنوات .. وربما لم أكن أياها أستطيع أن أقدر قيمة زميلتي وصديقتي المصريات اللاتي تعرفت بهن لأنني لم أكن قد سافرت بلادا أخرى لأكتشف الفرق بين بنات بلد وبلد آخر .. صدقوني .. إن المرأة المصرية هي أطيب وأرق امرأة في العالم ، وما يقال عنها من أنها امرأة مستسلمة صحيح .. ولكن .. مستسلمة لماذا .. إنها مستسلمة للسعادة الحقيقية .. وهي غنية في البحث عن حقيقة السعادة ولكنها بعد أن تجدها تستسلم لها .. والسعادة الحقيقية في نظرها هي سعادة النفس .. أن تحس بالراحة والهدوء والأمان .. ليست السعادة هي سعادة المظهر .. ليست في أن تلبس من عند كريستيان ديور أو تركب سيارة مرسيدس ، أو تزوج مليونيرا إنما هي أن تعيش اللحظة السعيدة مطمئنة إليها متمسكة بها .. وقد أشركتني صديقتي هناك في هذه اللحظة السعيدة .. ربما كانت مصر هي المجتمع الوحيد الذي أحس فيه بحقيقة الصداقة .. إنني هناك لا أحس بأني غريبة وأني كويتية لأن صديقتي لا يشعرن بي ككويتية ولكن كواحدة منهن .. بعكس ما أشعر به في أي بلد آخر حيث لا أستطيع أن أنسى أبدا أنني كويتية لأن كل من التقى به يعاملني ككويتية وينظر إلي كأني برميل بتروول .. لا شيء غير برميل بتروول .. وكل ما يقدم من اهتمام ومجاملات وعطايات إنما يقدم للبرميل لا لي .. أما في مصر .. فأنا فضيلة ولست برميل بتروول يحاول أن يستنزفه كل من يقترب مني .. بل إنني أصبحت أتعمد كلما زرت مصر أن أحمل هدايا أكثر من الهدايا التي أحملها لأي بلد آخر .. لا لشيء إلا لأن صديقتي هناك لا يحاولن معي شيئا

لاستنزاف أموالى ، ويفرحن بالهدايا التي أقدمها لهن فرحة حقيقية وليست فرحة مجاملة تخفى وراءها خطة للاستيلاء على هدية أكبر .. وعلى كل حال .. من يدري .. ربما كان هذا لأنني كنت موقفة في اختيار صديقتي المصريات .. فإن من الخطأ أن تطلق حكما عاما على شعب حتى ولو كان حكما في صالحه .. لا أستطيع أن أقول إن كل نساء مصر طيبات كما لا أستطيع أن أقول أن كل نساء الكويت ذكيات ..

وفي العام الثالث من دراستي في القاهرة مر والدى على بعد انتهاء الامتحان وصحبنى معه إلى لندن لقضاء أجازة الصيف هناك .. بلد جديد أراه وأعيش فيه ، وقررت أن أراه كله وأعيش فيه كله ، واستطعت أن أقتع والدى بأن أنقل دراستي من القاهرة إلى لندن . وعشت عامين في إنجلترا ..

إن الحرية هنا لها طعم آخر .. إنني أحس كأني أعيش داخل كتاب باللغة الإنجليزية أحاول أن أترجمه إلى اللغة العربية .. حياة لا أعيشها ولكني أتفرج عليها كأني أشاهد مسرحية أو فيلما سينمائيا وأنا بين مقاعد المتفرجين .. وقد أحاول أن أتفرج على كل شيء حتى على الشبان الإنجليز .. وكانت زميلتي في مدرسة « ميل فيلد » وهي في ضاحية بعيدة عن لندن ، يدعوني لقضاء أجازة يومى السبت والأحد في بيت العائلة وأحيانا في لندن .. وكان لكل منهن أخ أو صديق تقدمه إلي ويحاول معي ، وأحيانا أحاول أنا معه ، وهي دائما محاولات باردة ، علمية واقعية ، كان لا فرق بين أن يدخل معي إلى السينما أو يدخل معي إلى الفراش .. ولم أسمح أبدا لنفسى أو لاحد باجتماع

فراش ، لم يمسننى أحد .. كل ما هناك أنى كنت قد تعلمت الرقص وأصبح كل ما أسمح به هو هذه اللمسات التى لا أستطيع أن أفر منها أثناء الرقص .. ذراعه حول خصرى ، وخصه فوق خدى ، وشفته تنجرآن أحيانا على شفتى .. لا شىء أكثر .. وبجانب الرقص تعلمت أن أشرب البيرة وأنواعا خفيفة من الكوكيتل وتعلمت أن أعيش الليل كله فى مرح .. وقد تعودت طوال مدة إقامتى فى لندن ألا أرفع الكلفة وألا أرح إلا مع الشبان الأجانب ، ومعظمهم من الإنجليز وتعرفت مرة إلى شاب ألمانى ، ومرة إلى شاب أسباني ، ومرة إلى شاب جريكى .. مجرد تعارف ساعات لهو .. أما إذا التقيت بشاب عربى سواء كان كويتيا أو لم يكن ، فإنى أعود فورا إلى شخصيتى الراضية التى لا تسمح لأى شاب ولا بلمسة يد ، لا لأنى كنت أخاف الفضيحة .. إنى لا أخاف أبدا .. ولكن لأن هذا كان التأثير الطبيعى لانعكاس شخصية أى شاب عربى على شخصيتى ..

وفى لندن بدأت أحس بنفسى لأول مرة كبرميل بترول وأحس بمعاملة الناس لى كبرميل بترول .. وكان الذى قد حدثنى طويلا عن مطاعم الناس الغرباء فىنا .. فى ثرائنا وأموالنا .. ولكنى لم أحس بهذه المطاعم إلا بعد أن أصبحت فى لندن .. إن كل شاب يصحبنى أحس كأنه ينتظر أن أدفع أنا الحساب ، أو ينتظر هدية ثمينة منى فى كل لقاء .. وزميلاتى أيضا كل منهن فى انتظار صفقة مالية يخرجن بها من صداقتى .. وحتى المدرسات يطلبن منى المساهمة فى مشروعات مدرسية وفى أعمال خيرية لا يطلبن من غيرى المساهمة فيها وكل منهن فى انتظار هدية فى كل مناسبة .. وقد كنت أطوف كثيرا

بالحوانيت .. أنا من هواة شراء الملابس والحلى وخصوصا شراء المعطور فإذا اكتشف صاحب المحل أنى من بلد بترول رفع السعر ، وإذا كانت معى إحدى زميلاتى تحابلت حتى أشتري لها أو أدفع لها ثمن ما تشتريه .. إن بنات البترول لهن فى نظر العالم كله شخصية قائمة بذاتها عن باقى شخصيات بنات العالم كله حتى البنات العربيات .. فشخصية بنات البترول تختلف عن شخصية بنات مصر أو سوريا أو لبنان رغم أن كلهن بنات عربيات .. ولكن .. إن أمريكا أيضا دولة بترولية فهل يتعامل العالم مع بنات أمريكا كما يتعامل معى .. لا أظن .. إن بنات أمريكا يتهمن بالفنى وربما يطمع فيهن الشبان أكثر مما يطمعون فى بنات إيطاليا مثلا ، ولكن ليس كل ما فى أمريكا هو البترول .. ثراؤها هو ثراء حضارى .. لذلك لا يقدر العالم بنات أمريكا كما يقدر بنات البترول العربى ، إن العالم يفترض فيهن الجهل والتأخر الحضارى ..

هذا الإحساس بأن كل قيمتى هو أنى برميل بترول جعلنى أنقلب إلى شخصية عكسية .. شخصية حذرة فى التعامل مع الناس إلى حد أنه أصبح من السهل اتهامى بأنى بخيلة .. وكان هذا الحذر يدفعنى أحيانا إلى نوع من الحرص الغبى ، وأذكر أنى فى مرة ركبت إحدى سيارات الأجرة وعندما حاسبت السائق طالبنى بمبلغ أكثر مما سجله العداد .. كان يطلب شلنا واحدا .. ولكن يجب أن أثبت له أن بنات البترول .. لسن مغفلات فأعطيته ستة بنسات .. نصف شلن .. وإذا به يلقي النقود كلها فى وجهى وينطلق يسب ويشتم بألفاظ أحمد الله أن لغتى الإنجليزية كانت لا تزال ضعيفة فلم أفهمها كلها .. واضطرت أن

أعطيه بدلا من الشلن جنبها استرلينا كاملا .. وقد عرفت بعد ذلك أن الرجل لم يطالب بأكثر من حقه فكل من يركب تاكسى هناك يدفع للسائق شلنا فرق ما سجله العداد .. ومع ذلك فاني لا أعترف باتهامي بالبخل .. إنني في حالات كثيرة كنت كريمة .. كريمة جدا .. ولكنني كنت أقدر كرمي حسب ما يقابله من احتياجي ومع الأسلوب الذي يعاملني به من يستحق هذا الكرم ..

ولم تكن حياتي في لندن كلها لهوا ومتعة .. كانت تتأبى حالات انعزالية طويلة أحبس خلالها نفسي في حجرتي وأعطى كل نفسي لسماع الأسطوانات .. أغان عربية وأغان أفرنجية .. لقد بدأت أتذوق الأغاني الأفرنجية وأجيد ترديد بعضها .. وكنت أبحث عما يأخذني من نفسي لا عما يفيدني .. وطبعاً كان أكثر ما يأخذني من نفسي هو قراءة القصص .. والأغاني والقصص أفادتني كثيرا في تقوية لغتي الإنجليزية مع مرور السنين .. إنني اليوم أتكلّمها بطلاقة .. ولكنني لا أتكلّمها بهدف ، أي لا أجرى بها وراء شيء مفيد من العلم أو من الاطلاع ولكن فقط أسلى بها نفسي وأنظّار بها في المجتمعات التي تحيط بي .. وكنت في لندن أعرّض أيضا لكثير من نوبات اليكاء .. أبكى طويلا دون أن أكون قد تعرضت لشيء يبكيني ، إنما أبكى شيئا في داخلي .. الفراغ .. الضياع .. الحيرة .. لا أدري لماذا أبكى كل هذا اليكاء .. ربما لأنه لا ينقصني شيء .. إنني أستطيع أن أشتري كل شيء .. أشتري الدنيا كلها .. ولكن هناك شيئا ينقصني .. ينقصني الجنس .. أن أقلب هذه الفتاة التي هي أنا إلى امرأة كاملة .. ولم تكن عقليتي تسمح لي بأن أجعل من نفسي امرأة إلا إذا

تزوجت ..

ولم يكن الزواج بالنسبة لي مغامرة ، أو قصة ، إنما هو مجرد إجراء نتيجة مجموعة من الحسابات ..

ولم أكن قد أتممت السادسة عشرة من عمري عندما تزوجت .. تركت العلم وتركت كل أحلام الشباب وتركت لندن وعدت إلى الكويت وتزوجت .. وكان المجتمع الكويتي قد بدأ أيامها يعاني أزمة الزواج ، فالرجال الذين أفسدهم البترول يفضلون الزواج من الأجنبية وخصوصا من بنات سوريا ولبنان ، ويتجاهلون بنات البلد يتركونهن للحرمان والضياع والتهتك ، حتى من تزوج منهن تنتظر أن يسافر زوجها في العام التالي ويعود ومعه عشرون حقيّة من البضائع بينها زوجة مشتراة من الخارج .. ولكن هذه الأزمة لم تكن تمسني .. لست من أكثر بنات الكويت جمالا ولا أكثرهن إغراء بالعكس كان المعروف عني أنني أتعبهن وأكثرهن جرأة على تحدّي كل شيء ، ولكنني ابنة هذه العائلة .. ومن أجل عائلي كان الخطاب يتهافون على أبي .. ربما لم يكونوا يتهافون على أنا شخصا ولكن تهافتهم على أبي كان يكفي ..

واخترت سالم من بين كل من تقدموا إلي ..
أنا التي اخترته ..

وقد اخترته لأنني كنت أتطلع إليه من صغرى .. إنه ليس من أكثر الرجال وسامة في شكله ولكن وسامته كانت في شخصيته .. وهو هادئ دائما لا يتكلم كثيرا وإذا تكلم أقتعني بسرعة وأحسست أن في كلامه حكمة ، ثم إنه منذ صغرى عودني على أن يحتملني .. كان

يضحك لشقاوتي وجرائتي ووقاحتي ولا ينفر منها .. وكان يخيل إلى أنه ينتظرني كزوجة ، لقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره دون أن يتزوج وهو نادرا ما يحدث بين رجال الكويت ..
.. لا بد أنه كان ينتظرني إلى أن أنضج وأرضى به زوجا ..
ومنذ الليلة الأولى صدمت بخيبة أمل فيه ..

لقد أقبل على فوق سرير العروس بلا أى مقدمات كأنه يؤدي عملية عادية لا تتطلب جهدا خاصا .. كأنه يضغط على جهاز كمبيوتر ليصل إلى النتيجة التي قدرها مقدما .. كأنه مقبل على مائدة العشاء ليملأ بطنه ويتشهى .. ورفضت .. ورفضت أن يكون هذا هو الجنس .. هذا هو كل ما بين الرجل والمرأة عندما يضمهما فراش .. إن متعة لحظة يمكن أن تكون متعة ساعة ، ومتعة ساعة يمكن أن تكون متعة يوم ، ومتعة يوم يمكن أن تكون متعة شهر .. وأنا لا أريد أن أنتهى من متعتى فى لحظة .. وأنا لست جاهلة بحقيقة المتعة بعد كل ما تعلمته فى لندن وأريد أن أستغلها .. ورفضته فى أول ليلة .. لم أرفضه ولكنى أثرت معه صراعا مثيرا مسلليا استمر حتى الصباح دون أن أتركه يصل إلى .. وهو دهش .. لا يستطيع أن يفهم وكل ما هناك أنه يتحمل ويحاول .. وفى الليلة الثانية .. والثالثة .. الرابعة .. كأني شهر زاد تسلى بإثارة شهريار .. إلى أن استسلمت له فى الليلة الخامسة وأصبحت من تحته امرأة .. يا زوجي العزيز هكذا يجب أن يكون كل شيء ، على الأقل لنملا أوقات الفراغ ولكن مع مرور الأيام والشهور اكتشفت أن الجنس وحده لا يكفي ليقضى على أوقات الفراغ حتى لو بقيت أرقص لزوجي طول الليل والنهار .. إن الاكتفاء بأى شيء ينتهى بالملل .. وقد كان

المفروض أن أملا فراغى بعد ذلك بإنجاب الأولاد .. بأن أكون أما .. إن تسعين فى المائة ينجبن لمجرد ملء أوقات الفراغ وأنا لا أريد أن أكون واحدة من تسعين لا أريد أن أكون امرأة عادية ومجرد فرخة تبيض .. كان هذا فى خاطرى منذ أن قررت الزواج فتعمدت أن أمنع نفسي عن الحمل ، وعندما اعترض سالم وثار قلت له إن من حقى أن أمتع بنفسى كزوجة قبل أن أنتقل إلى متعتى بنفسى كام .. وأنا لازلت صغيرة .. وأنا أحب الأطفال كما أرى أحب أن أكون امرأة عادية ومجرد فرخة تبيض ولكنى لا أستطيع أن أملا حياتى حتى بلا أطفال .
ولكن كيف ..

إن سالم نفسه فارغ .. إنه يرى ثراء عائلته وكل ما يضيفه هو مجرد تعليق اسمه على الشركات والمشروعات التجارية التي تغد على الكويت .. أن يعمل كفيلا لبعض التجار الأجانب بحكم قانون الكفالة .. مجرد تعليق اسمه . وهو رئيس مجلس إدارة لشركة ، وعضو مجلس إدارة فى شركة أخرى .. أيضا مجرد تعليق اسمه .. فراغ من المخاطرة بأمواله ، والمجازفة بقيمته ليثبت قدرته .. إنه لا يعيش حلاوة الرزق كما كان يعيش أبجداده .. يبحر على مركب يصنعها يديه ويجدف عليها بذراعيه ويصل بها إلى جسر أقصى المحيط ليعود بشيء جديد مما اكتشفه من الكوز .. إنه واحد من الذين لا يصنعون الرزق ولكنهم يتلقونه .. يتلقونه من آبار البترول ويتلقونه على أيدي التجار الأجانب ..

وضقت بالفراغ .. والفراغ يضطرنى أن أكون امرأة عادية فاستسلمت لغريزة أمومتى وأنجبت ابني حازم .. ولكن حتى ابني لم

يستطيع أن يملأ فراغى .. إن حوله مربية ، وثلاث جوار فى خدمته ، وأطفالا يستأجرون لتسلية واللبب معه .. وأنا أتفرج عليه من بعيد وأعبر له عن أومتي بقبلة .. مجرد قبلة ..

وفى كل عام نساfer إلى أوروبا كما يسافر أهل الكويت .. أقصد أثرياء الكويت فإنه حتى فى الكويت يوجد فقراء لا يستطيعون أن يسافروا إلى الخارج فى الصيف .. تصوروا .. ولم أكن أستطيع أن أعيش فى أوروبا مع سالم كما عشتها وحدى وأنا صبية .. إن أوروبا مع سالم هى مجال مشتريات ومطاعم وسهرات مكررة مملة ولا شىء آخر .. لا شىء نكتشفه .. لا شىء نغامر فيه .. المغامرة كانت من حقوق سالم وحده .. مغامرات رخيصة .. قمار ونساء .. بل إننا بعد العام الثالث من الزواج كنا عندما نساfer نستأجر فيلا أقيم فيها أنا وحازم والميريات ، ويقيم هو فى فندق ليكون على حريته فى لعب القمار والترحيل بين النساء .. ولم أكن أهتم .. لم أكن أغار .. إنى لا أحبه .. يبدو أن الزواج لا يصلح لزراعة الحب .. ولكنى لا أكرهه .. إن الزواج يقيم ألفة نحميتى من الكراهية .. ثم إنى دائماً حرة .. زواجى لا يقيدنى بشىء .. وسالم المجنون المغرور كآى زوج آخر لا يقدر أنى أنا أيضاً أستطيع أن أملأ فراغى بلعب القمار واستجلاب الرجال . ولكنى لا أفعل لأنى لا أريد .. ليست هذه هى طبيعتى .. والفراغ يقلبى ..

وقد حاولت أن أحيط نفسى بنشاط اجتماعى واسع داخل الكويت .. ولكن كان سالم يصد نفسى عن هذا النشاط فإن المجتمع لا يفتح النفس إلا إذا قام على تبادل الخدمات .. خذ وهات ..

مشروعات ومغامرات وصفقات .. ولكن سالم لا يحس بالمجتمع إلا كمقهى يتردد عليه لمجرد الدردشة .. وحاولت فى فترة أن أقيم حفلات كالأفراح أسلى بها نفسى فأدعو إليها من أعرفهم ، وكنت أرسل فى طلب أشهر الفنانين والموسيقين من مصر ومن لبنان .. ولكنى بدأت أحس كأنى أصبحت متعبدة حفلات أقيمها ليتسلى الناس دون أن يدفعوا أجرا ، وأنا لا أخرج بشىء سوى لحظات أشغل بها وقتى .. وحاولت .. وحاولت .. ثم استسلمت لطبيعة المرأة الضعيفة التى تملأ فراغها بأموئها فأنجبت ابنتى صابحة .. ثم لم أعد أطيق ..

مرت سبع سنوات منذ تزوجت ..
هذا يكفى ..

وقلت لزوجى سالم وأنا مازلت أقدره وأحترمه وأحبه هذا النوع من الحب :

— سالم .. لننفصل ..

وقال سالم فى دهشة هادئة :

— لماذا ؟

قلت وأنا أرجوه فى نظرة توسل لم يتعودها :

— لا سبب .. أنت لم تخطئ فى حقى وأنا لم أخطئ فى حقك .. ولكنى أريد أن أحاول حياة أخرى ..

قال :

— طول عمرك مجنونة ..

قلت وأنا أبتمس له :

— عيبك أنك لست مجنوناً ..
قال :

— وهل وجدت المجنون ..
قلت :

— صدقتي لا .. إنني أتركك لأبقى وحدي ..
وسكت سالم ..

والذي ثار هو أبيض ، ولكنه هو الآخر استسلم لجنوني .. والطلاق
بين العائلات الكبيرة في الكويت سهل .. إن كل شيء سهل بما فيه
الطلاق ..

وقد طلقت ..

وبدأت قصتي ..

حتى الآن لم تكن قصتي قد بدأت ..

ربما مرت بي أيام ندمت فيها على أنني أصررت على الطلاق من
زوجي سالم فقد فوجئت بأن الفراغ قد اتسع حولي .. فراغ خارج
البيت وفراغ داخل البيت .. وكان يمكن أن أبدأ التفكير في شغل
فراغي بأن أبدأ البحث عن زواج جديد .. ولكن لا .. إن أي زوج
سيكون كسابقه وسأعاني ما عانيته ، فإن أي رجل لا يراني إلا في
صورة واحدة .. صورة ابنة العائلة الكبيرة وابنة البترول .. لن أتزوج
مرة أخرى إلا بعد أن أثبت شخصيتي الذاتية .. أن أكون شيئاً قائماً
بذاتي بعيداً عن العائلة الكبيرة وعن البترول ..

وقد فكرت في هذه الفترة وحتى أثبت شخصيتي أن أعمل بالتجارة
باسمي .. أي أن أفتح مكتباً تجارياً أو أنشئ شركة .. فكرت في أن
أحتكر جميع الواردات النسائية التي تصل إلى الكويت ، وبدأت فعلاً
في دراسة عدة مشروعات ، ولكنني ترددت كثيراً قبل أن أبدأ العمل
فعلاً وقبل أن أتصل بأي شركة من الشركات الخارجية .. إنني لا أريد
أن أتحمل العمل بنفسى .. هذه ليست شخصية المرأة الكويتية ..
ليست شخصية جدتي وجدة جدتي .. لم تكن جدتي تخرج مع
الرجل إلى البحر لتاجر أو تصطاد اللؤلؤ ولم نسمع عن امرأة كويتية
كانت تقود معارك القراصنة .. إن المرأة عندنا مسهولة عن تدبير الحياة

لا العمل .. الرجل يعمل والمرأة تتحمل مسؤولية حياته ومسئولية تدبير نتاج عمله .. لذلك لم أكن متحمسة كثيرا لأن أتاخر باسمى أو أن أكون صاحبة شركة ، ولا حتى مساهمة فى شركة .

وفكرت فى أن أكون صاحبة منتدى أدبى .. أن أقيم فى المجتمع الكويتى ندوة أسبوعية داخل بيتى أدعو إليها المستوى الراقى من الشعراء والأدباء والسياسيين ، تناقش الموضوعات الأدبية والسياسية مناقشة حرة نظيفة بعيدة عن الرشاوى التى تعودت الشخصيات الكويتية أن تدفعها للصحفيين والأدباء والسياسيين أيضا لينشروا قصائد المديح أو على الأقل ليشتروا سكوتهم .. ندوة كالتى اشتهرت بها هدى شعراوى والأديبة مى وفاطمة اليوسف فى تاريخ مصر ، وجورج صاند فى تاريخ فرنسا .. يجب أن أسجل فى تاريخ الكويت أيضا ندوة أدبية وسياسية تحمل فضيلة .. اسمى .. ولكنى كنت أيامها ساخطة على المجتمع الكويتى كله ، والمجتمع يبادلنى السخط خصوصا بعد طلاقى من زوجى سالم .. كان المجتمع ينظر إلى وبعاملى على أنى امرأة عجيبة .. شاذة .. ربما كان هذا هو نصيب العاقرة .. إنهم مجانين بين أهلهم إلى أن يعترف بعقرتهم الجيل الذى يأتى بعدهم .. وكل ما وصلت إليه لأتغلب على فراغى هو السفر إلى الخارج .. أصبحت أفضى أكثر من ستة شهور كل عام خارج الكويت .. أسبانيا .. إيطاليا .. إسكتلندا .. أمريكا .. اليابان .. كندا .. و .. وفى كل بلد لا أشعر بنفسى إلا كبرميل يترول .. وكل من حولى .. ماملنى كبرميل يترول .. أتفق وأدفع بسخاء ولكن ليس بغباء فأبى لا أقدم أبدا شخصية أهل الكويت الأذكاء عندما يدفعون .. يهود

الخليج .. وكل ما كنت أتمتع به خلال هذه الرحلات هو الحركة نفسها .. مجرد الحركة والانتقال من بلد لبلد وركوب الطائرة والنزول من الطائرة ، والتباهى بأنى أطوف العالم حتى لو لم أر من العالم ما يستحق أن أتباهى به ..

إلى أن التقيت بغسان ..

إن غسان هو قصة حياتى كلها ..

لم يكن سوى عامل فى محل « لا موديل » بشارع الحمراء ، وعرفته وهو يتقدم إلى ليخدمنى داخل المحل .. وهو وسيم ، وبصراحة أكثر فهو جميل وإن كان الجمال ليس صفة يوصف بها الرجل .. ولا أدري لماذا يعطى الرجال أنفسهم حق الانبهار بجمال المرأة ، ولا يعطون المرأة حق الانبهار بجمال الرجل .. وقد بهرت بجمال غسان .. مجرد رجل جميل دون أن يهمنى قيمة هذا الرجل غير جماله ، تماما كما يرى الرجل امرأة جميلة فى الشارع ويجرى وراءها وربما يدفع عمره ثمنا دون أن يسأل عن قيمتها الاجتماعية .. ولكن غسان كانت له يومها قيمة أخرى غير جماله .. قيمته فى الأسلوب الذى يعرض به بضاعته ورنه صوته المهدبة .. وقد كنت أشتري يومها ثوبا ، ودخلت إلى الحجرة المخصصة للقياس ودخلت معى إحدى عاملات المحل ولكنى بعد أن بدلت الثوب ولبست الجديد طلبت من العاملة أن تستدعى غسان ليقول رأيه .. وجاء غسان وأنا واقفة أمام المرأة أتظاهر باستعراض ثوبى فى الوقت الذى كنت أركز كل عيني على صورة غسان المنعكسة أمامى على المرأة .. وربما تعمدت يومها أن أظهر له مفاصل جسدى فأبى أعترف أن جسدى

أجمل من وجهي .. ولا أدري ما الذى يدفعني إلى هذه المحاولة ..
محاولة إغراء غسان .. ربما كان ذلك نتيجة الحرمان الطويل الذى مر
بى بعد طلاقى والذى كان نقطة ضعفى أمام غسان .. ولم يد على
غسان أنه تأثر بجمال قوامى ، بل إن لمساته وهو ينظم الثوب الذى
أجربه لمسات سريعة عابرة ليس فيها تحريض ولا أى دعوة لى كما
تعود الرجال المختصون بتجهيز ثياب النساء أو كما تعود حلاقو شعور
النساء .. ربما لا يعرف من أنا .. وكدت أقول له من أنا حتى أغريه بأن
يعطينى أكثر من اهتمامه .. ولكنى عدت وحمدت الله على أنه لا
يعرفنى ، فهو على الأقل لا يعاملنى كبرميل بترول .. واطمأنت له
أكثر .. واشترت يومها خمسة أثواب .. كشفت نفسى .. فإن هذا
العدد من الأثواب لا يمكن أن تشتره إلا امرأة داخل برميل بترول ..
وكانت الثياب كلها فى حاجة إلى إصلاح .. فطلبت منه أن يحملها إلى
بنفسه فى الفندق بعد إصلاحها ، وقلت له :

— إنى أتق فى ذوقك .. واسترحت لك .. وأفضل أن تكون
حاضرا ..

وقال كأنه اكتشف من أنا :

— هذا يشرفنى ..

وسار معى حتى ركبت سيارتى الكاديلاك ، ووقف يتبعنى بعينه
كأنه يبحث عن الطريق إلى ..

ولأول مرة بعد شهور طويلة أدخل فراشى لأنام وفى خيالى
وإحساسى رجل واحد هو غسان .. وقضيت الليل وأنا أستسحف
نفسى وأقاوم نفسى .. إنى لست نافهة إلى حد أن أريد شابا يعمل عاملا

فى محل تجارى .. ثم ما هى قيمة هذا الشاب .. إنى أستطيع أن
أشتري بضعة دولارات . أشتريه ليلة أو ليلتين كما يفعل أى رجل عندما
يشتري مومس .. وأنا لست من هذا النوع .. إنى أرفض أن أكون من
هذا النوع .

وفى اليوم التالى جاء غسان إلى الفندق يحمل الأثواب ..
وعدت أنظر إليه ..

إنى ما زلت مبهورة به ..

لماذا لا أمتع نفسى به .. ماذا سأخسر .. إن المرأة تحتاج أحيانا
إلى الرجل كمجرد سباحة ، وكما تجوب فى داخل بلد للمعرفة
وال تجربة والتسلية فقد تجوب أيضا لنفس الأسباب فى داخل رجل ..
وبدأت نظراتى إليه تحرضه على ، وبدأ يفهم ما أريده منه ، وبدأ يلبي
مطالبى برفق .. همسة همسة وخطوة خطوة .. إنه أذكى من أن يلقى
بنفسه مرة واحدة إنما يتعمد التخطيط ، وقد بدأ هذا التخطيط يظهر فى
لمسات أصابعه فوق جسدى وهو يقيس لى الثوب ، وفى ابتسامة
تحمل معنى جديدا بين شفتيه ، وفى المواضيع التى يختارها لحدثه
ونحن واقفان أمام المرأة .. إنه يتحدث عن جمال ضواحي لبنان وعن
هدوئها وعن قصص الغرام التى شهدتها ، كأنه يدعونى إلى قصة من
هذه القصص ، وقلت له ونحن نتناول الشاى بعد أن انتهى من قياس
الثياب :

— إنك خبير فى أزياء النساء .. إنك رائع .. هل كنت طول عمرك

خبير أزياء ..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة كأنه يسخر بها من نفسه :

— أبدا .. لقد بدأت العمل فى بيوت الأزياء منذ عامين فقط ..
قبلها كنت أعمل فى تجارة السيارات .. وقبلها كنت أعمل فى صناعة
أعواد الكبريت فى نيجيريا .. وقبلها عملت شهورا فى السعودية ..
قلت :

— إن حياتك أوسع من عمرك ..
قال ساخرا :

— إن عمري حتى الآن سلسلة من الفشل .. أيامى كلها أحلام لا
تتحقق ..

قلت كأنى أتقدم لإنقاذ شهيد الأحلام :
— ما هى أحلامك ..

قال :

— النجاح .. إنى أستطيع أن أعمل فى أى شىء نظيف ، لا يهمنى
نوع العمل ولكن تهمنى نتيجة العمل .. والنتائج حتى الآن لا شىء ..
إنى مجرد إنسان عادى .

ونقلتلى أحلام غسان إلى أحلامى .. إلى تصورى بأن أكون المرأة
التي تدبر الحياة للرجل .. المرأة التي تترك رجلها يعمل وتأخذ هى
نتائج عمله لتخلق الحياة .. أن يعود القرصان بغنائمه وتتولى المرأة
التصرف فى مصيرها ..

ولكن ..

هل يمكن أن يكون غسان رجلى ..

لقد جاء إلى الفندق فى الليلة التالية بناء على طلبى وبحجة عرض
كتالوجات للأزياء .. وكنا قد أصبحنا أكثر تقاربا رغم أنه لم يكن قد

مضى على تعارفا سوى يومين .. وقد أصبح يشدنى إليه بجانب جماله
حلمى فى أن أحقق له حلمه .. وجلس ملتصقا بى وكشفه فى كنفى
وهو يعرض على الكتالوج ، وقلت وأنا أشير إلى إحدى الصفحات :
— أريد هذا الثوب ..

قال وهو يأخذنى بكل عينيه وشفاه تطلعان إلى شفتى :
— نستطيع أن نطلبه من باريس ..

قلت وأنا أدعى الحياء وكللى رغبة فى الارتواء فوق صدره :
— لست فى حاجة إلى طلبه من هنا .. إنى مسافرة إلى باريس بعد
أيام وأدعوك معى بصفتك خبيراً فى الأزياء .

قال وهو يزداد التصاقا بى :

— إنى أقبل دعوتك ولكن ليس بصفتى خبير أزياء ..
قلت :

— إنى أدعوك بأى صفة تريدها ..

قال وهو يمد ذراعه فوق كنفى :

— ليس لأى منا صفة .. فضيلة تدعو غسان .. وغسان يتمنى أن
تدعوه فضيلة ..

وشفتها تبخلقان فى شفتى .. إن نقطة الضعف فى شفاه الرجل ..
أكثر ما يثيرنى فى الرجل شفاهه وأكثر ما أشتهيه هى القبلات .. وقد
كان أكثر ما أعانيه من زوجى سالم أنه لا يؤمن بالقبلات ولا يحتاج
إليها ، وكنت إذا حرصته عليها اتعلها اتعلالا .. فانهزت أمام شفتى
غسان .. إنى أريد الآن كل شىء .. إنه أول رجل يتعامل مع جسدى
بعد زوجى .. ولكنى لست وحدى فى الجناح الذى أقيم فيه

بالفندق .. إن معي ابني حازم وابنتي صاحبة والمربيات .. وقلت لغسان وأنفاسي تتهدج :

— لا أستطيع .. إننا لسنا وحدنا ..

وقام وشدني من ذراعي قائلاً وشفته تنادى شفتي بابتسامة حلوة :

— تعالى .. لعلنا نهدأ في الجبل ..

وخرجت معه من الفندق بجانبه في سيارته الصغيرة الكالحة المسكينة كأولاد الفقراء .. ولم أنبه ساعتها إلا أنني أثرت دهشة بواب الفندق وسائق سيارتي الذي كان واقفاً على الرصيف .. وانطلق بي إلى الجبل في طريق بلدة عاليا ، وأخذني إلى فندق متواضع بعيداً عن الشارع العام ..

أخذني كلي ..

وأخذته كله ..

وأصبحت كلي حياتي لغسان ، وبدأت أعد نفسي للسفر معه إلى باريس ، وكان المفروض أن أصحب معي ابني وابنتي ولكنني عدلت وأعدتهما مع المربيات إلى الكويت حتى أكون وحدي مع غسان ، وقد بدأت وأنا في بيروت أخفي حياتي الجديدة عن الناس فلم يعد يأتي إلي في الفندق ، بل أصبحت أذهب إليه في فندق يختاره في الجبل وكل ليلة في فندق جديد .. وكان هو الذي يدفع لإيجار هذا الفندق دون أن يطالبني بشيء ، ولكنني كنت في كل صباح أجوب نفسي الأسواق وأنتقي له هدية أقدمها إليه في الليل .. هدية غالية .. أغلى مما كانت تتحمل طبيعتي الحريصة الحذرة ولا أقول البخيلة .. وقبل موعد سفرنا بيومين قال لي ونحن مستلقيان في راحة الفراش :

— هل تستطيعين أن تشتري مجموعة أخرى من بضائع لا موديل ..

قلت في دهشة :

— لماذا ؟

قال :

— بصراحة لأنني أريد أن أحصل على مبلغ العمولة قبل السفر .. قلت :

— أنت لست في حاجة إلى شيء للسفر .. أنت مدعو ..

قال وشفته تهتز أنمامي بكل إغرائهما :

— دعيني أتحدث إليك كرجل أعمال .. إنني أريد أن أكسب ثقة صاحب المحل لأنني سأحاول في باريس أن أحصل على توكيل أتعامل به معه .. فإذا حققت له صفقة أخرى معك كان هذا كافياً لثقتي بل قد يقبل أن يجعلني شريكاً له .. أنت لا تعرفين كم كسب منك في الصفقة الأولى ..

ونظرت إليه كأنني أقدر ثمن شفتي وقلت ضاحكة :

— سأعطيك .. وتصرف .. ولكنني لست في حاجة إلى ثياب أخرى من لا موديل ..

وأعطيته ألفي دولار وقال :

— سأقدم لك كشف حساب ..

قلت وأنا أختبئ بين ذراعيه كأنني أذوق البضاعة التي دفعت ثمنها :

— لا .. قبلني ..

وسافرنا بعد أيام إلى باريس وأقمنا في فندق جورج سانك .. هذا خطأ فإن كل الشخصيات العربية تقيم في هذا الفندق ، ولكنى لم أكن أعرف غيره وغسان كان فرحاً لأنه لأول مرة في حياته سيقم في مثل هذا الفندق وتعمدت طبعاً ألا أظهر معه .. كانت له غرفة بعيدة عن الجناح الذى تعودت أن أقيم فى مثله .. وقد استقبلت السفير وكثيراً من الأصدقاء فى جناحي وغسان ليس معى فلم نكن نتقابل فى الفندق ، ولكن لقاءنا دائماً فى الخارج ، وفى الليل يتسلل من غرفته إلى غرفتي ..

وبعد يومين سافرنا إلى قمة جبال تطل على ساحل الريفييرا وفوقها قلعة قديمة حولت إلى فندق فى منطقة اسمها « كاستلاراس » .. كان غسان هو الذى اكتشف هذا المكان من النشرات السياحية التى يطلع عليها .. إنه مكان لا يعرفه السواح العرب ، بل لا يعرفه إلا قلة من المليونيرات العجائز الذين يبحثون عن الهدوء كله ، بعد أن لم تعد لهم متعة إلا متعة مشاهدة جمال الطبيعة ... وعشنا فى الجنة .
لقد أدمنت غسان .
أدمنته ..

هذا الإدمان جعلنى أفكر فى مستقبلى معه .. هل هو يحبنى حقاً كما تعبر لمساته .. ومن أنا بالنسبة له .. هل أنا امرأة يريد بها العمر كله ، أم أنا برمىل يتروى يستنزف ما فيه من دولارات .. إنى لا أستطيع أن أبنى مستقبلى وأن أحقق أحلامى وأنا مجرد برمىل يتروى .. إن جدتى لم تكن تدفع للرجل هو الذى كان يدفع لها .. ويجب أن أختبر غسان .. يجب أن أتأكد من نوع حبه .. يجب أن أجعل منه رجلاً

يعطينى لا مجرد رجل أشتريه ..
وقضينا فى الجنة عشرة أيام ..
أمتع عشرة أيام فى عمرى إلى اليوم ..
وعدنا إلى باريس ، وانفصلنا كل منا فى حجرة ، وجاء السفير لزيارتي وبعد أن انصرف دعوت غسان إلى حجرتى رغم أننا اتفقنا على ألا يدخل الغرفة فى النهار واستقبلته فى هلع مفتعل وقلت له كائى جنت :

— لقد عرفوا كل شيء .. عرفوا كل شيء .. انتهينا يا غسان ..
وقال فى تعجب ودهشة وهو يأخذنى بين ذراعيه ليهدىء من جنونى :

— عرفوا ماذا ومن الذى عرف ..
قلت وأنا أشد شعري وأبكى :
— أهلى .. أبى وأخى .. لقد اتصلوا بالسفير وطلبوا منه أن يرسلنى حالا إلى الكويت .. لقد عرفوا حتى اسمك .. والسفارة كانت تبحث عنا فى كل فرنسا منذ خمسة أيام ..
قال وهو ينظر إلى فى حيرة :

— وما العمل ..
قلت صارخة :
— لا أدرى . لا أدرى ..
ونظر إلى طويلاً كأنه يحاول أن يحوى داخل عقلى وقال بعد تردد :

— إننا نستطيع أن نتزوج فيفقدوا حقهم عليك ..

وابتعدت عنه وفلت كأنى أضعه فى الاختيار الأكبر :

— هل تعرف ماذا يحدث لو تزوجتك .. إنك غريب وليس من حق بنات العائلة أن يتزوجن من خارج الكويت .. وإذا تزوجت أجنبية تبراوا منها وحرموها من كل فلس بل حرموها من الميراث أيضا .. إن رجال الكويت لا يسمحون لأى غريب أن يرثهم أو يحصل على شيء من أموالهم ، وهم يعتقدون أن الذى يتزوج بنتا من بناتهم إنما يتزوج أموالهم ..

وعاد غسان ينظر إلى طويلا كأنه يشك فيما أقوله وشفته تنقلبان كأنه قرفان من هذه المصيبة الجديدة ، ثم قال :

— ماذا تعين بكل هذا ..

قلت :

— أعنى أننا لو تزوجنا فسنضطر أن نعيش معتمدين على أنفسنا .. وسأحرم من كل ما أعيش به ..

قال :

— وهل أنت مستعدة أن تعيش معتمدة على نفسك وعلى ..

قلت :

— إنى سأكون امرأة أخرى غير فضيلة التى عرفتها .. فهل تقبلنى كامرأة أخرى ..

قال وقد ارتاحت ملامحه قليلا :

— إننا نستطيع أن نتزوج فى السر حتى لا يحرملك من حقك ..

قلت ضاحكة :

— مستحيل .. لا أستطيع .. إنهم يريدون اليوم أن أعود إلى

الكويت وإذا عدت فلن يسمحوا لى بالسفر وحدى مرة ثانية ولن يعطوك حق دخول الكويت ، فما جدوى أن أكون زوجتك فى السر ..

قال وهو يتسم كأنه أقوى منى :

— إذن نتزوج علنا ..

قلت :

— وهل تقبلنى امرأة لا تملك شيئا ..

قال وهو يعود ويحتضى :

— إن فضيلة التى أحبها لا تتغير سواء كانت تملك أو لا تملك

يكفى أن أملكها وتملكنى ..

وقلى يرقص فرحا بهذا الكلام الحلو .. يرقص بفرحة النصر .. لقد انتصرت .. أثبت لنفسى أن غسان لا يحبنى لأنى برمىل بترول بل لأنى امرأة .. مجرد امرأة .. وقد كان كل ما قلته له كذبا .. مجرد حكاية افعلتها حتى أجرب قيمة غسان عندما يعلم أنى أصبحت فقيرة ، ثم يقبل أن يعيش معى فقيرة .. كل شيء كان كذبا .. فلم تكن عائلتى قد عرفت شيئا عنى وعن غسان ، ولا اتصل أحد منهم بالسفير ، ولا بحث السفارة عنا .. كل هذا كان من خيالى .. وصحيح أن عائلات الكويت الكبيرة الغنية لم تكن تسمح لبناتها — زمان — بأن يتزوجن من أغراب ومن غير مستوى معين من الكويتيين ، ولكنى أنا بما لى من دلالة فى عائلتى كنت أستطيع أن أتزوج من غسان دون أن أحرم من شيء .. ولكنى كذبت .. كذبت حتى أضع غسان فى الحياة التى أريدها وحتى أجعله يعمل ويعطينى لا أن يعيش عائلة على أموالى وأموال

عائلتي ..

وفي نفس اليوم .. وغسان يتحرك وكأنه يقامر بكل حياته ويلعب لعبة لا يدرى نهايتها .. أخذني إلى جامع باريس وجلسنا أمام الشيخ واستدعينا لنا اثنين من الشهود وتزوجنا ..

كان عمري يومها أربعة وعشرين عاما ..

وعمر غسان سبعة وعشرين ..

وبعد إتمام الزواج مباشرة ذهبنا إلى السفارة ووقفت أقدمه إلى السفير :

— زوجي .. غسان رحمني ..

وسقط السفير على مقعده كأنه أغشى عليه ..

وقد أثار خبر زواجي ضجة كبيرة في مجتمع الكويت وبين أفراد العائلة ، وقدرت أن أبي لا شك غير راض عني وإن لم أستطع أن أقدر كيف سيتصرف ، كما بدأت صحف لبنان تكتب قصصا غريبة بذيفة عن هذا الزواج ، ولكن لا أحد من أهل الكويت اتصل بي ، ولا من عائلتي ، كما أنه كان من السهل على العائلة إسكات صحف لبنان وقد سكبت فعلا ..

وكنت قد قلت لغسان إن كل ما معي من مال سائل لا يتجاوز عشرين ألف دولار .. وكان هذا كذبا فإن لي في البنك حسابا مفتوحا بضممان العائلة .. ولم يناقشني غسان .. استسلم لما قلته في بساطة وقررنا أن نترك الفندق ونستأجر شقة متواضعة في حي مونيرناس حتى نوفر من المصروف وحتى نخفى عن الناس ..

ولأول مرة في حياتي أعيش كزوجة عادية متواضعة في بيت صغير

أنا المسئولة عنه وحدي .. لا جوارى ولا خدم ولا طباعين ولا سائقين .. أنا المسئولة وحدي .. وضحكت وضحك معي غسان عندما حاولت أن أطبخ طعام العشاء .. إنني لا أعرف شيئا .. لا أعرف حتى مجرد استعمال اليوتاجاز .. وكنت أبذل مجهودا كبيرا في تسوية الفراش وتنظيف البيت ، وكان غسان يعود ليدير كل شيء من جديد كأنني لم أفعل شيئا لا في تنظيف البيت ولا في تسوية الفراش .. وكان غسان يتركني كل يوم ليبحث عن مستقبل حياتنا .. كان يبحث عن توكيلات من الشركات الكبيرة ، وعن ملامح صفقات .. وأحيانا كان لا يعود إلا في الساعة الخامسة أو السادسة مساء .. وكنت سعيدة .. لم أكن طول عمري سعيدة كل هذه السعادة .. إنني أعيش كامرأة لا كبيرميل بتروول .. والمرأة في أي وضع من أوضاعها أسعد من البرميل ..

وكنت أسير في أحد شوارع مونيرناس في الصباح أشتري عليا من الأكل المحفوظ الذي تعلمت وتعودت الاعتماد عليه في إعداد الطعام لبيتي ، عندما قابلت عبد الرحمن وهو من أصدقاء العائلة وقيل أن أختفي عن عينه وأهرب منه لحقني .. وصرخ في وجهي :

— أين أنت .. إن أخاك جابر هنا في باريس وهو يبحث عنك منذ أيام ..

ولم أهتم بما قاله عبد الرحمن بعد ذلك .. ولم أهتم بكل ما قاله عبد الرحمن بعد ذلك .. إن أخي هنا .. أريد أن أراه حتى أطعمته على ابني وابنتي وأبي وأمي .. حتى أطعمته على العائلة كلها وعلى مصيري .. وقد أوحشني أخي .. إنه الوحيد الذي يفهمني في الكويت كلها وهو

دائما يثق بي حتى في جنوني ، ودائما يرحمنى ..
واتصلت به بالتليفون في فندق جورج حيث تعود أن يقيم في
باريس .. واستقبل صوتي في هدوء كأن لا شيء قد حدث لي ..
وعندما رجوته أن نلتقي بعيدا عن الفندق وافقني بلا مناقشة .. وفي
مطعم بين أشجار غابة بولونيا التقينا ، وعلى غير عادتي معه ألفت
نفسى فوق صدره وبكيت طويلا .. لقد رأيت فيه ابني حازم وابنتى
صاحبة .. وقال بعد أن طمأننى على كل أفراد العائلة وبعد أن سرد وقع
خير زواجى على كل واحد منهم .. كلهم اتهمونى بالجنون ..
وكلهم لم يجدوا عذرا لى أنى امرأة غير طبيعية .. وشاذة ..
وقال أخى وهو يضمنى بابتسامته :

— أنا موافق على هذا الزواج .. إنه رجل ليس من مستوانا وهو
غريب ولكن ما حدث قد حدث .. وأريد أن أراه اليوم لأبلغه موافقتى
على الزواج حتى يعرف أنك لست وحدك وأنك لا زلت فى حمايتنا ..
قلت فى جزع وكأننى أرى كل ما بينته على وشك أن ينهار :
— لا .. لن تراه .. ولن تقول له شيئا ..
وقال أخى جابر فى دهشة :
— لماذا ؟

قلت ودموعى تتوسل إليه :

— إنك الوحيد الذى تفهمنى فى العائلة كلها .. وأنا أريد أن أعيش
مع زوجى غسان وهو منصور أنكم جميعا قد تبرأتم منى وأنكم
طردتمونى من العائلة وأنكم أيضا قد قطعتم عنى كل مساعدة .. لم يعد
لى حق فى أموال العائلة .. إن زوجى وحده أصبح المسئول عنى ..

هل فهمتى .. إنى أريد أن أتأكد من أنه يحبنى لشخصى لا طمعا فى
أموالى .. يريدنى أنا لا عائلتى ..
وابتسم أخى قائلا :
— طول عمرك مجنونة .. ولكنها تجربة لك حق فيها .. لقد زهقنا
من أطماع الناس فىنا وفى نساتنا .
قلت مرتاحة :

— إنها تجربة قصيرة .. بعد أن أتأكد من غسان سأعود به إلى
العائلة .. إنى واثقة أن أبى يغفر لى كما غفرت أنت لى ..
قال فى جدية :

— ولكن حسابك المفتوح فى البنك سيبقى .. سأؤكد بنفسى أن
حسابك مستمر حتى لا تتعرضى لأى حاجة ..
قلت :

— إنى لم أفكر أبدا فى الاستغناء عن حساباتى فى البنوك .. ولكنى
أخفيت كل شيء عن غسان ..
وتركت أخى على موعد فى صباح اليوم التالى .. لا أستطيع أن ألقاه
فى المساء حتى لا أثير شكوك غسان ..
وضحك جابر ضحكة كبيرة قائلا :

— لقد تعودت أن ألتقى بنساء كثيرات فى السر .. لم أكن أنتظر
أن ألتقى فى السر بأختى أيضا ..

وعدت إلى غسان وأنا أكثر سعادة وأكثر اطمئنانا إلى خطتى ..
وكنت قد تعودت أن يعود إلى غسان وهو منهك متعب الأعصاب
ليروى لى كل تفاصيل محاولاته للعثور على توكيل لشركة كبيرة وكل

من قابلهم وكل ما صادفه ، وكنت أحس كأنى جدتى وقد عاد إليها زوجها من البحر يروى لها ما صادفه من قواقع اللؤلؤ ، وكنت أحس بأنى مسئولة معه .. مسئولة عن تدبير الحياة .. إلى أن عاد ليقول لى خلال حديث طويل :

— إنى متأكد أنى أستطيع الحصول على توكيل أزياء كارفن فى كل البلاد العربية .. ولكن حتى أحصل عليه فيجب أن أكون فى ضمانه بنك .. ونحن الاثنان لا نستطيع أن نضع فى البنك أكثر من عشرة آلاف دولار .. لا تكفى .. إننا فى حاجة إلى ثلاثين ألفا على الأقل نضعها فى البنك العربى حتى يضمننا لدى كارفن .. وفكرت برهة ثم قلت له :

— لماذا لا تعطى التوكيل لصاحب محلات لا موديل ..

قال وهو يلوى شفتيه ازدرأ :

— إنى بذلك لن أخرج إلا بعمولة .. إنها فرصتى لكى أصل إلى صفقة كبيرة أستقل بها .. شبت من أن أكون أجيرا عند لا موديل وقيمة العمولة لا تساوى الجهد الذى بذلته طوال هذه الأيام .. ثم التفت إلى وقال مبتسما وهو يغربنى بشفتيه :

— فضيلة .. إننا الآن شركة .. أكثر من شركة ، إننا كيان واحد .. وإذا لم يكن معنا سوى العشرة آلاف دولار فإننا نستطيع أن نبيع خاتمك السوليتير .. إنه يساوى أكثر من ثلاثين ألفا .. و .. ونظرت إلى خاتمى فى فرع .. إنى أحب هذا الخاتم .. إنه هدية زواجى الأول .. وهذا المحنون الجاهل لا يدري إنه يساوى أكثر من خمسين ألفا لا ثلاثين ألفا ..

وقلت له :

— دعنى أفكر .

قال فى حدة :

— ألا يكفى أن أفكر لك ..

قلت وأنا أنظر إلى شفتيه كأنى أستحلفهما بقبلاى :

— إن هناك طرقا أخرى لا تعرفها .. فإن لى أصدقاء هنا يمكن أن أقترض منهم بضمان اسم والدى .. مجرد الاسم حتى دون أن يعلم والدى شيئا .. فدعنى أحاول .. وسكت غسان وأدار لى ظهره .. وليتها هجرنى فى الفراش .. ولم أحاول من ناحيتى تحريضه فقد كنت أنا أيضا أفكر ..

وفى صباح اليوم التالى خرجت وحدى وذهبت إلى البنك وسحبت عشرين ألف دولار وعدت إليه لأروى له قصة طويلة كاذبة ادعيت فيها أنى قابلت فلانا وفلانا إلى أن استطعت أخيرا أن أقنع فلانا بأن يقرضنى هذا المبلغ وأنى وقعت له كميالة دائنة .. وفرح غسان ..

طار من الفرح ..

وأعطانى ليلتها كل ما يسعدنى وأكثر ..

وأصبح غسان فعلا وكيل بيت كارفن للأزياء فى دول الخليج .. وعدنا بالتوكيل إلى بيروت ..

واستقبلنا بيروت كأنها تستقبل حفلة افتتاح عرض فيلم سينمائى مشير .. لقد أصبحت مشهورة لا كبير ميل بتروول ولكن كقصه غرام ،

وغسان أصبح مشهورا أيضا كبطل يخطف بسحره النساء .. وقد خرجت بشهرتي وبدأت أغار على غسان من شهرته .. وبدأت الدعوات الاجتماعية تنهال علينا .. لا أريد أن أبدو بقصتي أمام الناس .. ولا أريد أن يتردد اسمي في صحف بيروت حتى لا تدفع عائلتي أكثر لإسكات هذه الصحف .. ولكن غسان أقنعني بأنه في حاجة إلى زبائن لكافرن ، إن كافرن ليس بيت الأزياء الوحيد في بيروت ، والمنافسة عنيفة ، وأهم الوسائل التي تعتمد عليها المنافسة هي العلاقات العامة أى الاتصال بالمجتمع وتلبية الدعوات ، وتوجيه الدعوات ، واضطرت لذلك أن أقبل كثيرا من الدعوات ، وأن أضع ذراعي في ذراع غسان ونواجه مجتمع بيروت ، ولكنني كنت أتعهد أن أختار الدعوات بعد أن أتأكد أني لن أجد بين المدعوتين أحدا من أهل "كويت" ، لا لأنني أخاف منهم ولكن حتى أبقى غسان بعيدا عنهم فلا يثيرون أطماعه في أن يحصل على موافقة العائلة على زواجنا .. ولكنني بعد قليل اكتشفت أن أصحاب الدعوات لا يستقبلونني لشخصي ولكنهم يستقبلونني كقصة .. قصة برميل البترول الذي اختطفه عامل في محل تجارى .. وبدأت أضيق من هذه الدعوات وألح على غسان حتى تعتذر عن الكثير منها فكان يتركني وحدي ويذهب هو إلى الدعوة معتذرا للداعين بأنى مريضة أو بأى عذر آخر وكنت أثور عليه .. كيف يتخلى عني في سبيل هؤلاء الناس ثم ماذا يساوى هو من غيري أمام الناس .. إن كل قيمته هو أنه زوجي ، لم يكن شيئا قبل أن يكون زوجي .. ثم إنني لاحظت أن غسان يرفض كل الدعوات التي توجه إلينا من أفراد عائلته هو ومن أصدقائه القدامى .. إنه يتجاهل

أصله .. ولم أر أمه وأباه إلا مرة واحدة ولم أر أخته ولا شقيقه أبدا ، وعندما كنت أسأله عنهم كان يقول لى :

— إن من تقاليد عائلتنا أن يكون كل منا فى حالة .. وأنا أتصل بأبى كل يوم وأطمئن عليها وأبى كل طلباتها هل تريد أن أطلبها لك بالتليفون ..

ولم أكن أريد أن أتحدث مع أمه ولا مع أحد من عائلته وأصدقائه القدامى ولكنني كنت أريد أن أعيش معه .. أعيش الحياة المتواضعة التي يهرب منها غسان ..

وكان غسان قد استأجر لنا منذ وصلنا إلى بيروت شقة واسعة تطل على البحر وأثاثها فاخرا دفعت أنا كل تكاليفه من حساب الدولارات التي يعرف غسان أني أحتفظ بها ، وعندما كنت أعترض على كل هذا الإسراف في تأثيث البيت كان يقول لى ضاحكا :

— إن وكيل كافرن يجب أن يعيش في مستوى كافرن ..

وكان غسان في حاجة إلى محل يتخذة مكتباً ومعرضاً لكافرن .. وهو لا يريد محلا تجاريا على قارعة الطريق ، ولكنه اختار طابقا كاملا في إحدى عمارات شارع الحمراء إيجاره السنوى خمسون ألفا من الدولارات أى حوالى مائة وخمسين ألف ليرة .. وجاء إلى يطلب خاتمي السوليتير والسوار الماسي ليبيعهما أو يرهنهما حتى يستطيع أن يستأجر هذا المحل .. وقد كنت بيني وبين نفسي مقتنعة بأنى يجب أن أساعده فعلا .. إنه لا يريد المال لنفسه ولكنه يريد ليبنى المشروع الذي يعقد عليه مصيرنا .. إن جدة جدتي كانت لا شك تعطي كل ما تستطيع حتى يبنى المركب التي سيبحر بها لصيد اللؤلؤ أو للتجارة أو

للفرصنة .. ولكنى أيضا لا أستطيع أن أضحي بمجوهراتى .. إنى أحبها وتعودت عليها .. إن الماس يحيط بى منذ ولدت .. أصبح كأنه قطعة من شخصيتى ..

وقلت :

— ألا تستطيع أن تقترض بضمان توكيل كارفن ..

قال وهو يفرينى كعادته بشفتيه :

— إن التوكيل يا حبيبتى لا يساوى شيئا .. إنه إشبه برخصة القيادة .. المهم هو ما نكسبه من هذا التوكيل ونحن إلى الآن لم نكسب شيئا ..

قلت وأنا أتهد فى مرارة :

— دعنى أجرب طريقتى ، لعلنى أستطيع أن أقترض مرة أخرى باسم

الذى ..

وتعمدت أن أفضى عدة أيام أنظاها بأنى أبحث عن الشخص الذى أستطيع أن أقترض منه .. كنت أخرج من البيت وأقضى اليوم كله وحدى وأعود إليه دون شيء وأروى له تفاصيل كاذبة وهو يستمع إلى فى عصبية دون أن يسلط شفتيه لإغرائى .. ويهجرنى فى الفراش .. له حق .. إنى أقدر أن الرجل عندما تتسلط عليه متاعب عمله لا يصلح للفراش .. وبعد أسبوع كنت قد سحبت من حسابى المفتوح خمسين ألف دولار أعطيتها له وأعدته إلى فى ليالى الفراش ..

وبدأ غسان يعمل بجهد وذكاء .. وأصبح بيت كارفن فى بيروت أنجح وأرقى بيوت الأرياء .. وأنا فرحة .. بهذا النجاح .. كأنه نجاحى .. وأستقبل غسان كل مساء كأنى أستقبل زوجى بعد أن قضى

يومه فى قاع المحيط وعاد يحمل قفصا مليئا بحبات اللؤلؤ ..

ولكنى بدأت أعانى من شيء آخر ..

أعانى من غيبة ابنى وابنتى عنى ..

مضى أكثر من عام وهما بعيدان عنى ..

أرپدهما ..

ولكن .. كيف أصل إليهما وأنا مازلت محتفظة باقتناع غسان بأن

عائلتى قد تبرأت منى وحرمتنى من كل شيء حتى من أولادى ..

كارفن هناك . ولم يكن غسان يجزؤ على أن يدخل الكويت فقد كان يخيل إليه أنه سيقتل هناك بعد أن تزوجني وكنت أنا أؤكد له هذا الوهم ، فكان يستعين بوكيل له لترويج بضائعهم هناك ، ثم كان المفروض أن يسافر غسان بعد هذا إلى باريس لالتقي به هناك ، ولكنني استطعت أن أقنعه هذه المرة بأن يعفني من السفر إلى باريس ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أتركه يسافر وحده ، فقد كنت أرتاح لأن يسافر وأنتظره كما كانت جدتي تنتظر زوجها إلى أن يعود من البحر ، ولكنني في هذه المرة لم أتركه يسافر وحده لأرتاح ولكن لأرى أولادي ..

وكنت قد أعددت كل شيء .. سافر غسان ، وفي اليوم التالي جاء إلى ابني حازم وانتهى صابحة مع ابن عمي والمريبات ، وأخذتهم إلى قرية فرايا فوق ثلوج الجبل لأنها منطقة لا يتردد عليها أحد من الكويتيين .. وعشت مع حازم وصابحة هناك .. عشت وأنا لا شيء سوى أم .. أحسست أن أمومي هي كل ما في .. لست امرأة ولا برميل ولكنني أم .. وبدأت أستخف كل ما فعلته .. أستخف حتى لغسان وقصة زواجي منه ..

وقضيت مع حازم وصابحة عشرة أيام أحسست خلالها أن هذا هو وجودي الطبيعي .. أن أكون بين أهلي وأن أكون أما .. ولم أشعر خلال هذه الأيام بشيء من الفراغ الذي كنت أشكو منه دائما .. بالعكس ، اكتشفت أن الأولاد هم مسئولية تملأ فراغ الحياة كلها .. إن الأولاد مشاريع مستمرة لبناء الحياة .. مشاريع يدخل فيها العلم والاقتصاد والفن والمبادئ والمتعة وكل ما يمكن أن يشغل فراغ

كنت دائما مطمئنة على ابني حازم وابنتي صابحة فقد كنت أتصل تليفونا بيئنا في الكويت وكانت ابنة عمي تتصل بي وأحيانا أخى جابر وإن كنت لم أجزؤ أبدا على الاتصال بأبي ولا بأمي ولم يتصلا هما بي ، وكنت أخفي هذه الاتصالات عن زوجي غسان وإن كنت أحيانا أبلغه أن ابنة عمي أو إحدى صديقاتي قد اتصلت بي من الكويت أو أنني اتصلت بصديقتي لأطمئن على ابني وابنتي ..

ولكن الاطمئنان لم يعد يكفيني ..

لقد مر أكثر من عام دون أن أراهما وأسمع صوتهما وأحتضنهما إلى صدري .. وكان يمكنني أن أطير إلى الكويت وأبقى هناك ولو ليوم واحد لأرى أولادي ، ولكنني أصبحت كأني أخاف مجتمع الكويت أو على الأقل أحمل هم ونقل مواجته بعد قصة زواجي ، وكنت أيضا أستطيع أن أقنع عائلتي بأن ترسل لي ابني وابنتي ليقيا معي أياما في بيتي ولكنني لم أكن أريد أن أشعر زوجي غسان بأن العائلة تتساهل معي حتى لا أثير فيه شهوة براميل البترول ..

وجاءت الفرصة التي أنتهزها لأرى ابنتي وابني ، فقد قرر غسان أن يسافر في جولة إلى دول الخليج والسعودية حتى يشرف على أسواق

الإنسان .. وكانت تمر على حالات تنابى فيها نوبات البكاء التى تعودتها .. أبكى حيرتى فى نفسى .. فى شخصيتى .. هل أنا أم .. هل أنا امرأة .. هل أنا برميل .. ولماذا لا أستطيع أن أجمع كل ذلك فى شخصية واحدة هادئة مستقرة ..

وكان يجب أن يعود حازم وصباحة إلى الكويت قبل أن يعود زوجى غسان من باريس .. وقد تأخر غسان فى عودته .. غاب أكثر من عشرين يوما .. وعندما عاد أخذ يقلبنى وهو يصيح :

— الشيكولاته يا فضيلة .. الشيكولاتة ..

ثم فتح أمام دهشتى حقيبة من حقائبه فإذا بها معبأة بقطع وصناديق مختلفة الأشكال من الشيكولاتة الإنجليزية ماركة كادبوري .. وبدأ يروى لى مشروعه الجديد .. إنه التقى فى باريس بعملية كبيرة جريئة وسافر إلى لندن من أجلها ثم ترك لندن وسافر إلى موسكو وفى خلال أيام استطاع أن يتهما .. عملية غريبة تقوم على تصدير شيكولاتة كادبوري إلى الاتحاد السوفيتى فى مقابل استيراد أسمنت وحديد يصدرهما إلى إيران ودول الخليج .. وصاح غسان :

— إننا بذلك نصبح أصحاب شركة عالمية ..

وكنت أسمع إليه وأنا فى دعر داخلى فإنى أعرف ما يتطلبه أى مشروع جديد من مشاريع غسان .. يتطلب أن أدفع .. وقد بدأ غسان يمهّد لإقناعى بالدفع بنفس الأسلوب .. أسلوب إغرائى بشفتيه .. واحتضنتى كلى وقبلنى قبلة طويلة كأنه لن يترك أبدا شفتى .. ثم نام بجانبى وهو يتحسس جسدى بأصابعه وقال :

— إنه مشروع كبير .. فى حاجة إلى رأس مال ضخّم .. أكثر من

مائة ألف دولار .. وقد فكرت أن نبيع توكيل كارفن ولكن خسارة .. يجب أن نحفظ به .. فما رأيك ..

وكان غسان عندما يحدثنى عن مشاريعه يتحدث باسمنا نحن الاثنين كأننا شركاء ، ولكن الواقع أنى لم أكن أعرف شيئا عن هذه المشاريع ، ولم يكن شيئا منها مسجلا باسمى ، بل لم أكن أعلم كم أصبح غسان يملك .. لا أدري قيمة حسابه فى البنك الذى يتعامل معه ، والأموال التى أعطيتها له لا أدري شيئا عن مصيرها ، وصحيح أنه يدفع مصاريف البيت ، واشترى سيارتين واحدة له وواحدة لى ، وكان يرداد سخاء يوما بعد يوم ولا يرفض لى طلبا وإن كنت قد تعودت أن لا أطلب منه الكثير .. ولا شك أن كل ذلك من مكاسب كارفن .. وهى مكاسب تكفيها وتكفى الحياة التى أريدها والتى تختلف عن الحياة التى ولدت فيها .. تختلف حتى فى لذاتها .. فإن طعم الثرودولار يختلف عن طعم الكارفن دولار ..

وقلت لغسان :

— لا تطلب منى أن أقترض مرة ثانية .. إننا لم نسدد حتى الآن شيئا

من القروض القديمة ..

وقال وهو يزيح جسده عن جسدى :

— إنه لم يمض علينا سوى عام وبضعة شهور ولا نستطيع أن نسدد

فى هذه المدة القصيرة .. إننا نكسب ولكن مكاسبنا محدودة

خصوصا وأننا نتوسع ونفتح محال جديدة لكارفن .. واسم والدك

ضمان كاف حتى لو تأخرنا فى السداد عشرات السنين ..

قلت وأنا أشد مقاومة من كل مرة :

— إن أبى لا يعلم شيئا عن هذه القروض وقد يعلم فى أى وقت وأنا واثقة أنه لن يوافق عليها وسيترك الدائنين يطاردوننا ..

قال مبتسما وهو يعود ويقترّب من جمعدى بعد أن أحس بمقاومتى :

— لن يطاردنا أحد .. إنهم فى أى لحظة يستطيعون أن يأخذوا منا كل شيء ما دمتنا سيقى كل منا للآخر ..

وبدأت ألين ، ولكنى كنت أتغير فى داخلى .. لم أكن ألين بنفس الروح التى سبق أن استجبت فيها لمشروعاته .. بدأت أحس وأنا أستسلم له بسخافتى وعيظى ، ولكنى كنت ما زلت أضعف من أن أقاوم هذه السخافة .. وهذا العبط ..

وكررت نفس القصة .. تظاهرت بأنى أبحث عن دائن ثم سحبت من حسابى فى البنك مائة ألف دولار سلمتها له بشيك باسمى بعد أن أفتعته أن الدائن حول المبلغ إلى حسابى فى البنك ..

وكانت العملية تفرض علينا أن نقيم فى لندن .. واستأجر لنا غسان شقة فى حى بيكاديللى وبدأ كل شيء فى حياتى يتغير ..

إن غسان يغيب عني طويلا .. يقيم معى أياما فى لندن ثم يطير إلى موسكو ثم من موسكو يخفى فى بيروت وفى البلاد العربية ، ويعود إلى بعد شهر أو شهرين .. إننى لا أستطيع أن أتحمّل ما كانت تتحمّله جدة جدتى عندما كان رجلها يغيب عنها فى البحر شهورا طويلة ليتاجر أو ليصطاد اللؤلؤ أو ليقوم بعمليات القرصنة .. لا .. إن نساء الكويت اليوم لسن نساء الأمس .. وبدأت أتقلب على نار الوحشة والفراغ .. وكنت أحيانا أسافر معه هنا أو هناك ،

ولكن حتى عندما أسافر معه كنت أحس بالوحدة والفراغ فهو دائما بعيد عني .. وكنت أحيانا أتصل بأخى أرجوه أن يأتى إلى فى لندن ليخفف وحدتى وفراغى .. وأحيانا كنت أدعو ابنى حازم وابنتى صابحة فى غياب غسان .. وأحيانا كنت أفكر فى أن أصارح غسان بكل شيء .. أصارحه بأن عائلتى كلها يمكن أن توافق على زواجنا وأنا يمكن أن نسافر ونستقر فى الكويت .. ولكنى كنت أتردد وأرفض لا أدري لماذا .. ربما لأننى كنت أبخل على غسان بأهلى وعائلتى وأبخل عليه بوطنى الكويت .. وربما لأننى لم أكن أريد أن يصبح زواجى بغسان زواجا عاديا لا يمثل قصة أو مشكلة .. إذا كنت سأعيش كزوجة عادية فالأفضل أن أتزوج رجلا من بلدى .. كويتى .. لا غريبا من لبنان ..

وكان غسان نفسه قد بدأ يتغير بعد أن نجحت عملية كادبورى كما نجحت عملية كارفن .. ولا شك أنه جمع أرباحا ضخمة لا أدري مداها فقد كان يعتمد أن يحدثنى عن تفاصيل كثير من عملياته ولكنه لم يكن يصارحنى أبدا بنتيجة أى عملية .. كم دفع وكم كسب .. وخيل إلى أنه بدأ يصبح إنسانا مغرورا ، وبدأ يتعلق بمظاهر مجتمع الأغنياء .. لقد استأجر فيلا كبيرة بحديقة واسعة فى لندن انتقلنا إليها ، وبدأ يقيم حفلات ساهرة فى كل الليالى التى يقضيها فى لندن .. ولم أكن أرتاح لهذه المظاهر إنها تعيدنى إلى إحساسى بأنى برمىل بترول .. ولم أستطع أن أحس بالنجاح فى المجتمع الإنجليزى .. وكرهته .. كرهت كل النساء وكل الرجال حتى الذين ينضمون إلى هذا المجتمع من العرب ..

ولكن ..

الأخطر من ذلك هو أن غسان نفسه بدأ يعاملني بأسلوب جديد .. إنه لا يهتم بي .. كأنه أصبح في غنى عني .. كأنه أخذ كل ما يريده من البرميل .. ثم لا شك أنه أصبحت له حياته النسائية الخاصة .. له نساء غيرى .. يخونني ربما دون أن يحس بالخيانة كأى رجل من الكويت يستأجر فى كل ليلة امرأة دون أن يحس بأنه يخون زوجته .. إن غسان أصبح كأى رجل كويتي .. ربما لم تكن هذه صفة رجال الكويت ولكنها صفة الرجال الأغنياء سواء كانوا من رجال البترول أو من رجال كادبورى أو من رجال كارفن .. إنها صفة الاعتزاز بالقدرة على الشراء بما فيها القدرة على شراء النساء .. وبدأت أتأكد أن غسان يخوننى .. إن الخيانة تكتشفها المرأة من طعم قبلة زوجها ومن أسلوب معاشرته لها فى الفراش .

إنه يخوننى ..

إلى أن كانت ليلة .. وكان غسان قد دعا إلى حفلة ساهرة فى بيتنا فى لندن .. كان عدد المدعوين أكثر من خمسين رجلا وامرأة واحدة وكنت أنتقل بينهم فى برود . وأتحمّل تقريبهم إلى وهم يلتفون حولى ولا أحد منهم يحس بى كزوجة لغسان ، ولكن كلهم يحسون بى كبرميل بترول ويتحدثون معى عن الكويت وعن أبى أكثر مما يتحدثوننى عن غسان وعن كادبورى وكارفن .. ثم خطر على بالى أن أبحث عن غسان ليعينى ويرحمنى من مدعويه .. إنى لا أجده .. ربما خرج إلى الحديقة مع عدد من المدعوين كما تعود كثيرا ، وخرجت أبحث عنه .. ووجدته .. وجدته خلف شجرة وبين أحضان كارول

ابنة سير لوفورد صاحب إحدى الشركات الكبيرة التى يتعامل معها غسان .. وكان يقبلها .. شفتاه بين شفتيها .. شفتاه التى ضعفت أمامهما واشتراني بهما ..

وتعمدت أن أخطو أمامهما حتى يرانى غسان ، ثم أسرعت عائدة إلى داخل القصر دون أن أنطق بكلمة .. وبقيت متماسكة مبتسمة إلى أن انتهت الحفلة وودعت المدعوين ، حتى كارول ودعتها حتى الباب وهى تنظر إلى بعينين مرتعشتين وتصاصحنى بيد يجمد فيها دمها البارد .. إنها أصغر منى .. وهى أجمل .. لا شك أنها أصغر وأجمل ..

وصعدت إلى غرفتى صامتة وجاء ورائى غسان يحاول أن يلمسنى يديه فرفضته بعنف ، وقال لى وهو يسلط على كل شفتيه :

— فضيلة .. أرجوك .. افهمينى واعذرينى .. كنت مضطرا أن أجاملها فأنت تعرفين مدى اعتمادنا على شركات أيها .. وأعمالنا تفرض علينا أن ندفع عمولات ورشاوى .. وأحيانا تكون العمولة أو الرشوة مجرد قبلة .. إنها رشوة دفعتها لكارول حتى أكسب أباه .. وقلت ساخرة :

— وهل تكتفى كارول بقبلة ؟ ..

قال وهو يحاول أن يلمسنى :

— إنها لا تفكر فى شيء أكثر .. لقد كانت تسلى بى بعد أن شربت كأسا ..

قلت وأنا أصرخ فى وجهه مبتعدة عنه :

— إنى لا أسمع أن تدفع هذه الرشاوى فى بيتى .. إذا لم تحترم

(خيوط فى مسرح العرائس)

البيت فأنت لا تحترمني .. هذا إذا كان كل ما بقى بينى وبينك هو الاحترام ..

قال وقد أمسك بي بالقوة وضمنى إلى صدره :

— إن ما حدث فى البيت دليل على البراءة .. لو كان هناك شيء أكثر لما حدث فى البيت ..

وسقط بشفتيه على شفتى ..

واستسلمت ..

وكان أسلوبه معى ليلتها يعبر عن خيانه .. أقصد أسلوب

الغرائز ..

وقررت من يومها أن أبذل من شخصيتى فى مواجهة غسان .. لن أكون المرأة التى تنتظر عودة زوجها من البحر .. سأكون المرأة التى تفرض أوامرها على الرجل .. المرأة صاحبة الفضل على الرجل .. وأنا صاحبة فضل على غسان .. أنا التى خلقتة وجعلت منه إنسانا ناجحا له قيمة .. أنا .. أنا .. أنا برميل البترول الذى استنزفه واستمد منه كل كيانة ..

وبعد أيام تركته يخرج من البيت إلى مكتبه ثم اتصلت به بالتليفون بعد فترة وقلت له وأنا أدعى الجزع كأى مصيبة وقعت على رأسى ورأسه :

— غسان .. يجب أن أراك حالا .. تعال الآن فورا ..

وقال :

— لا أستطيع .. إنى مرتبط بمواعيد حتى المساء ..

وقلت كأنى أصدر الأوامر :

— ألغ جميع مواعيدك وتعال حالا .. إن أخى جابر اتصل بى وهو يعلم كل شيء ..

وصمت غسان قليلا كأنه يفكر ثم قال :

— سأكون عندك بعد ساعة واحدة ..

وجاء غسان .. وطبعاً لم يكن أخى جابر قد اتصل بى ولا حدث شيء .. ولكنى استمررت فى تمثيل دور المرأة المدعورة ، وقلت وأنا أضع فى صوتى رعشة :

— جابر أمضى أكثر من ساعة وهو يتحدث إلى فى التليفون .. لم

يكن يتحدث ولكن كان يصرخ ويشتمنا نحن الاثنين .. إنه يعتقد أنى أنا وأنت لصوص استغللنا اسم أبى للنصب على الناس والاقتراض منهم .. وهو يعلم كل الأرقام .. لا بد أن الدائنين طالوهم بالسداد .. وقال غسان فى هدوء ..

— وماذا يريد أخوك ..

قلت :

— يريد أن ندفع .. ويجب أن ندفع يا غسان .. إن الديون وصلت إلى ثلثمائة ألف دولار تقريبا ..

قال وهو لا يزال هادئاً :

— لك حق .. يجب أن ندفع .. خلال شهرين أو ثلاثة سأدبر المبلغ ..

قلت وأنا ما زلت أقتعل الأنفاس المبهورة :

— لالن ينتظر أبى شهرين ولا يومين .. العائلة كلها فى ثورة .. إما

أن تدفع لأخي الآن أو ندخله شريكا معنا في عملية كادبوري أو كارفن و .. و ..

وما كاد غسان يسمع كلمة « شريك » حتى قفز من على مقعده وصرخ في وجهي كأنه يهيم أن يصفني :

— اسمعي يا امرأة .. أنا لست مغفلا ولم أكن مغفلا أبدا .. وأنا أعرف كل شيء منذ اليوم الأول .. ومن بين ما أعرفه أن هذه المبالغ التي أخذتها منك لم تكن قرضا من أحد ولكنك سحبتها من حسابك الخاص المفتوح إلى آخره في البنك ..

وصدمت .. أحسست كأن صخرة ثقيلة وقعت على دماغى فاهتزت وسقطت فوق المقعد .. إنه يعرف .. يعرف كل شيء .. وقد عشت معه ثلاث سنوات ولم أكن أنا وحدي التي أخدعه فهو أيضا يخدعنى .. نعيش وكل منا يكذب على الآخر .. لا حب ولا وفاء ولكن كذب وخداع .. مجرد عملية تجارية .. يبعني شفتيه ويأخذ الثمن .. أنا لست امرأة كما توهمت .. أنا دائما برميل بتروول ..

وأجته بأنفاس تنهدج :

— هذا صبيح .. إنها قروض ..

وصرخ :

— كفالك كذبا .. إن عندي أسماء البنوك التي تعاملين معها وأرقام الحسابات أيضا .. واحمدى ربنا لأننى لم آخذ منك أكثر ..

وصرخت في وجهه وقد قررت أن أتحداه وأضعه في مكانه :

— لو اعتبرت أنى كنت أقترض فقد كنت أقترض باسم أبى .. ولو اعتبرت أنى كنت أسحب من حسابى فى البنك فهو حساب باسم أبى

أيضا .. أى أن المصدر دائما واحد .. ومن حقى أن أسترد أموالى أو أكون شريكة لك فى كل فلس ، وأنت لم تشركنى أبدا فى شيء .. لا أعرف أين ذهبت أموالى ولا ماذا جنيت منها .. كل أموالى تختفى بمجرد أن تلمسها بأصابعك ..

وقال وكأنه ييصق فى وجهي :

— أموالك وأموال أبيك على طرف حذائى .. لقد أصبحت فى غنى عن أموالك وأموال أبيك .. ولكنك لن تكونى أبدا شريكة لى إنك أنت نفسك لم تحاولى أبدا أن تكونى شريكة لى لافى التجارة ولا فى الحياة نفسها .. وقد قلت لك إنى أعرف كل شيء .. أعرف أن عائلتك كان يمكن أن توافق على زواجنا وقد زارك أخوك جابر أكثر من مرة ، وأرسلوا لك أولادك أكثر من مرة ولكنك أنت التي لا تريدنى أن أنضم لعائلتك ولا أن تعترف لعائلتك بى كأنك تستعرين منى .. لا تريدن لعائلة الكويت الكبيرة أن تناسب صعلوكا مثلى .. وتفضلين أن ترفضن العائلة حتى لو كنت أنت فى حاجة إلى .. فى حاجة إلى كمجرد رجل يشارك معاشر الأرواح ..

وصرخت :

— هذا غير صحيح .. والرجال كثيرون .. إن الكويت لا تنقصها الرجال حتى أحتاج إلى رجل غريب .. ولكنى أخطأت وأحببتك .. وضحك ضحكة كبيرة ساخرة ثم قال :

— يا فضيلة أنت مغرورة .. غرورك صور لك أنك ذكية فى حين أنك أغبي امرأة عرفتها .. وقد كان من غرورك بنفسك وبعائلتك أنك تعمدت ألا تتجيبى منى .. لا تريدن أن يكون لك أبناء يحملون اسم

الرجل الغريب حتى لا يدخل إرث آبار البترول غرباء ..
فقلت وأنا أحس كأنه يعربني .. ويعربى حقيقتي :
— كنت أؤجل أن ألد منك حتى أتأكد من حبك ..
قال وكلماته تقطر بسخرية :

— ليس المهم هو حبى لك ولكن حبك لى .. فالحب يدفع المرأة
إلى الإنجاب من حبيبها .. ولكنك لم تعطبنى الحب أبدا أخذت منى
جسدى وأعطيتنى الثمن بالدولارات ..
وقلت :

— الآن نتحدث عن الأولاد لماذا لم نطالبنى من قبل أن أنجب
لك .

وقال فى قرف :

— لا أريد منك أولادا .. لا أريد أن يحمل اسمى ويرثى ابن
كوبية ..

وصرخت فى غيظ :

— ماذا تريد ؟

قال فى تعال :

— أريد أن يأتى أبوك وأمك وأخوك وكل عائلتك إلى هنا ليتشرفوا
بمعرفتي وبعد ذلك نتحدث فيما يمكن أن يحدث ..
ونظرت إليه كأنى وصلت إلى حد الجنون .. إنه يستهين بأبى
وعائلتى .. كأنه أصبح فى مستوانا .. هذا الصعلوك اللبائسى ..
وصرخت :

— طلقنى .. طلقنى الآن .. حالا ..

وقال فى دهشة :

— طلاق .. لماذا الطلاق ؟

قلت وأنا أقطر غيظا :

— لأنى لم أعد أطيقك .. لأنى أريد أن أهرب من فضيحتى
وخطيئتى التى ارتكبتها بك .. لأنى خدعت فيك .. لأنى صنعتك
وكأنى صنعت قالبا من السم القدر يسم دمي ..
وقال فى برود :

— إلى هذا الحد تريددين الطلاق ..

وعدت أصرخ :

— طلقنى .. وإلا والله العظيم أقتلك ..

قال وهو يجلس مستريحا على مقعده :

— الأغبياء هم الذين يقتلون ..

قلت :

— يشرفنى أن أكون غيبة إلى حد قتلك ..

وقال كأنه يستهين بتهديدى :

— إنى مستعد للطلاق .. ربما كنت أكثر منك حاجة إلى
الطلاق .. ولكن المسألة ليست سهلة .. فإن طلاقك سيكلفنى غالبا
لأنى أتعامل فى السوق بأسى ولكن الواقع أن أقوى ضمان لاسمى هو
أنى زوجك .. زوج فتاة من عائلة بتروولية معروفة .. إنه رصيد كرصيد
البئوك يسهل لى كل عمليائى .. فإذا طلقتك فإنى سأفقد هذا الرصيد
وهذا الضمان .. ويجب أن أحصل على مقابل .. كل شىء بشئ ..
وإن طلاقك مليون دولار ولا أقل .. إن حسابك المفتوح يتسع لهذا

المليون ..

وقام فى هدوء وخرج من البيت قائلا :

— فكرى .. وأبلغنى قرارك بالتليفون ..

وأنا أصرخ وراءه :

— سافل .. لص .. قنر ..

وسقطت على الأرض أبكى كل دموى ، وأحس أنها دموى طعمها
مر كأنى أذرف قدارتى ..

ولم يعد غسان ليلتها إلى البيت ولا فى اليوم التالى وعندما سألت
عرفت أنه سافر .. ولا أدرى إلى أين .. ولكنى قدرت أنه كعادته
سيغيب إلى أن يتصور أنى لم أعد أطيق غيابه فيعود إلى ويستغل ضعفى
أمام شفتيه ويفرض على ما يريد ..

ولكنه واهم .. لن أعود وأضعف أمامه أبدا .. انتهت قصتى معه ..
كانت قصة تقوم على محاولتى الهروب من نفسى كامرأة من عائلة
كويتية غنية بالبتروى .. أن أتححر وأن أخلق من نفسى شخصية امرأة
خارج البرميل .. امرأة عادية يريد بها الرجل لذاتها لا طمعا فى أموالها أو
فى الانتساب إلى عائلتها .. وقد كان غسان غيبا عندما صارحتى بأنه
كان يعرف كل شىء .. لقد هدم القصة من أساسها .. هدم حتى
ذكريات الأيام الحلوة .. لقد كان يخدعنى فى كل أيامى كما كنت
أخدعه .. إنه غيبى .. حمار .. لو كان قد انتظر أياما فربما كنت أنا
التي صارحته لا هو ، وكنت سأبدو أمامه كأنى أنا التي خدعته وكنت
أعطيته أكثر .. ولكنه راح ضحية غروره .. أنا التي حولته إلى إنسان
مغرور .. أعطيته وساعدته إلى أن اشتري الغرور وخيل إليه أنى

أصبحت عبدة له ولن أستطيع أبدا الاستغناء عنه ..

لا يا غسان .. استغيت عنك ..

وعدت بسرعة إلى شخصيتى الكاملة .. شخصية العائلة ..
شخصية القبيلة .. ودعوت السفير وطلبت منه أن يبلغ أبى أنى عائدة
إلى الكويت ..

وبعد يومين كنت هناك ..

فى بلدى ..

فى بيتى ..

وقد استقبلتنى العائلة فى تكتم شديد كأنها تدارى عورة ورغم ذلك
فقد أحسست بمجرد أن دخلت البيت براحة تسرى فى كل
أعصابى .. راحة عجيبة .. كأنى قضيت الأربع سنوات الماضية وافقة
على قدمى .. وبين فرحة أمى وأولادى وكل العائلة بما فيها الخدم
نمت .. نمت نوما لم أنمه خلال كل سنوات قصتى .. كلنى نائم نوم
الراحة والهدوء والأمان .. ثلاثة أيام بلياليها ومتعة النوم تغمر فرحتى
بعودتى فأنام ..

ولم ألتق بأبى إلا بعد أربعة أيام .. لم يرفض أن يرانى ، ولكنى كنت
أحسب حساب لقاءه وكان هو أيضا يحسب هذا الحساب فلا يدعونى
إليه ولا ينهار أمام وحشة لقاء ابنته .. وعندما التقينا لم يسألنى شيئا
وكانه يعرف كل شىء ويعرف أن ابنته مجنونة شاذة فى تصرفاتها كما
كنت معروفة منذ صغرى .. لم يتكلم أبى معى كثيرا وكانت هذه هى
طبيعته ، لا يتكلم إلا ليصدر قرارا ولم يكن لديه قرار ليصدره بالنسبة
لى حتى يتكلم ..

ومع الأيام بدأت أسترد كياني في مجتمع الكويت ولكن بصورة جديدة .. صورة تميل إلى العزلة وتميل إلى الصمت .. وكنت أروى قصتي أمام صديقتي كل يوم في شكل جديد .. مجرد كلام .. ولكن كنت أحس بأنني متهمه بأنني ضحية غسان وأنه خدعني ليستنزف أموالي .. هذا كلام فاضى .. إن مجموع ما أعطيته لغسان خلال أربع سنوات لا يزيد عن ثلثمائة أو ربعمائة ألف دولار .. وصحيح أنه لم يرد لي المبلغ ولن يرده ولكنه كان يعمل وكان يكسب وكان ينفق على من كسبه .. أنا لست عبيطة .. أنا أذكر امرأة في الكويت .. ولو كانت امرأة أخرى لاستطاع رجل مثل غسان أن يأخذ منها أضعاف ما أخذه مني .. ثم إن هذا المبلغ لا يزيد عن ثمن ما تشتريه نساؤنا بنات العائلة الكبيرة من ثياب ومجوهرات في عام أو عامين ، وأنا لم أشتر مصاعا طول فترة حياتي مع غسان وكان هو الذي يدفع لي ثمن ثيابي .. أنا الأذكى أذكر حتى من الرجال الذين ينفق كل منهم في أوروبا كل عام أضعاف أضعاف ما أنفقه على غسان ، وهناك حكاية معروفة عن رجل من الخليج دفع لامرأة لبنانية ابنة شخصية مهمة مليون دولار ونصف المليون ليتزوجها ليلة واحدة ويطلقها في الصباح التالي ، وكان هذا هو شرطها .. ليلة واحدة بمليون ونصف المليون .. هذا العيب .

ومضت شهور وغسان لا يسأل عني ولا أعرف عنه شيئا .. وقد تركت موضوع الطلاق لأبي وأخي .. طلاق بلا مناقشة فلم يعد بيني وبين غسان شيء يستحق المناقشة ..

وقد سافر أخى جابر والتقى بغسان في لبنان وعاد يحمل ورقة الطلاق .. لا أدري كيف دار النقاش بينهما ، ولكنني متأكدة أننا لم

ندفع له ولا فلسا .. ولا أخى ولا أباي من هذا النوع الذي يستجيب للتهديد .. ونحن الأقوى .. نستطيع أن نهدهه بقطع كل معاملات شركاته في الكويت ، وهو ما يسىء إلى سمعته كرجل أعمال .. ونستطيع أن نغريه بأن نفتح له أبوابا أوسع للاستيراد والمعاملات .. ومجرد أن يعرف غسان أن الموضوع قد انتقل إلى أبي وأخي سيجعله يستسلم لهما .. إن أحدهما لن يضعف أمام شفتيه كما كنت أضعف ..

وانتهى كل شيء ..

أصبحت مرة أخرى امرأة مطلقة ..

ولا شك أنني تغيرت .. لم أعد أحلم بأن أكون هذه المرأة التي تحكم الأرض بينما الرجل يعيش في البحر بحثا عن الرزق كما كانت جدتي وجدة جدتي .. يجب أن أعترف بالواقع كاملا .. الرزق لم يعد في البحر ولكنه أصبح في براميل البترول .. والمجتمعات تتطور حسب الحاجة ، ورجل الكويت هجر البحر لأنه أصبح كسولا ولا لأنه أصبح مغرورا يترفع عن العمل الشاق ويكتفى بالرزق السهل الذي ينبع من باطن الأرض .. لا .. أبدا .. رجالنا لم يتغيروا عما كانوا عليه منذ بدأت القبيلة ولكن الذي تغير هو سبيل الرزق وهو الحاجة .. يجب أن أعترف بهذا .. وقد أدى بي هذا الاعتراف إلى محاولة إقناع نفسي بأنني لم أعد في حاجة إلى رجل .. لا أريد أن يكون في حياتي رجل ثالث بعد سالم وغسان .. أصبحت أعيش وحدي واخترت أن أملا فراغى بالفكرة القديمة التي حاولتها يوما ، وهي أن أقيم في مجتمع الكويت ندوة خاصة أدبية وسياسية ، حتى تقلدني النساء المعرفات

وتقيم كل منهن ندوة أخرى .. وتعدد الندوات حتى ترتفع بالكويت فوق مستوى براميل البترول .. تصبح الكويت منتدى عربيا عالميا للأدب والسياسة .. وحددت فعلا ليلة في الأسبوع أدعو إليها الشخصيات الأدبية والسياسية من أهل الكويت ومن خارج الكويت .. واخترت ليلة الثلاثاء حتى أترك الرجال ليلة الجمعة لزوجاتهم حسب السنة ..

وأثرت في هذه الندوات إلى أن كتبت هذه القصة .. قصتي .. ولكن ..

من يدري ؟

ربما اتهمت بأني استأجرت كاتباً من ضيوف الندوة ليكتبها لي فهكذا يتهم دائما الذين يعيشون في البراميل .. وأضيق أنا وسط الاتهام وأكاد أعود لأفكر ثانية في البحث عن رجل يأخذني من هذا البرميل .

خيوط في مسرح العرائس

هذه القصة من وحى أى يوم من أيام العشرين عاما التى مضت

— ١ —

كانوا يذكروننى بما يسمونه الوفاء ، ويكاد الموظفون يتجمعون فى مظاهرة أمام باب مكتبى وهم يهتفون .. أين الوفاء يا عبد السميع .. لا تنس فضل من أحسن إليك يا عبد السميع .. من طرده يطردك ولو بعد حين يا عبد السميع ..

أعط لأصدقائك كأنك تموت غدا يا عبد السميع ..

هؤلاء الأغبياء .. إن عقولهم كانت تضيق عن فهم مسئوليات رئيس مجلس الإدارة .. إنهم لا يعلمون أن كل المقاييس تختلف عندما تصل إلى مستوى رئيس مجلس الإدارة حتى مقاييس الوفاء بل ومقاييس الصدق والأمانة وأيضا الحب .. إن الحب الذى ينبض به قلب رئيس مجلس الإدارة يختلف عن الحب الذى ينبض به قلب كاتب الحسابات .. بل القبله .. مجرد القبله .. إن أى امرأة تستطيع أن تفرق بين طعم قبله رئيس مجلس الإدارة وطعم قبله موظف فى الأرشيف مثلا .. بل إن المرأة المجربة تستطيع أن تحدد منصب الرجل ومركزه بمجرد أن تتبادل معه قبله حتى لو لم تكن تعرف عنه شيئا وحتى مع تقارب المناصب والمراكز .. قبله الوزير وقبله رئيس مجلس

الإدارة .. إن الفرق بينهما كثير .. قبله الوزير — كما قالت لى إحداهن — فيها إحساس بالحفظ الرسمي وتبدأ كأنها فتح باب المناقشة فى موضوع لم يستقر عليه رأى بعد ، أما قبله رئيس مجلس الإدارة فهى أكثر تحررا من الرسمية وأقرب إلى اجراء تنفيذى لتحقيق عقد فى صالح الشركة لتشغيل الآلات ..

وأنا أفهم كل ذلك لأنى رجل إدارى موهوب .. والإدارة ليست أرقاما وحسابات ولكنها علم وفن .. والعلم الإدارى يأتى فى المرتبة الثانية من الفن الإدارى .. فالعالم الإدارى الذى ليس فنانا إداريا ينتهى حتما إلى الفشل .. ولكن الفنان الإدارى يضمن النجاح حتى بلا علم إدارى ..

والفن الإدارى يعتمد أساسا على التحليل النفسى للمجاميع والأشخاص ، ثم على قياس وتحديد مسئولية المنصب أو المركز الذى يحتله الرجل الإدارى .. أى أن فن الإدارة هو فن التعامل مع الناس وهو ما يفرض عليك أن تفهم الناس وتفهم مدى القدرة التى تتعامل بها معهم .. ففوة مدير شئون العاملين فى إحدى الشركات تختلف عن قوة العضو المنتدب فى نفس الشركة وتختلف عن قوة رئيس مجلس الإدارة .. ولذلك فإن الثلاثة حتى لو تساووا فى مستواهم الفنى كأداريين فإنهم يختلفون عادة فى تحديد القرارات .. ففوة رئيس مجلس الإدارة تعتمد على اتصالاته السياسية بالرئاسة ، ولذلك قد يتخذ قرارات هادفها سياسى حتى لو كانت تضر بالإنتاج وهو ما لا يمكن أن يوافق عليه العضو المنتدب لأن قوته ليس لها جانب سياسى ، والعضو المنتدب يستمد قوته من مسئوليته الكاملة عن كل نشاط

الشركة داخليا وخارجيا ، وقد يرفض قرارات تخص الشئون الداخلية لأنها تؤثر فى الشئون الخارجية وهو ما لا يمكن أن يوافق عليه مدير شئون العاملين لأن قوته مستمدة من إشرافه على الشئون الداخلية وحدها .. وهكذا ..

والمهم فى كل هذا هو الفن .. الفن الإدارى .. إنك لن تتقدم وترقى فى مجال الإدارة إلا إذا كنت فنانا كمحمد عبد الوهاب أو محمود ياسين أو أم كلثوم أو فاتن حمامة .. تعطى وتأخذ .. مع اختلاف المجتمع الذى تعطيه وتأخذ منه .. ولذلك فإن الإدارى الناجح لا يقال عنه إنه عالم ولا يوصف بأنه من أهل العلم حتى لو كان يحمل شهادة دكتوراه فى الإدارة بل يقال عنه إنه شاطر ويوصف بالشطارة ، أى بالذكاء حتى لو ارتفع الذكاء إلى حد الفهولة والتحايل .

وقد كنت منذ شهر قليلة مديرا لشئون العاملين بالشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية .. هذا اسمها .. وكنت أيامها محبوبا من جميع الموظفين والعمال .. كانوا كلهم فى يدى وبين أصابعى ، بل كنت أنا الذى أختار أعضاء نقابتهم وأعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكى .. أختارهم لينجحوا بأمرى فى الانتخابات .. وقد وصلت إلى كل هذا لأنى حددت مسئوليتى بأنها خدمة العاملين فى الشركة واكتساب جهم وصدقاتهم ورضائهم . ليس لى أى مسئولية أخرى داخل الشركة .. ومطالب العاملين لا تنتهى .. وكانوا يتقدمون إلى مثلا .. وكما حدث فعلا — بطلب تعديل المرتبات وصرف بدل طبيعة عمل (وهو نوع من البدلات أصبح موضة هذه الأيام) ، وطعنا كان (عيوب فى مسرح العرائس)

لا يمكن أن يتقدموا بهذا الطلب إلا بعد استشارتي مقدما وموافقتي ،
ورغم موافقتي فأني كنت أجمع أكثر من لجنة وأعقد أكثر من اجتماع
حتى أثبت أن الموضوع قد استنزف جهدا كبيرا في بحثه ودراسته رغم
أنها كلها لجان واجتماعات مظهرية .. وكنت دائما أترك المناقشة
تنتهي إلى رفع قيمة المرتبات والبدلات أكثر مما كان يطالب به
العمال .. إذا كانوا يطالبون بعشرة فأني أوحى لهم بأن يطالبوا بخمسة
عشر .. فإذا دهشوا من أن أكون أنا .. أنا المدير المسئول هو الذي
يطلب لهم الزيادة قلت لهم إن هذا هو الأسلوب الإداري الصحيح ،
لأنهم عندما يطالبون بخمسة عشر سيحصلون على عشرة ، أما إذا
طالبوا بعشرة فسيحصلون على خمسة .. تماما كالتاجر الشاطر الذي
يرفع الأسعار إلى أكثر مما يطمع فيه هو شخصيا حتى يترك الفرصة
للزبون ليساومه فينزل إلى السعر الذي يريده أصلا بعد أن يكون قد
أرضى الزبون وتركه يفتتح بأنه ذكي حويط وأجده من التاجر ..
وكذلك العاملون في الشركة يجب أن يتركوا الفرصة للرؤساء حتى
يقتنوا من هم أعلى منهم بأنهم حريصون على مصالح الشركة وقادرون
على قيادة العاملين إلى حد أنهم خفضوا من قيمة العلاوات التي طالبوا
بها ..

وكانت قيمة هذه العلاوات والبدلات تكلف الشركة أكثر من
نصف مليون جنيه وأنا أعلم أن ميزانية الشركة في حالة تدهور فظيع ..
ولكن هذه ليست مسئوليتي ولا مسئولية منصبي .. لست مسئولا عن
ميزانية الشركة ولا مكاسيها وخسائرها .. ولكنني مسئول فقط عن
شئون العاملين .. هذه شئونهم .. وكنت بعد ذلك أحمل القرار وأرفعه

إلى رئيسي سليمان عبد العزيز المدير العام للشركة ، وأعرضه عليه
بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذي كنت أتباحث به مع العاملين ..
إن أسلوب العرض هو أهم ما يجب أن يحرص عليه الرجل
الإداري .. فالأسلوب هو الذي يحدد النتيجة التي يصل إليها
الموضوع .. وقد قرأت في كتاب صدر أخيرا عن جهاز المخابرات
السوفيتي أن أهم وأخطر العملاء لا يكون عادة من بين الشخصيات
الرئيسية في البلد بل أهمهم هو الرجل الذي يعرض الموضوعات
والأوراق على الرئيس سواء كان سكرتيره الخاص أو مدير مكتبه المهم
أن يكون هو الرجل الذي يتولى العرض بنفسه على الرئيس .. فالرؤساء
عادة ليس لديهم الوقت الكافي لدراسة كل موضوع دراسة كاملة
ولكنهم يعتمدون على العروض الملخصة سواء كانت مكتوبة أو
شفهية .. والتلخيص في الكتابة أو الكلام يعتمد على الأسلوب الذي
يتعمده صاحب حق الاتصال المباشر بالرئيس .. وكنت أتعمد أن
أعرض على رئيسي سليمان عبد العزيز المدير العام مشروع العلاوات
بحيث أسجل رأيي بأنه مشروع سيخرب بيت الشركة وفي الوقت
نفسه أسجل أنه مشروع يرفع من مستوى العاملين مما يرفع من مستوى
إنتاج الشركة .. أي أنني كنت أرفض وأؤيد في وقت واحد ، حتى لا
يتهمني العمال بأنني تخليت عنهم ولا يتهمني المدير العام بأنني أحرض
العمال على الإضرار بمصالح الشركة .

والمدير العام يحمل مسئوليات أوسع وأكبر من مسئولية مدير شئون
العاملين ، وهو يعمل مباشرة تحت رئاسة عضو مجلس الإدارة
المنتدب ، لذلك فهو لا يستطيع أن يكتفى بدراسة المشروع من جانب

واحد وهو جانب العمال والموظفين ، بل يجب أن يقدمه إلى العضو المنتدب بعد دراسة كل جوانب الشركة ، ثم هو في الوقت نفسه لا يتجاهل ما يمكن أن يسببه العاملون من متاعب له وللشركة إذا رفض المشروع ، وكان الرفض من جانبه ، لذلك فهو يستخدمنى حتى أقنع العمال بتخفيض مطالبهم .. فإذا كانوا يطالبون بخمسة عشر يكتفون باثنى عشر فقط .. وطبعاً أتعمد أن أتناظر بإعادة تكوين لجان وعقد اجتماعات وبذل الجهود المضنية حتى يوافق العمال أخيراً على مطالب المدير العام ويحفظ لى جميلاً أستطيع أن أستغله كلما أردت ..

ويحمل المدير العام المشروع إلى عضو مجلس الإدارة المنتدب .. وقد كان المفروض أن يحمله إليه منذ البداية ولكن المدير العام الشاطر يتعمد أن يصل بنفسه إلى نتائج ناجحة وقبل أن يتدخل العضو المنتدب حتى لا يفقد حقه في التقدير .. ويبحث العضو المنتدب المشروع في نطاق مسؤوليته التي تتسع اتساعاً أكبر من مسؤولية المدير العام .. إنه المسئول التنفيذي عن كيان الشركة وهو المسئول المباشر أمام رئيس مجلس الإدارة ، وكثيرون من رؤساء مجالس الإدارة يلقون الهم كله على العضو المنتدب حتى يعفوا أنفسهم من مسؤولية الفشل ويكتفون بحمل مسؤولية النجاح .. وأى عضو منتدب حريص من جانبه على أن لا يضيع ضحية لرئيس مجلس الإدارة ، وهو على قدر ما يتعمد ألا يقع في تصرفات قد يأخذها عليه رئيس المجلس بتعمد في الوقت نفسه أن يكسب العمال والموظفين إلى جانبه حتى يحموه من الرئيس أو على الأقل حتى لا يستخدمهم الرئيس ضده .. لذلك فهو يقع أمام المشروع في حيرة أكبر من حيرة

المدير العام ، وتدخل في حسابيه مقاييس أبعد من مقاييس المدير العام .. وإذا وصل إلى الموافقة على المشروع فهو عادة يعلن موافقته حتى يكسب الاعتراف بفضل على الموظفين والعمال .. وهو لا يعلن موافقته رسمياً لأن هذا من حق رئيس مجلس الإدارة وحده ، ولكنه يعلنها باتصالاته الخاصة حتى يصل إلى الموظفين والعمال .. أما إذا كان اتجاه العضو المنتدب هو الرفض فهو لا يعلن رفضه حتى لأقرب المقربين إليه خوفاً من سخط العاملين ، ولكنه يترك قرار الرفض بكامله لرئيس مجلس الإدارة ، ويكتفى هو بأن يحاول تخفيض قيمة العلاوات ، وهذا ما حدث فعلاً ، واستغلنى العضو المنتدب أيضاً في إقناع العاملين بتخفيض العلاوة من اثني عشر إلى عشرة .. وكسب العضو المنتدب بذلك موقفاً أمام رئيس المجلس ، وكسبت أنا موقفاً أمام العضو المنتدب بعد ما كسبته أمام المدير العام ..

ويأتى بعد ذلك دور رئيس مجلس الإدارة ، وهو دور يعتمد كالعادة على الأسلوب الذى يعرض به المشروع عليه .. إن هناك أسلوباً يمكن به أن تحصل على موافقة رئيس المجلس في دقيقتين .. يكفى أن يعرض العضو المنتدب المشروع على أنه مشروع عادى تنص عليه اللوائح وسبق أن طبق في سنوات سابقة وفى عهد رئيس مجلس الإدارة السابق .. وكل رئيس مجلس إدارة يجب أن يكون أكرم وأسخى على العمال من رئيس المجلس السابق ، فيوافق مباشرة فى انتظار أن يقيم له العمال حفل تكريم .. ولكن .. هناك أسلوب آخر ينتهى برئيس المجلس إلى الحيرة وهو أن يعرض عليه المشروع على الوجهين .. حق العمال وعجز الشركة .. وفى هذه الحالة يتحمل

رئيس المجلس المسئولية وحده .. وهو قد يقبل حتى لو تأكد من خراب الشركة لأنه يتحمل المسئولية السياسية وهي مسئولية تقديم الرشوة للعمال في صورة علاوات وبدلات حتى يزدادوا إيماناً بالاشتراكية وبالثورة التي تحقق لهم كل هذا الرخاء .. أما إذا تردد رئيس مجلس الإدارة وخاف أن يخرب ويفلس الشركة بهذا المشروع فإنه لا يستطيع وحده أن يقرر الرفض ، لأن الرفض سيؤثر على الأوضاع السياسية ، فهو يلجأ ليستأذن الوزير الذي يتبعه إذا كان الوزير هو الذي عينه وهو صاحب الفضل عليه ، أو يستأذن رئيس الوزراء ، أو مركز القوة الذي يتبعه .. ويجب بعد ذلك أن ينسب الرفض أو القبول لنفسه .. ليس من حقه إطلاقاً أن ينسب — خصوصاً الرفض — إلى الدولة أو إلى إحدى الشخصيات الرئيسية وإلا فقد كثره كرئيس مجلس الإدارة في لحظة ووجد نفسه في الشارع .. إن الاتصالات بالجهات العليا هي دائماً اتصالات سرية يجب أن تبقى بعيداً عن الشارع .. بل إن مهمة رئيس مجلس الإدارة وأسس اختياره هي تحمل مسئولية إصدار قرارات باسمه دون أن يكون له ذنب فيها .. وهي دائماً قرارات سياسية .. تعيين موظف قرار سياسي .. ونقل موظف قرار سياسي .. وعقد صفقة خارجية قرار سياسي .. وعقد صفقة داخلية قرار سياسي .. وتوزيع العلاوات والبدلات قرار سياسي .. والنجاح نجاح سياسي .. والفشل فشل سياسي ..

هذه هي بعض جوانب الفن الإداري الذي أعتبر نفسي أحد عباقرته وأحد الفنانين الإداريين الموهوبين .. والواقع أنني لا أستطيع أن أنكر فضل الأستاذ سليمان عبد العزيز .. إنه أستاذي ورئيسي .. وظل أستاذي ورئيسي حتى اليوم الذي وجدني فيه رئيساً لمجلس الإدارة ..

أي رئيساً له .. والواقع أن سليمان لم يكن أستاذي ورئيسي فحسب بل إنه صاحب فضل مباشر على فهو الذي وضعني موظفاً في هذه الشركة ، وكان أيامها لا يزال يشغل مركز وكيل الإدارة ، وكنت تأثها لم أستقر بعد على وضع معين .. كانت أحلامي أن أكون رجل أعمال .. أن أكون حراً أجرى وراء الصفقات وأخرج بالعمولات والسمسرة ، وظل هذا الحلم يطاردني حتى كان يضطرنني إلى الاستقالة من كل وظيفة أحصل عليها لأنفرد للأعمال الحرة ، وأفضل فأعود إلى الوظيفة .. أي وظيفة .. ثم استقبل لأجرب الأعمال الحرة مرة أخرى وأفضل وأعود أبحث عن الوظيفة .. وكنت في حالة ضياع عندما التقيت بالأستاذ سليمان في مقهى « ريش » ، وأنا لست من زبائن المقهى ولكنني أتردد عليه أحياناً عندما أتذكر صديقاً من زبائنه ، وكنت أرى سليمان هناك من بعيد .. إنه صديق لأصدقائي ولكنني لم أحاول أن أصادقه إلى أن تذكرت وأنا في حالة الضياع التي كنت فيها أنه موظف كبير في « الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية » ، فقررت أن أتقرب إليه .. لماذا لا أحاول العمل في هذه الشركة .. وأسخف وأغبي ما يمكن أن يتعرض له إنسان هو أن يقدم نفسه على أنه طالب وظيفة .. هذه حكمة يجب أن يؤمن بها كل من يبحث عن مستقبله .. لم أحاول أن أطلب من سليمان وظيفة ولكنني تقربت إليه عن طريق الأصدقاء المشتركين من زبائن المقهى .. وكنت أعرف أنه من هواة لعب الطاولة والشطرنج فبدأت أعطيه أوقاتاً ممتعة من الطاولة والشطرنج .. إنني أستطيع بسهولة أن أكسبه في كل مرة ألاعبه ولكنني حريص على إرضاء غروره بنفسه فكنت أتعهد أن أدعه يكسبني دون أن

— ١٨٥ —

يعتبر نفسه رجل أعمال حرة ، أى أن يصبح من حقه فرض العمولات ووضعها فى جيبه سواء فى تعامله مع الخارج أو فى تعامله مع تجار الداخل ..

ومنذ اليوم الأول الذى بدأت فيه سير العمل فى الشركة وأنا أطبق المبادئ الثلاثة التى تعتبر أسس النجاح فى أى عمل إدارى ، وهى المبادئ التى لا يؤمن بها ولا يعرفها — للأسف — معظم القيادات الإدارية عندنا .. هذه المبادئ هى :

أن تكسب رؤسائك ..

أن تكسب زملاءك ..

أن تكسب مراكز القوى فى الدولة ..

والطريق لأن تكسب أى إنسان ليس هو طريق الاكتفاء بالمعرفة الشخصية وحدها ، وأن تتزاور معه عائليا ، وتجلس معه فى المقهى لتلعب مها الطاولة والشطرنج .. ليس هذا هو طريق الكسب الصحيح .. ولكن الطريق الوحيد هو طريق تبادل الخدمات .. أن تعطى وتأخذ .

ومنذ اليوم الأول وأنا أتحرك داخل المؤسسة باحثا عن الخدمات التى أستطيع أن أقدمها قبل أن أبحث عن الخدمات التى أطلبها لنفسى .. بل إنى بدأت أقدم كثيرا من الخدمات دون أن أترك أحدا يتصور أنى أريد منه أى خدمة ..

وكان أهم من أحرص على صداقته من بين الرؤساء هو طبعه الأستاذ سليمان صاحب الفضل على .. ومنذ الأيام الأولى تأكدت أن سليمان يمكن أن يكون عالما إداريا .. إنه يتصرف بنفس الطريقة التى يلعب بها

أضحى باحترامه لى كلاعب .. واستطعت فى أيام أن أكسب صداقته فعلا حتى أصبح يأبنى إلى المقهى ليبحث عني ، وأصبحت أتغيب متعمدا حتى يشتاق إلى أكثر .. وسليمان أكبر منى بعشر سنوات وتخرج فى كلية التجارة قبلى بخمس سنوات وقد تركته يحس بهذا الفارق دائما حتى أوجد نوعا من الكلفة بينى وبينه .. إن هذا أيضا نوع من الفن الإدارى أو فن العلاقات العامة وهو ألا ترفع الكلفة كلها بينك وبين من تتعامل معه حتى لا تعرض نفسك لفقد احترامه .. ولم ينقض أسبوعان حتى بدأ سليمان يعرض على العمل معه فى شركة المتطلبات الشعبية بعد أن سمع من بقية الزبائن أنى عاطل أو على الأقل لست موظفا ، وقد تظاهرت بالاعتذار فى أول الأمر مدعيا أنى أفضل التفرغ للأعمال الحرة ، وقال لى سليمان وهو يتحدث كأستاذ :

— إذا كنت رجلا إداريا فعلا فإن المجال الوحيد أمامك لممارسة الشخصية الإدارية هو أن تهاجر لتعمل حرا فى الخارج أو أن تعمل فى إحدى المؤسسات العامة فى مصر ، إلا إذا اكتفيت من الأعمال الحرة بافتتاح كشك سجائر أو دكان طرشى ..

وضحكت وقبلت أن أعمل موظفا معه فى « شركة المتطلبات الشعبية » كأنى أتنازل عن كل أحلامي من أجله ، والواقع أنى لم أقبل إلا بعد أن كنت قد درست كل كيان الشركة وتبعت كل أخبارها .. إنى أستطيع بسهولة أن أجمع بين العمل الرسمى والعمل الحر داخل هذه الشركة .. فهى شركة لها حق التصدير والاستيراد ، ولها اتصال مباشر مع الجمهور فى توزيع إنتاجها .. لهذا تقوم بالأعمال الحرة بصفة رسمية .. وأى شركة من هذا النوع يستطيع أى موظف فيها أن

الطاولة يجيد أصول اللعبة ولا يستعمل المؤثرات الخارجية ضد من يلعب معه .. وهو يتعامل فعلا داخل المؤسسة على إنه عالم يحتاج إليه رؤساؤه كي يصيغ قراراتهم في صياغة علمية دون أن يحاول توجيه هذه القرارات بحيث تخدم أى رأى خاص به .. وحتى صغار العاملين فى المؤسسة وأعضاء النقابة كانوا ينظرون إليه نفس النظرة .. عالم .. فإذا احتاجوا الشئ لا يتطلب العلم إنما يتطلب الفن الإدارى أى الفهولة الإدارية .. لجأوا إلى غيره ..

وكان سليمان عنصرا مطمئنا محترما بين رؤسائه فى حدود أن كل ما يقدمه من خدمات هى الخدمات العلمية . وقد قررت أنا أن أستغل عنصر الضعف فيه وأستولى على الجانب الفنى للإدارة .. والفن أقوى من العلم ، أو على الأصح أن الفن يستطيع دائما أن يضل ويخدع العلم .. وقد نجحت فعلا فى أن أحرك سليمان كما أريد لخدمة أهدافى .. بل استطعت عن طريقه أن أصل إلى كسب الرؤساء الأكبر .. رئيس المجلس والعضو المنتدب وأعضاء المجلس .. كسبتهم بوضع فنى فى خدمتهم .. الفن الذى يستطيع أن يضع المكاسب الشخصية فى صورة مكاسب عامة ، وأن يغطي الخسائر ويضعها فى صورة أرباح ، وأن يجعل من القواتير واللوائح أدوات بين أصابع المدير لا أدوات تهدده ..

وكان ذلك دون أن أحسر صداقة وثقة سليمان ، وكان أهم ما أعتمد عليه هو ألا أعامله كصديق بل أعامله دائما كرتيس .. إذا دخلت إليه فى مكتبه بقيت واقفا أمامه إلى أن يدعوني إلى الجلوس .. ولا أناديه إلا بلقب أستاذ .. ولا أناقشه إلا فى أسلوب يقنعه بأن الأمر له .. بل

إنى تعمدت ألا أتردد على مقهى ريش حتى لا أجلس معه بلا كلفة وأضطر أن ألعب معه الطاولة أو الشطرنج .. هذا أسلوب رئيسى للاحتفاظ برضاء وثقة رئيسك أى أن تجعله يشعر دائما بأنه رئيس .. ترضى غروره وتعفى نفسك من المسئولية .. وقد لأمنى مرة سليمان لأننى لا أتردد على المقهى وقلت له مبتسما فى تواضع ! .. — يا فندم إنك تفتح نفسى للتفكير فى أعمال الشركة ، وأخشى إن التقينا فى المقهى أن تشعر كأننا لا زلنا فى المكب ..

وضحك سليمان ..

وهو يزداد ثقة بى واعتمادا على ويقفز بى فى كل مناسبة إلى درجة أعلى إلى أن أصبحت فى مركز مدير شئون العاملين ، ثم بعد أن أصبح سليمان مديرا عاما قرر أن أكون نائبا للمدير العام مع احتفاظى بسلطائى كمدير لشئون العاملين .. وطبعاً لم يكن سليمان وحده يستطيع أن يقفز بى لولا أنى استطعت فى نفس الوقت أن أكسب رضاء رؤسائه .. وأيضاً فى نفس الوقت كنت أكسب ثقة من هم أقل منى من الموظفين والعمال بتقديم مزيد من الخدمات لهم حتى تبدو ترقبتي إلى مركز أعلى كأنها استجابة لمطالبهم ..

ونقطة ضعف أخرى كانت فى شخصية سليمان كرجل إدارى وهى النقطة الخاصة بالمبدأ الثالث من المبادئ الثلاثة .. المبدأ الذى يطالبك بأن تكسب مراكز القوى فى الدولة ..

إنه أهم المبادئ الثلاثة ..

هل سمعتم عن السيد « أوبروى » رجل الأعمال الهندى صاحب فنادق أوبروى العالمية .. لقد بدأ حياته موظفا صغيرا فى أحد فنادق

الهند .. كاتب حسابات .. ووصل إلى أن أصبح مؤسسا لشركة فنادق عالمية ، وحتى يضمن تحقيق مصالح الشركة بدأ العمل كشخصية سياسية داخل بلده فكون حزبا سياسيا يمثل في مجلس النواب بعدد من النواب ، والسيد أوبروى نفسه كان نائبا .. وفجأة حل أوبروى حزبه السياسى واستقال من مجلس النواب .. وكنت متبعا لتاريخ حياته ومعجبا به كممثل لأحلامي كرجل إدارى .. أنا أيضا أتمنى أن أؤسس شركة عالمية .. وقد زار أوبروى مصر ليحضر افتتاح الفندق الذى أقامه عندنا ، وكنت أنا قد أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة وطلبت مقابلته وقابلنى بتواضع شديد وترحاب فائق .. وسألته خلال حديثنا : — لماذا استقلت من مجلس النواب وحللت حزبك السياسى ..

وقال أوبروى فى بساطة :

— أنا لست رجلا سياسيا أنا إدارى يبحث دائما عما يحقق مصالح أعماله ، وقد كنت مضطرا أن أكون حزبا سياسيا وأن أشرح نفسى لأن الحياة العامة فى الهند كانت تتطلب منى هذا حتى أضمن مصالح شركائى .. ولكن الحياة السياسية تغيرت فى الهند .. وقد استطعت أن أثبت أن الحياة السياسية على وشك أن تغير وأن القوة الكبرى ستفرض نفسها على الأحزاب وعلى النواب ، كما حدث عندكم فى أوائل الثورة ، وحتى أضمن استمرار مصالح شركائى كان يجب أن أحل الحزب وانضمت أنا وبقيّة الأعضاء إلى هذه القوة الكبرى .. أى إلى حزب المؤتمر .. واستسلمنا لقيادة السيدة إنديرا غاندى .. إن رجل الأعمال الإدارى يجب أن يرتفع بأعماله فوق المعارك السياسية .. أن يستغل السياسة وهو حريص على ألا يضع ضحية السياسة ..

ولم أكن فى حاجة إلى درس من السيد أوبروى فمئذ البداية وأنا أعرف أن الفنان الإدارى مضطر أن يلعب بفنه فى مجال السياسة .. وقد بدأت من الحضيض السياسى .. أى من اللجان الشعبية التى كانت تؤلف فى الأحياء .. لم أكن أرفض أبدا أى دعوة للاشتراك فى أى تجمع مادام تجمعا رسميا .. ولم أكن أتعمد أبدا أن أبدى رأيا سياسيا .. والواقع أن كل هذه اللجان والهيئات ليست فى حاجة إلى آراء سياسية .. والرأى المطلوب منك معروف مقدما .. ولكن كان نشاطى السياسى كله يعتمد على تقديم الخدمات الشخصية والتى قد لا يزيد بعضها عن تقديم دواء مستورد أو زجاجة ويسكى .. وقد تطور نشاطى فى المجال السياسى إلى أن وصل إلى أعلى المستويات .. وهو نشاط بعضه تنطليه مصالح العمل كالعلاقة الشخصية مع الوزراء لتسهيل الإجراءات .. وشركتنا .. شركة المتطلبات الشعبية كانت أعمالها تتطلب الاتصال بوزارة التجارة ووزارة الاقتصاد ووزارة السياحة ووزارة الزراعة ووزارة الخارجية .. و .. و .. ولو أكتفى المسئولون عن الشركة بالاعتماد على الإجراءات الرسمية لما حققوا شيئا ، خصوصا وأن معظم أعمالها تحتاج إلى استثناء من الإجراءات الرسمية وتحايل على الإجراءات الرسمية ولم يكن هناك إلا طريق الاتصال الشخصى بالوزير أو بالشخصية القوية فى الوزارة ، لأن الوزير ليس هو دائما أقوى شخصية فى الوزارة .. ثم كانت هناك أغراض أخرى تحرك نشاطى السياسى ، وهى الاعتماد على قوة أعيش فى حمايتها ، وأحقق من خلالها أهدافى الخاصة ، وقد وصلت فى ذلك إلى أنى كنت يوما فى لجنة من لجان التنظيم السرى الذى كان يسمى

التنظيم الطليعى .. وكانت عضوية هذا التنظيم تفرض تقديم التقارير إلى الجهات العليا .. أعلى الجهات .. كل عضو يقدم تقريراً عن مجال نشاطه .. وكنت أقدم تقارير عن أعمال الشركة وعن علاقة هذه الأعمال بالأجهزة الحكومية ، ولكنى كنت حريصاً على ألا أجرح فى تقاريرى أحداً .. بل كنت أقدمها كتقارير علمية وأترك من يصل إليه هذا التقرير أن يفسره كما يشاء .. وكان حرصى على ألا أذكر أحداً بالاسم فى أى تقرير هو أن هذا الأحد الذى قد أذكره قد يعلم بما ذكرته وقد يكون من القوة بحيث يطيح بى ، وأنا إدارى حريص فنان لا أعرض نفسى لمثل هذه الاحتمالات خصوصاً وأنى لم أعلم حقيقة هذا التنظيم الذى أنا عضو فيه ولا أعلم أين تذهب هذه التقارير التى نكتبها .. وكان أهم ما وصلت إليه هو صداقة وثيقة بائنين من الشخصيات المتصلة اتصالاً مباشراً بالرئاسة .. إنى لا يمكن أن أصل إلى الرئيس نفسه .. وأى رئيس لا يمكن أن يجمع فى جدول أصدقائه كل من يحتاج إليهم ولكنه يكتفى بجدول صغير ثم يعتمد على أفراد هذا الجدول فى اختيار من تحتاج إليهم المناصب والمراكز الهامة .. إن القرار الجمهورى الذى يصدر بتعيين رئيس مجلس إدارة مثلاً ، أو موظف كبير كوكيل وزارة أو سفير ، هذا قرار لا يعنى أن الرئيس شخصياً يعرف هذا الشخص وأنه اختاره بنفسه ، ولكنه يعنى أن الرئيس قد وصلته معلومات كافية عن هذا الشخص .. من أين وصلته المعلومات ومن رشح هذا الشخص .. طبعاً عن طريق القلة المختارة ممن يحيطون بالرئيس .. هذا ما يحدث فى جميع دول ونظم العالم .. وقد أصبح لى اثنان من هذه القلة المختارة .. وكل هذا ينقص الأستاذ

سليمان .. كان ينقصه الاتصال بمراكز القوى وكسب صداقة الشخصيات الرئيسية الهامة ..

ولكن

كان أكثر ما يحيرنى فى الأستاذ سليمان هو علاقته بخديجة .. السيدة خديجة مرتضى .. واسم الدلع جيجى .

وأقول الحق إنى لم أكن أغار من شىء فى سليمان إلا من علاقته بجيجى .. العلاقة التى لا أعرف أصلها ومداها .. سليمان أصبح كله فى جيجى ولكن جيجى ليست فى جيجى معه .. وهى تثير فى كل إحساسى كرجل إدارة .. إنها صفقة رابحة من كل نواحيها .. مجموعها يساوى الملايين .. الأنف + العينان + الشفتان + القوام + النظرة + الابتسامة + ملامح الذكاء = ألف مليون فرصة نجاح ..

وكانت جيجى تزور سليمان فى مكتبه مرة أو مرتين فى الشهر ، وفى كل مرة كان سليمان ينقلب إلى شخصية أخرى .. فالباب يغلق عليه وعليها ساعتين أو أكثر .. ماذا يحدث خلف الباب .. الله أعلم .. إن المكاتب الرسمية أيضاً تشهد لقاءات مثيرة بين الرجل والمرأة كعلاقات الأطباء ، مادام صاحب المكتب — كالطبيب — مطمئناً إلى أن الباب لن يفتح .. وكان سليمان فى هذه الزيارات يتناهى نوع من النشاط ليس من طبيعته فهو يتركها فى انتظاره ويجرى ليجتمع برئيس مجلس الإدارة ، ثم يجرى ليجتمع بالعضو المنتدب ، مع أنه ليس من عادته أبداً أن يتحمل مسئولية الإجراءات التنفيذية .. إنه عالم إدارى وليس منفذاً إدارياً .. وكان يعهد إلى دائماً بإجراءات التنفيذ بما فيها الاتصال برئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب إلا إذا زارته جيجى

فإنه يتولى بنفسه كل شيء. ويتركني أنا كالمساعي أنقل الأوراق وأحولها من مكتب إلى مكتب محتفظا طبعاً بالسرية المطلقة للعملية ..
العملية التي كانت تجيء من أجلها جييجى هي الحصول على أذون استيراد باسم الشركة لتستورد بها بضائع تتاجر بها لحسابها .. بضائع شعبية .. غسالات كهربائية .. أقلام باركر .. سيارات .. أدوات مكياج .. إلى آخر هذا النوع من البضائع التي يحتاج إليها الشعب .. وهذه العملية التي تقوم بها جييجى هي نوع من العمليات التي كانت شائعة قبل عصر الانفتاح وضايق مجالها بعد الانفتاح .. وهى ما يمكن أن تسمى عمليات من الباطن .. أى من باطن القطاع العام والمؤسسات الرسمية .. جييجى تقوم بالصفقات من باطن شركة المتطلبات الشعبية .. وكثير من كبار الموظفين يعملون لحسابهم الخاص من باطن الشركات التي يعملون بها ، سواء كانت شركات تجارية ، أو شركات المقاولات ، أو حتى شركات الصناعة والزراعة .. وهى عمليات لها منطق مدروس ، فيدأ من أن تعمل لحساب الشركة وتحصل لنفسك على عمولة ، فأنت تعمل لحسابك الخاص وتعطى الشركة عمولة .. منطق معقول لا عيب فيه إذا ما تجاهلنا كل ما يقال عن النظم الاشتراكية .. نوم العوافى ياشتراكية ..

وقد حاولت أن أعرف كل شيء عن خديجة .. جييجى .. ولكنى لم أعرف الكثير .. إنها سيدة معروفة فى المجتمع ، وتدعى إلى كثير من الحفلات الخاصة والعامة ، وزوجها يدعى معها وليست هى التي تدعى معه .. وهو موظف كبير محترم وصل إلى درجة وكيل وزارة ولكن ليس له شأن كبير فى وزارته بل إن وصوله إلى درجة وكيل وزارة

ينسب الفضل فيه إلى زوجته جييجى .. هى تتولى بنفسها وأحد أصدقاء شقيقها .. وهو مسيحي من عائلة مسيحية كبيرة كانت فى منتهى الثراء قبل الثورة .. وهناك كلام عن علاقة هذا الصديق بجيجى .. إنه صديقها وليس صديق شقيقها .. ولكنه كلام لا يصل إلى حد الفضيحة .. من يدري ربما كان مجرد كلام .. وسليمان أيضا صديقها .. صديق العائلة .. ولم أسمع أكثر من هذا عن علاقتها بسليمان .. وأنا حائر ، فلا يمكن أن يذل سليمان كل هذا الجهد من أجل جييجى ويعطيها كل هذا الاهتمام الذى قد يمس سمعته ومستقبله وليس بينه وبينها أكثر من الصداقة ..

وكان سليمان يدعوني أحيانا إلى مكتبه خلال زيارة جييجى له حتى يعرض على الإجراءات التي تدخل فى اختصاصى .. وكنت أتعهد فى هذه اللحظات أن أكسب اهتمامها .. أن أغريها بنفسى .. فأطيل فى شرح الموضوع حتى أقنعها بشطارتى وأشعرها بأننى كاشف لكل أسرار العملية حتى تحسب حسابى ، ثم كنت أتعهد أن أبذل رجلا بئير أحلام النساء ، أضع رنة مخصصة فى صوتى .. وأرسم على شفتى ابتسامة لها معنى .. وأطلق من عيني نظرة فيها قوة رجل معتر بنفسه .. ولكن كل ذلك لم يبد أن يؤثر على جييجى .. إنها تواجهنى بنوع من التعالى كأنها لا يمكن أن تنزل بنفسها إلى مستوى أقل من مستوى مدير عام حتى لو كنت نائب مدير عام .. وأكثر من ذلك .. لقد تعمدت يوما أن أفعل كأن هناك مشكلة خاصة بعملية جييجى واتصلت بها بالتليفون .. إنها بداية يمكن أن تؤدي إلى علاقة تليفونية ثم إلى علاقة شخصية .. ولكن جييجى ردت على بجفاء وحسم قائلة :

— أسفة الموضوع كله فى يد سليمان بيه .. اعرضه عليه ليتصرف ..

وكانها صفتنى ..

وطبعا أسرع يومها لإبلاغ سليمان بأننى اتصلت بجيجى قبل أن تسبقنى وتوقع بينى وبينه ، فقد كان الفن الإدارى الذى يفرض على اكتساب ثقة الرؤساء أقوى دائما من اندفاعى وراء أغراضى الخاصة .. إلى أن فوجئت بأن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة .. لقد كانت مفاجأة لى فعلا ، وليس معنى هذا أنى لم أكن أحلم بأن أكون رئيسا لمجلس الإدارة وأن أسعى إلى أن أكون .. ولكن الأحداث أحيانا تكون أسرع من الأحلام .. ولم يكن هناك أى حدث جديد خاص بأعمال الشركة أو بتصرفات رئيس مجلس إدارتها ، ولكن الأحداث كانت تخص نصارع مراكز القوى القيادية .. وقد ضعف المركز الذى كان يستند عليه رئيس الإدارة السابق ، وازدادت قوة المركز الذى يضم الشخصيتين اللتين كنت قد كسبت صداقتهما وثقتهما .. ولا داعى لذكر الأسماء فوجدت نفسى رئيسا لمجلس الإدارة ..

ولا شك أنى أصبحت رئيسا لا تقديرا لكفاءتى كرجل إدارى ولكن تقديرا لإخلاصى لمن سموا إلى تعيينى ولأنهم يمنحوننى شهادة ثقة هى أقوى من أى شهادة علمية يمكن أن أحصل عليها .. نفس النظرية المعروفة التى تفرق بين أهل الثقة وأهل الخبرة .. ولكن لا شك أيضا أنى رغم ذلك رجل إدارى كفء وذو خبرة .. وهذا هو أصعب ما يمكن أن يواجهه أى رئيس وهو يختار من يعمل تحت رئاسته .. رئيس

الجمهورية يختار وهو يبحث عن رئيس وزراء يجمع بين الثقة والخبرة .. ورئيس الوزراء يختار فى اختيار وزراء يجمعون بين الثقة والخبرة .. وكل وزير أيضا يختار فى اختيار معاونيه ممن يجمعون بين الثقة والخبرة وكذلك رؤساء مجالس الإدارة .. والمفروض أنه عندما تتعاون الثقة مع الخبرة فإن ما يتغلب هو الثقة .. أى أن ثقة بلا خبرة خير من خبرة بلا ثقة ..

ولكن

ما هى الثقة التى يمكن أن تجمع بين رئيس ومرؤوسيه ؟

إن العنصر الأساسى لوجود هذه الثقة هو أن يكون الرئيس صاحب فضل على المرؤوس وأن يعترف المرؤوس بهذا الفضل اعترافا كاملا .. وفى الوقت نفسه يكون الرئيس ممسكا دائما بكل الخيوط التى تتحكم فى وجود المرؤوس .. ليست الخيوط التى تمسك به دائرة العمل فحسب بل أيضا الخيوط التى تمسك به فى حياته الخاصة والحياة الاجتماعية .. هناك رؤساء يعملون أن يتركوا المرؤوس يقع فى مصيبة ، كأن يزور أو يختلس أو يتآمر ، ثم يكشفه دون أن يقدمه للتحقيق أو المحاكمة حتى يظل ممسكا بعنقه طول عمره .. وهو كما كان يقال عن أحد زعماء الأحزاب التى كانت قائمة قبل الثورة ، فقد كان هو نفسه رجلا أميناً نزيها نظيفا ولكنه كان يترك أعضاء حزبه يسرقون من أموال الدولة ويزورون ويأثمون حتى يكون لكل واحد منهم ذلة يمسكه منها ويضمن بها انطواءه تحت رئاسته وإخلاصه للحزب ..

أى أن المطلوب دائما أن يكون المرؤوس تابعا للرئيس بمعنى التبعية .. خادما مطيعا مستسلما .. لا بحكم الإيمان المشترك بالمبادئ والأهداف ولكن بحكم تبادل الخدمات ..

هذا هو أول ما واجهنى بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة .. أن يكون كل من حولى ملكى .. أتباعى .. يعترفون بفضلى عليهم .. وبعد ذلك تبادل الخدمات .. وكانت أول مشكلة هى مشكلة عضو مجلس الإدارة المنتدب ..

والمشكلة هى أن عضو مجلس الإدارة يعين بقرار جمهورى كرئيس المجلس .. أى أنه لا يتبعنى .. ولكنه يتبع الجهات العليا .. والعضو المنتدب فى أى مؤسسة هو مفتاح الخزانة .. المفتاح ليس فى جيب رئيس مجلس الإدارة ولكنه فى جيب العضو المنتدب .. ومهما سجلت حسابات الخزانة فى دفاتر وروجعت فى تقارير فإن أسرار الخزانة تبقى ملكا للعضو المنتدب وحده ..

ولذلك فإن العضو المنتدب هو دائما مركز القوة الحقيقية فى كل مؤسسة لأنه مركز التحكم فى كل قرش ، وكل موظف أو عامل يعلم أن لا يمكنه الوصول إلى أى قرش إلا عن طريقه ..

وهذه القوة التى يستولى عليها العضو المنتدب بحكم منصبه تجعله يصاب بنوع من الغرور يدفعه لأن يتخيل أنه أحق من أى إنسان آخر بتولى منصب رئيس مجلس الإدارة ، ويجعله يستهزئ ويحتقر فى قرارة نفسه أى رئيس .. وكثير من رؤساء مجلس الإدارة راحوا ضحايا للعضو المنتدب ، وكثيرون أيضا من الأعضاء المنتدبين راحوا ضحايا

لرئيس مجلس الإدارة ..

وقد صدم عبد الستار برعى العضو المنتدب لشركة المتطلبات الشعبية صدمة أذهلته بتعيينى رئيسا لمجلس الإدارة ، فقد كنت مرؤوسا فى الصف الثالث من مرؤوسيه ، ورغم أننى كنت أتبادل معه بعض الخدمات الخاصة وكان يعرف عنى أى ذكى وشاطر إلا أنه لم يكن يتصور أبدا أن أكون رئيسا عليه .. وهذا فى الواقع هو من أبرز عيوب حركات التعيينات الذى تتخذها المراكز العليا .. يرفعون مرؤوسا فوق رئيسه دون أن يقدرُوا أثر ذلك على نفسية الاثنين ..

وقد تأخر عبد الستار برعى ثلاثة أيام قبل أن يأتى إلى ليهننى بالمنصب الجديد ، وذلك حتى يثبت أنه لا يهتم كثيرا بى ولا بمنصبى وأنى لا أساوى شيئا بجانبه ، إنما أنا فقط أحد المنافقين للجهات العليا وقد جعلونى رئيسا على سبيل منحى وسام نفاق لا على أن أكون ذا شأن فى الشركة ..

وقد استقبلته فى منتهى التواضع ، وتحملت نظراته التى تصب الحقد وابتناسه المتفتعلة التى تقطر سما ، ولم أفاتحه فى أى موضوع من موضوعات العمل ، وحتى عندما حاول أن يعرض على موضوعا قلت له فى تواضع :

— يا عبد الستار بيه .. أنت أدرى والأمر لك ..

وقد تعمدت ذلك لأننى منذ تلقيت خبر تعيينى رئيسا للمجلس وقد قررت أن يخرج عبد الستار من الشركة كلها .. وسعيت .. ومنطقى معى ويمكن أن أقتع به كل المسئولين .. فعلا .. لم يمض أسبوعان

حتى نقل عبد الستار إلى شركة أخرى ..

و كنت أنا الذى رشحت يومى عبد الله عضوا منتدبا جديدا للشركة .. لم يكن صديقا حميما ولكنى كنت أعرفه كإدارى له قيمته .. وقد كان يعمل فى شركة أخرى ثم راح ضحية رئيس مجلس إدارة آخر كما راح عبد الستار ضحية لى .. وكان يتقاضى مرتبه بلا منصب وبلا عمل .. وطبعاً فرح فرحة الدنيا عندما وجد نفسه فى المنصب الجبار .. منصب العضو المنتدب .. واعترف لى بفضلى عليه واستسلم لكل تعليماتى اعترافا بهذا الفضل ..

وبعدها أجريت تنقلات كثيرة بين كبار موظفى الشركة .. إنى أريد أن يشعر كل منهم بأنى صاحب فضل عليه .. وكل منهم تابعى ومن كان تابعا للرئيس السابق أو للعضو المنتدب السابق وبقي مصرا على ما يسمى الوفاء للقديم تخلصت منه بسرعة ووضعته حيث لا يجد لنفسه شأنا ولا قيمة دون أن أطرده من الشركة لأن قوانين العمل لا تبيح الطرد .

وقد كانت هذه التنقلات تثير ضجة داخل الشركة فالعضو المنتدب السابق وكبار الموظفين لا شك أن لكل منهم أعضاء وأتباعا بين الموظفين والعمال ، ولكنى كنت أعطى هذه الضجة بتوزيع علاوات ومكافآت جديدة ولو حسبت قيمة العلاوات التى توزع فى مناسبة تعيين كل رئيس مجلس إدارة جديد لوجدت أنها أكبر من قيمة أى علاوة تصرف فى أى مناسبة أخرى .. كل رئيس يبدأ عهده بتوزيع علاوات .. توزيع رشاوى .. حتى يكسب تأييد وهتاف الموظفين

والعمال .. وبجانب هذا فإنى بحكم وظيفتى السابقة كمدير شئون العاملين كنت أعرف نقطة الضعف فى كل عامل وموظف ، وكنت أصل إليه من خلال ضعفه لأكسبه ، واستطعت بذلك أن أكسب حتى من كانوا يدعون الوفاء لرؤسائهم السابقين ..

وهكذا أصبحت الشركة فى يدى .

لم يبق أمامى إلا مشكلة أستاذى سليمان ومعه خديجة .

اعتقل مجلس الثورة أحد أعضائه ، ونفى عضوين آخرين إلى الخارج ، ثم مع السنين أخذ مجلس القيادة يأكل بعضه بعضا ، حتى اكتملت قوة الرئاسة لجمال عبد الناصر ..

وهذا أيضا كان مقدرًا أن يحدث بالنسبة لى بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس إدارة « الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية » .. كان لا يمكن أن أستسلم لصاحب فضل على أو أستاذ لى حتى لو اعترفت بفضله وأستاذته .. الاعتراف شيء وممارسة السلطة شيء آخر ..

وأقول الحق إن أى رئيس يصاب بنوع من الغرور بالنسبة لمرؤوسيه .. وأعترف أنى أصبت بهذا الغرور .. لقد وجدت نفسى أهم شخصية فى الشركة .. أنا الحاكم بأمر الله .. ثم وجدت رئيس الوزراء ونواب رئيس الوزراء والوزراء يتصلون بى بالتليفون ليسألوا أو يطلبوا .. ووجدت أنه أصبح من حقى أنا الآخر أن أتصل بكل منهم لأعرض موضوعا وأحيانا لمجرد السؤال عن الصحة .. ثم أنى دائما مدعو فى الاحتفالات الرسمية ، وأوضع فى الصف الأول وأتقدم لمصافحة رئيس الدولة .. ومكبى الفخم المكيف الهواء ، والسيارة الرسمية المخصصة لى وسائقها .. لقد أصدرت أمرا منذ اليوم بتغيير سائقى الخاص .. يجب أن يكون أسمر الوجه من أهل النوبة وأن يرتدى حلة كاملة زاهية .. هكذا يجب أن يكون سائق رئيس مجلس الإدارة .. و .. و ..

وسليمان لم يعترف بكل هذا الذى حدث لى .. لم يحاول أن يعترف بسلطائى الجديدة أو مرضى غرورى .. كان يدخل لى وليس فى ملامح وجهه هذه اللمسات التى تعلن الخضوع والاستسلام للسيد

إن سليمان عبد العزيز صاحب فضل على هذا صحيح وأنا معترف بفضله .. وهو أيضا أستاذى .. وأنا معترف بأستاذته .. ولكن من المستحيل أن تكون رئيسا على من هو صاحب فضل عليك ثم تستطيع أن تمارس عليه سلطات رئاستك ، ولا يمكن أن يكون التلميذ رئيسا على أستاذه .. هذه هى القاعدة العامة حتى بالنسبة لأعلى المراكز .. وجمال عبد الناصر كان لا يمكن أن يمارس رئاسته كاملة بالنسبة لأصحاب الفضل عليه ، وكان مضطرا أن يتخلص منهم كلهم حتى يستطيع أن يرتاح فى رئاسته .. كما لو يحس أن وضع أى أستاذ من أساتذة الثورة فى أى منصب أو مركز هام .. الأساتذة الذين حرصوا فكريا على الثورة ، وخططوا التنظيمات الثورية ، ووضعوا التفسير السياسى للثورة ، ورسوموا الإجراءات الثورية .. هؤلاء كلهم أبعدوا عن المناصب القيادية والمراكز التنفيذية وكرموا بمنحهم معاشا استثنائيا وبحقوق بعض مطالبهم الشخصية ، ومن لم يكتف منهم بذلك وطالب بحقوق ومركز الأستاذ نزعته عنه صفة الأستاذية وراح فى داهية .. بل حتى أعضاء مجلس قيادة الثورة الأوائل لم يستطيعوا أن يستسلموا للرئاسة ولا أن يعتبر واحد منهم نفسه مرؤوسا للآخر ، لأن كلا منهم لا يعترف للآخر بفضل عليه .. ومنذ العام الأول للثورة

الرئيس ، ثم يجلس دون أن أدعوه للجلوس ، ويتكلم كأنه يلقي درساً .. وكنت في الوقت نفسه أجد نفسي أقوم واقفا لاستقباله وهو شيء لا يمكن أن يحدث بين رئيس مجلس الإدارة ومجرد مدير عام .. وكما لا يستطيع سليمان أن ينسى أنه كان رئيساً على ، كنت أنا أيضاً لا أستطيع أن أنسى أنني كنت مرؤوساً له .. بل أنه منح نفسه حق الدخول على في مكنتي دون استئذان السكرتير أو تحديد موعد سابق ، وكان أحياناً يتصل بي بالتليفون ويقول في بساطة :
— هناك موضوع يجب أن يعرض عليك .. أتحب أن تأتي إلي أم آتي إليك .. ؟

إلى هذا الحد يرفع الكلفة بيني وبينه ، وقد كان هذا ممكناً لو كنا أصدقاء ، ولكني قلت له إنه منذ اليوم الأول الذي عينت بفضل في الشركة تعمدت أن أتنازل عن أسلوب الصداقة وأضع الكلفة الرسمية بيني وبينه وهو ما يفرضه الفن الإداري كالأسلوب الأضمن في استمرار علاقة العمل بين الرئيس والمرؤوس ..

ومنذ اليوم الأول لتولي الرئاسة وأنا أقدر كل هذا في تصرفات سليمان ، ولذلك لم أفكر في أن أطلب تعيينه عضواً منتدباً بعد أن عزلت العضو المنتدب السابق ، وهو ما كان ينتظره كل من في الشركة ظناً منهم أنني يمكن أن أستسلم لفضل سليمان على وأستاذيته لي .. وربما كان هذا هو المعقول .. المدير العام يرتقى إلى مركز العضو المنتدب .. ولكن الفن الإداري أي فن الذكاء والفهولة الإدارية يرفض هذا المعقول .. لأن الرئيس في حاجة لموظف هو الذي يصنعه ويصبح مالكا له ، لا موظف ليس للرئيس فضل عليه .. ثم أن سليمان كموظف

قديم في الشركة على علم بكل أسرارها وخصوصاً بكل الأسرار التي تتعلق بي .. إنه يعرف عن الشركة أكثر مما أعرف .. وهذا ليس في صالحى كرئيس مجلس إدارة ، وكان يجب أن أبحث عن رجل من خارج الشركة أعينه عضواً منتدباً حتى أكون أنا العالم بالسر .. وأنا الذى أعطيه من الأسرار ما يهمني أن يعرفه .. وأى موظف في هذه الشركة — شركتنا — لا يمكن أن يعرف من الأسرار إلا ما يعيشه منها ، وسليمان عاش معظمها أما العضو المنتدب الذى اخترته فلم يعيش منها شيئاً ولا يمكن أن يصل إلى أكثر مما أبيع له من أسرار .. ورغم ذلك ، فإن سليمان أعطى لنفسه حقوق ممارسة اختصاصات العضو المنتدب دون أن يحاول استئذاني أو الاتفاق معي .. وقد حدث أن أصدرت أمراً إلى العضو المنتدب بتعيين ثمانية موظفين جدد .. خمسة شبان وثلاث آنسات .. أقول أصدرت أمراً لأنى منذ البداية وأنا أتعامل بالأوامر لا بالقرارات .. وكنت أعتقد أن أمر التعيين قد نفذ بالنسبة للثمانية .. ولكنى فوجئت بعد أسبوع بسليمان يتصل بي بالتليفون الداخلى للشركة ويقول لى بكل وقاحة :
— هذه التعيينات لا يمكن أن تتم .. ليس بينهم واحد مؤهل للوظيفة التى وضع فيها ، والآنسات الثلاث ، مازلن طالبات فى الجامعة ولا يصلحن لوظائف السكرتارية كما ينص القرار ..
وقلت فى حدة :

— هذا الكلام لا يقال فى التليفون يا أستاذ سليمان .. أعد الأوراق إلى مكتب السيد العضو المنتدب وسأبحث الموضوع معه ..
وقال سليمان مستمراً فى جرائته :

— سأحمل الأوراق بنفسى إليك .. انتظرنى .
وقلت وأنا أكثر حدة :

— آسف .. مشغول .. والعضو المنتدب هو المختص ..
وألقيت بسماعة التليفون كأنى ألقيتها فى وجه سليمان ..

والمفروض أنه مادام العضو المنتدب قد وافق على أوامر رئيس المجلس فإن مرور الأوراق على باقى الموظفين يعتبر مجرد إجراءات شكلية .. ليس من حق أحد منهم أن يعترض .. ثم من أدرى سليمان بأسباب تعيين هؤلاء الثمانية .. إن واحدة من الأنسات هى ابنة أخت وزير الخارجية ، والثانية والثالثة أوصى عليهما وزير الاقتصاد ، واثنين من الشبان المعينين أصدقاء ابن محمد عبد الرحمن رئيس شركة الاستيراد والتصدير وقد أوصانى عليه شخصيا ، والثالث هو ابن عم شخصية بارزة فى مجلس الأمة .. و .. و .. كل منهم وراءه سند ودافع قوى لتعيينه .

وأنا فى كل حفل عام أو خاص أدعى إليه ، وأكثر من ستين فى المائة من الزائرين الذين استقبلتهم فى مكتبى ، أواجه بطلبات تعيين موظفين أو بطلبات الحصول على بعض أنواع البضائع المستوردة .. إن رؤساء مجالس الإدارة كالأطباء تلاحقهم دائما مطالب الناس .. فكل من يقابل طبيبا يسأله عن مرض أو عن دواء ، وكل من يقابل رئيس مجلس إدارة يطلب منه وظيفة أو بضاعة .. وهذه هى الدنيا .. حتى لو التقيت برئيس الوزراء نفسه لا يخلو اللقاء من طلب تعيين أو طلب بضاعة .. وأنا أتلقى هذه الطلبات دائما بترحاب فإن ما يرضى غرورى أن تمتد إلى يد تطلب وتستجدى .. ثم أقيس قيمة من يطلب منى ، ثم قيمة ما

يمكن أن أطلبه أنا منه فى مقابل تحقيق طلبه .. أقيس كل ذلك ثم أصدر أمرى إلى العضو المنتدب ، أو أتجاهل الطلب أو أنساه ..

وكل هذا لا يكون دائما على حساب مصالح الشركة فأنا أعلم أن الشركة تعاني من زيادة العمالة وأعلم أنه يفرض عليها كل عام تعيين نسبة من خريجي الجامعة .. وكل من ترسلهم الدولة للتعيين لا يصلحون عادة للعمل فى الشركة .. والسياسة التى أتبعها لا شك أنها تخفف من ثقل ضغط تعيينات على الشركة ، فأنا ألبى طلب الشخصيات المسئولة فى تعيين أقاربائهم وأولاد أصدقائهم ، ولكنى نظير ذلك أستطيع دائما أن أخفض من نسبة تعيينات الخريجين الذين ترسلهم إدارة القوى العاملة .. فإذا أصدرت الدولة مثلا قرارا بتعيين خمسين موظفا جديدا استطعت أن أخفض الرقم إلى ثلاثين ، وأكون أنا قد عينت خلال العام وعن طريق الوسايط عشرة موظفين فيصبح عدد المعينين خلال العام أربعين موظفا .. أى أننى وفرت على الشركة عشرة من مجموع المعينين سواء عن طريق الوساطة أو عن طريق إدارة القوى العاملة .. وكل هذا لا يعرفه سليمان ..

وليس من حقه أن يطلب منى أن أطلع على أسرار أوامر التعيينات التى أصدرها .. هذا بالكثير هو من اختصاص العضو المنتدب إذا أراد أن يعرف شيئا من الأسرار ، وسليمان ليس عضوا منتدبا ..

وقد استدعيت يومها العضو المنتدب وأمرته أن تتخذ قرارات التعيين بتخطى المدير العام السيد سليمان عبد العزيز ..

وقال العضو المنتدب : حاضر ..

وقد بدأت بعد ذلك عملية تجاهل اختصاصات المدير العام ، أى

تجاهل اختصاصات سليمان ، ولا شك أن سليمان أحس بذلك ولكنه لم يحاول أن يشيخ ضجة أو يجعل من نفسه مشكلة في مواجهتي ، فهو كما قلت عالم إداري وليس فنانا إداريا ، والفنان الإداري هو الذي يستطيع أن يدخل الممارك ويثير المشاكل .. ومن ناحيتي فإنني لم ألق بكل ثقلي على سليمان بل كنت أتعهد الاتصال به بين وقت وآخر ، وأتظاهر كأنني أستشيريه وأستعين برأيه في مشكلة من مشاكل الشركة ، والواقع أنني كنت حريصا على الاحتفاظ به إلى أن أستطيع أن أصل إلى خديجة .. جييجي .. المرأة التي يصل مجموع جمال ملامحها إلى أكثر من ألف مليون ، والتي كانت حلما من أحلامي البعيدة منذ كنت مجرد موظف في الشركة ..

وقد سبق أن قلت لم أستطع أبدا أن أحدد علاقة خديجة بسليمان ، ولكنها تتردد عليه في مكتبه وتخرجه عن طبيعته فيتحرك إداريا في نشاط عجيب ويجري إلى رئيس مجلس الإدارة وإلى العضو المنتدب ليصل إلى تحقيق ما تريده جييجي .. و جييجي كانت تريد في كل مرة الحصول على إذن استيراد باسم الشركة تستورد به بضائع تتاجر بها لحسابها .

ومرت فترة طويلة منذ أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة و جييجي لا تظهر في الشركة ، ولا تزور سليمان في مكتبه .. وأحب أن أقول إن من بين التنظيمات التي أدخلتها على الشركة تنظيمًا للمخابرات الخاصة بعمل لحسابي مباشرة .. فكل ما يجري في الشركة أعلم به في ساعتها وأولا بأول بما فيها الزيارات والاجتماعات التي تحدث في مكاتب كبار الموظفين .. وهذا ليس عيبا ولا يعتبر تحجيا على العاملين في

الشركة بل هو تنظيم طبيعي تعتمد عليه الدولة كلها ، وبما أن الشركة هي شركة عامة فيجب أن تطبق نفس النظم التي تطبقها الدولة ، ورئيس مجلس الإدارة لا تقل مسؤوليته في حدود اختصاصه عن مسؤولية رئيس الجمهورية ، فهو في حاجة إلى نفس ما يحتاج إليه رئيس الجمهورية مع الفارق الكبير في المسؤوليات .. إلى أن كان يوم ..

وأبلغتني المخابرات الخاصة أن خديجة قد وصلت إلى الشركة وأنها في مكتب سليمان .. وجلست في انتظار أن يتصل بي سليمان ويطلب مقابلي ليسألني الموافقة على طلبات خديجة كما هي عادته التي أعرفها منذ كنت أعمل مرؤوسا له .. ولكنه لم يتصل بي مباشرة بل اتصل بعضو مجلس الإدارة المنتدب السيد بيومي عبد الله .. وقد اتصل بي بيومي بعد أن تركه سليمان مباشرة وقال لي كل ما جرى بينهما من حديث .. إنه يطلب لخديجة نفس الشيء .. أن تصرف لحسابها باسم الشركة .. وقال لي بيومي إنه أبلغ سليمان أنه لا أحد يستطيع أن يتخذ مثل هذا القرار إلا رئيس المجلس .. وقد طلب سليمان من بيومي أن يتولى عرض الموضوع على ، ولكن بيومي اعتذر له وقال له إنه يرى أن يقوم هو — أي سليمان — بالاتصال بي ..

لماذا لا يريد سليمان أن يواجهني بطلبات جييجي .. ربما لأنه لا يزال يحتر نفسه أستاذي وصاحب الفضل علي ولا يريد أن يقف أمامي موقف الاستجداء .. أو ربما لأنه يعلم أنني مطلع على أسرار العملية كلها وأنها عملية سبق أن تمت أكثر من مرة ، فلا حاجة له أن يتصل بي بخصوصها ..

وقد اضطر أن يلجأ إليّ بعد أن رفض بيومي أن يتحمل المسؤولية ..
ولأول مرة رأيته يجلس أمامي في تواضع متنازلا عن مركز أستاذيته
ويتكلم من خلال ابتسامة منافية وفي صوت أقرب إلى الاستجداء ..
وقلت له بعد أن انتهى من عرض الموضوع :

— اسمع يا أستاذ سليمان .. أنت تعرف أنني ملم بالموضوع كله
وقد كان يمر على عندما كنت نائبا لك .. نائب المدير العام .. ولكن
الموقف الآن تغير بالنسبة لي بعد أن أصبحت رئيسا لمجلس الإدارة ..
إنها مسؤولية كبيرة ليس من السهل تحملها ..

ونظر إلي في تعجب وقال :

— رئيس مجلس الإدارة السابق كان يوافق ..

وقلت مقاطعا في لهجة الغرور :

— لست مسئولاً عن الرئيس السابق .. وربما كانت مثل هذه
العملية أحد أسباب طرده من الشركة ..

ورفع سليمان رأسه كأنه قرر أن يتحدثني وتكلم كأنه عاد أستاذا لي
وصاحب فضل على :

— هذه العملية في صالح الشركة ..

وابتسمت ساخرا وقلت :

— إن السماح باستغلال اسم الشركة والعمل من باطنها ليس من
صالحها .. إنها عملية اعتداء على القانون وعلى اللائحة .. وأنت تعلم
أن عمليات الاستيراد محرمة على الأشخاص وعلى الهيئات الخاصة ،
فإذا استطاع شخص أن يستورد لحسابه الخاص باسم شركة عامة فهذه
جناية تزوير في أوراق رسمية ..

ونظر إلي سليمان في استهانة ولوى شفتيه في قرف وقال وكأنه
يصدق كلامه في وجهي :

— كلام عجيب يا عبد السميع .. ولماذا كنت ساكنا على جرائم
التزوير كل هذه المدة ..

قلت وأنا أنظر إليه في تحد ..

— لأنني لم أكن مسئولاً عنها ..

قال في حدة وكأنه يلقي خطابا سياسيا :

— لا .. لقد كنت تسكت لأنك تعلم أن هذه العملية تحقق أرباحا
للشركة .. إننا نسمح لهؤلاء الأشخاص بالعمل من باطن الشركة نظير
عمولة يدفعونها .. وأنت تعلم أن العملية تحتاج إلى رأسمال في حدود
خمس وعشرين ألف دولار والذين يقومون بها يدفعون عمولة تصل
إلى خمسة آلاف جنيه أو حوالي واحد على خمسة من قيمة رأس
المال .. عمولة ضخمة .. وقد سبق للشركة أن قامت بمثل هذه
العملية فكانت النتيجة أنها خسرت رأس المال كله نتيجة التدخلات
التي تعرفها .. وأنت تذكر أننا قمنا بعملية استيراد ساعات وأقلام وقطع
غيار ، وأن ستين في المائة من المستورد وزع مجانا والباقي بيع بثمان
يساوي ربع ثمن الشراء وكانت خسارة بشعة للشركة .. وصحيح أن
القانون واللوائح لا تعترف بالعمل من الباطن ولكن القوانين واللوائح
وضعت لضمان الأرباح للشركة .. وهذه عملية تضمن لنا الربح ..
وصحيح أيضا أن الذين يستوردون باسم الشركة يبيعون البضاعة في
السوق السوداء .. وكرييس مجلس إدارة أنصحك بالموافقة كما سبق
أن وافقت قبل أن تكون رئيسا ..

وتحملت خطابه في صبر ثم قلت وأنا أنبسم له حتى أخفف من حدته :

— كل هذا أعرفه يا أستاذ سليمان وأنت أستاذي .. ولكن المسؤولية تتطلب تفكيراً أكثر .. على كل حال دع السيدة خديجة تمر على ..

وكان هذا هو كل ما أريده .. أن تأتي خديجة إلى مكنتي كما تذهب إلى مكتب سليمان ..

ورد سليمان في دهشة :

— لماذا .. ماذا تريد منها ..

قلت :

— أريد مناقشتها في التفاصيل ..

قال وهو ينظر إلى كأنه اكتشف شيئاً قادراً :

— ولكن خديجة هانم ليست هي المسؤولة عن العملية ، إنه شقيقها وشركاؤه ..

قلت :

— ولكنها على الأقل تعرف التفاصيل . دعها تأتي إلي .. وستكون أنت معها طبعاً ..

وقفز واقفاً في عصبية وقال وهو ينصرف في خطوات غاضبة :

— سأبلغها ..

ومرت ساعة .. ساعتان .. ومواعيد العمل قاربت الانتهاء ولم يعد سليمان إلى مكنتي ومعه خديجة .. إن كل ما أريده هو أن أراها جالسة أمامي وأنا في منصبي الجديد رئيساً لمجلس الإدارة ، إنني أعرف أن

المنصب مفر لهذا النوع من النساء أشد إغراء من الشخصية نفسها .. ورفعت سماعة التليفون واتصلت بسليمان :

— لماذا لم تعد إلي ولم تتصل بي ..

وأجاب وكأنه يشتمني :

— السيدة خديجة اعتذرت ، كانت مرتبطة بموعد آخر .. فرصة أخرى ..

ثم ألقى في وجهي بسماعة التليفون ..

والله عال يا سليمان .. وخديجة .. جيئني .. إنها لا تزال تتعالى على .. ترفض الاستسلام لمكانتي كرئيس لمجلس الإدارة ، كما

رفضت من قبل السماح لي بالتقرب إليها وأنا مؤوس لسليمان .. إنني لا أنسى يوم أن اتصلت بها في التليفون مدعياً أنني أعرض عليها بعض

تفاصيل العملية فرفضتني وقالت وهي تنهى المكالمات :

— الموضوع في يد سليمان بيه .. اعرضه عليه ..

كأنني خادم لها ولسليمان بيه ..

ولكن ما علاقتها بسليمان وماذا يمكن أن يميزه عني .. لقد كان رئيسي وأنا الآن رئيسه .. رئيس الشركة كلها .. وحتى كشخصية ..

كرجل .. أنا أصغر منه وأكثر إغراء منه ، وإذا كنت متزوجاً فسليمان أيضاً متزوج ، وخديجة متزوجة .. إن الزواج في مجتمع العمل هو

مجرد غطاء للفضيحة .

هل خديجة تحب سليمان إلى حد أن ترفض أن تدخل في حياتها أحداً آخر .. مستحيل .. لا حب في عالم الصفقات .. ربما كان بينها

وبين سليمان اتفاق تعامل أي يتقاسم معها الربح أو على الأقل تخصصه

بعمولة على كل عملية .. إن سليمان لا يبدو من هذا النوع ، ولكن حتى لو كان ، فإنها لا يمكن أن تضجى بى وهى تعلم أن العملية أصبحت فى يدى ..

ومضت أسابيع وسليمان لا يتصل بى ولا يثير موضوع العملية مع أحد المسئولين فى الشركة كأن خديجة عدلت نهائيا عن العمل معنا .. وأنا لا أكف عن التفكير .. إنى أستطيع أن أخرب بيت خديجة .. أستطيع أن أكشف العملية التى كانت تقوم بها مع الشركة على اعتبار أنى لم أكن أيامها مسئولا ، ثم أفتح التحقيق وأنتهى بإحالتها هى وشركائها إلى النيابة ، وأبدو أنا بطلا يتقذ أموال الشركة .. وهى لا شك تعلم أنى أملك هذه القوة ، ولا شك أنها تخافنى ، وربما كان اعتمادها كله على سليمان .. مادام سليمان فى الشركة فهى مطمئنة إلى حد تستطيع معه أن تستغنى بسليمان عنى ..

إذن يجب أن يخرج سليمان من الشركة ..

ساعتها ستنجد خديجة نفسها بين يدى ..

ولكنى لا أستطيع أن أطرد سليمان .. ليس فى يدى قانون يسمح لى طرده ، ولا أستطيع أن ألق له تهمة ، لأن الفترة الطويلة التى قضيتها وأنا أعمل معه تجعلنى معرضا لكل اتهام يوجه إليه .. ولكن الأمر سهل .. لقد قررت أن أنشئ فى الشركة قسم أبحاث علمية .. وأقسام الأبحاث فى جميع الشركات العالمية المحترمة تعتبر المركز الذى تعتمد عليه الشركة فى كل تصرفاتها .. أبحاث عن المخترعات .. وأبحاث عن الأسواق .. أبحاث اقتصادية .. و .. و .. بل إنى قرأت أن القسم الأكبر من المخابرات اليابانية الدولية هى أجهزة تنبّع

الشركات الكبرى ومهمتها التجسس على الشركات الكبرى خارج اليابان ، وتسرق آخر اختراع ، أو آخر تخطيط اقتصادى ، واستطاعت اليابان بذلك أن تصبح الدولة الصناعية التجارية الأولى ، وأصبح هم الدول المنافسة هو البحث عن جواسيس اليابان داخل شركاتها .. هذا فى الخارج .. أما فى الداخل .. عندنا .. فإن أقسام الأبحاث داخل الشركات والمؤسسات تعتبر مكاتب صامتة جاهلة بنفى إليها المغضوب عليهم وتوجد كمجرد مظهر تدعى به الشركة أو المؤسسة أنها تعيش عصر العلم والتكنولوجيا .. وهكذا ..

أنشأت إدارة جديدة اسميتها « إدارة الأبحاث العلمية » وطعما اخترت رئيسا لها أستاذى سليمان عبد العزيز .. ولا يستطيع سليمان أن يعترض فالمنصب الجديد يعتبر تكريما وتقديرا لكفاءته العلمية ، ويعتبر توسعا لاختصاصه لأنه يعطيه حق الدراسة العلمية لكل نشاط الشركة ، حتى لو كان بينه وبين نفسه يعرف أن المقصود هو إبعاده .. وربما تغاليت أنا فى هذا الإبعاد فأنشأت مركزا للإدارة الجديدة بعيدا عن المبنى الرئيسى للشركة ، وبذلك أصبح سليمان بعيدا .. بعيدا عن كل شيء يخص الشركة .. ومكتبه فى شقة بعمارة فى الدقى وليس معه إلا اثنان من الموظفين وإن كنت قد قررت فى اللاتحة أن من حقه الاستعانة بجميع الشخصيات العلمية فى البلد .. فقط لأعطى نفسى .. وما توقته حدث ..

إنى فعلا إدارى فان شاطر وفهلوى ..

فلم تمض أيام على التخلص من وجود سليمان داخل الشركة حتى اتصلت بخديجة بمكاتبى وطلبت تحديد موعد لقاء ..

جاءت خديجة ..

واستقبلتها وأنا أتعمد رفع الكلفة كأننا أصدقاء قدامى منذ كنت أحد موظفي الشركة ، وتعمدت هي أن تعطيني كأنها لم تبخل على يوما .. تعطيني من ابتسامتها الواسعة ، ومن رنة صوتها ، ومن تمايل قوامها .. ونظراتي ترقد في كل خط من ملامح وجهها الحلو المثير وتقلب بين خطوط نديها وخطوط عنقها وساقها .. إنها أخيرا جاءت .. أخيرا جئت بها ..

وفتحت لها الموضوع مباشرة كأن ليس بيننا أسرار ، وكأن الشركة في حاجة إليها .. وقلت لها إنني موافق على العملية ولكنني في حاجة إلى مزيد من التفاصيل فهل نستطيع أن نلتقي لتناول الشاي حتى يكون لدينا الوقت الكافي ..

وابتسمت في بساطة وقالت فوراً :

— في بيتي الليلة .. الساعة التاسعة ..

لقد طلبت الشاي ولكن جيئني تدعوني إلى العشاء .. وذهبت إليها وأنا أخطو في شموخ كأنني في طريقي إلى فتح عكا ، كما يقولون ، ولم أتنبه يومها إلى أنني ارتكبت الخطأ الإداري الذي حطم كل أحلامي مع خديجة .. كان الخطأ هو أنني حملت إليها معي كل الأوراق الخاصة بالعملية بعد أن تم إعدادها ، وكان يجب أن أنتظر إلى أن أصل أولاً إلى ما أريده منها وأحدد ارتباطي بها ، ولكنني سلمت البضاعة قبل أن أضمن استلام الثمن حتى دون إيصال ودون رهن .. إنه خطأ .. خطأ شنيع .. ثم إنني فقدت قيمة تهديد خديجة بفتح التحقيق في تعاملها مع الشركة لأنني أنا نفسي أصبحت شريكا معها في إحدى

عملياتها .. أصبحت أنا وهي في قفص واحد .. قفص الانتهام .. وأكثر من ذلك لقد سلمتها الأوراق دون أن أتفق معها على نصيبى الخاص من العمولة على افتراض أنها كانت تخصص عمولة لسليمان .. كل ذلك ضاع مني وكل ما كنت أسعى إليه هو إغراء خديجة .. هو الوصول إليها كامرأة .. وأردت أن أطمئنها وأفتح شهيتها بأن أنهي لها العملية مع أول لقاء ..

وطبعاً لم أتنبه يومها إلى الخطأ الذي وقعت فيه وأنا في طريقي إلى فتح عكا .. وقد كنت أنتظر أن تستقبلني جيئني ومعها شقيقها وصديقها المسيحي اللذان تم العملية باسمهما .. وكنت أتصور أنها ربما تدعو معي بعض أصدقائها من المجتمع الذي تعيش فيه ، على اعتبار أنها الدعوة الأولى التي توجهها إلى والتي يمكن خلالها أن نتفق على موعد لقاء خاص .. هكذا يقضى علم العلاقات العامة .. ولكنني فوجئت بأنني وجدت نفسي المدعو الوحيد .. وجيئني ليس معها إلا زوجها السيد وكيل الوزارة ..

وقد استقبلتني وهي تقدم لي أبرز وأجمل ما فيها .. ثوبها يكشف عن مفاتيح أكثر مما رأيته فيها .. وشعرها تتركه منسدلاً حتى كنفها كأنه وسادة تدعوني بأن أنام عليها .. وزوجها يدهشني .. إنه صامت .. صامت .. ويضع على وجهه ملامح جادة كأنه يحتفظ بكل أسرار الكون ويأبى أن يصرح بها .. ويتسم أحياناً ابتسامات باهية سريعة يحاول أن يبدو بها كأنه فوق هذا البعث .. والجلسة كلها تحت قيادة خديجة .. بلباقتها توجهني إلى الحديث في الموضوع الذي تريده هي لا الذي أريده أنا .. وكنت قد قدمت لها أوراق

الموافقة وانطلقت فرحتها من عينيها كأنها مصابيح كشافة تلقى مزيدا من نور جمالها .. وتحدثت في العمل وتدخلت حديثنا تلميحات إلى ما أريده منها إلى ما تريده مني ، وقلت لها وأنا أضحك وفي صوت هامس حتى لا يسمعه زوجها السيد وكيل الوزارة .

— بصراحة .. إنني كنت أغار من سليمان .. كنت أعتقد أن بينكما ما هو أبعد من أعمال الشركة ..
وضحكت قائلة :

— سليمان رجل طيب .. أما أنت .. أنت خطر ..

قلت كأنني أطلبها بنصيبي من العمولة :

— أريدك أن تعرفني أكثر ..

قالت :

— أريد أن أطمئن إليك ..

قلت :

— أنا مسافر الأسبوع القادم إلى لندن .. فلنلتق هناك ..

قالت وابتسامتها تقطر بأنوثتها ونظرات عينيها تسلسل إلى ما تحت

ثيابي :

— ألم أقل لك إنك خطر .. ولكنني مستعدة إلى أن ألتقي بك

هناك .. إن خطورتك مغرية ..

وتركتها لبيتها وأنا أعيش أحلام لقائنا في لندن .. هناك وحدنا ..

عشرة أيام وكلها لي .. إن ليلة واحدة مع جيجي تعتبر عمولة كافية لأي

عملية .. ولن آخذ ليلة واحدة .. ليال كثيرة .. ربما ليالي العمر

كله ..

وكنت قد قررت السفر إلى لندن لتوقيع عقد استيراد جديد .. وعندما تقبل الشركة على توقيع عقد استيراد أى شيء ، يبدأ بين كبار موظفيها نوع من التنافس الصامت الخطر .. كل منهم يريد أن يسافر لتوقيع العقد لأن الذى يوقع العقد هو الذى يقبض العمولة ، وهى ليست عمولة رسمية ، أى لا تسجل فى العقد وليس المفروض أن يكتشفها أحد .. إنها رشوة .. أموال مهربة .. وكبار الموظفين يعلمون أن كلا منهم قد سبق وتقاضى عمولة ، وأنه يحتفظ بها فى بنوك الخارج ، وكل منهم يحمى الآخر حتى لا ينكشف أحدهم فيفضح الباقون .. واختيار الشخص الذى يسافر لتوقيع العقد هى مهمة رئيس مجلس الإدارة .. ورئيس مجلس الإدارة النبيه والفنان الإدارى يجب ألا يخص نفسه بكل الغنائم ، بل يحرص على توزيعها بين معاونيه من كبار الموظفين حتى يمسك بأعناقهم كما يمسكون بعنقه .. وقد وضعت تقليدا فى الشركة يقوم على أساس أن أختار من يسافر لتوقيع العقد حسب قيمة العمولة التى يمكن أن يخرج بها .. فإذا قدرت أن قيمتها لا تتجاوز ألفين أو ثلاثة آلاف دولار أرسلت إليها مدير الشؤون القانونية، وإذا قدرت أنها قد تصل إلى خمسة آلاف أرسلت المدير العام .. وإذا ارتفع التقدير إلى عشرة آلاف مثلا أرسلت العضو المنتدب أما ما هو أكثر من ذلك فإنه من حق رئيس مجلس الإدارة نفسه .. وهذا مع حساب الحالات التى يسافر فيها أكثر من واحد للاتفاق على صفقة واحدة وتصبح العمولة مقسمة بينهم .

وقد سافرت إلى لندن وحدى لا يصحبني سوى سكرتيرى الخاص ، ولم ألتق بخديجة قبل سفري .. كنا نتحدث فى التليفون كل

يوم أكثر من مرة .. وقد أردت أن أراها قبل سفري ولكنها اعتذرت ..
إن ارتباطاتها كثيرة وظروفها صعبة ولكنها كانت دائما عند وعدها بأن
تلتحق بي في لندن ، وكانت تقول لي في التليفون ضاحكة :
— الأصول أن العريس لا يلتقي بالعروس قبل ليلة الدخلة ..
وكنت أضحك وأنا أعيش في أحلام ليالي لندن ..
وبقيت في لندن خمسة عشر يوما .
ولم تأت جيجي إلى ..

وكان يمكن أن أعود بعد عشرة أيام ولكنني تعمدت أن أطيل بقائي
لعل جيجي تأتي فأني لم أستطع أن أصدق أنها يمكن أن تتخلى عني ..
وحاولت خلال هذه المدة أن أتصل بها تليفونيا من هناك ولكنني لم
أستطع الاتصال بها ، وفي اليوم العاشر أمرت سكرتيري الخاص أن
يعود قبلي إلى القاهرة وأن يحاول الاتصال بجيجي ويسألها ثم يتصل
بي ليلفني هل ستأتي إلى في لندن أم لا .. واتصل بي السكرتير من
القاهرة ليقول لي إنه لا يستطيع أن يتصل بجيجي ..

وقررت أن أعود دون أن أفقد الأمل .. إن غروري يرفض الاستسلام
للإأس أو الاعتراف بالهزيمة .. وكنت أقول لنفسى إنها لا شك لم
تستطع الحصول على إذن بالسفر .. وكان لا أحد من المصريين
يستطيع أيامها أن يسافر إلا بإذن .. كل مصرى كان مهما إلى حد لا
يستطيع أن يسافر إلا بإذن من مجلس الوزراء .. يا سلام .. وكان ما
يخفف عني هو أنى حصلت على عمولة نظير الصفقة التي وقعتها تبلغ
عشرين ألف دولار .. ولولا أن الشركات التي تتعامل معها تعلم أن هذه
ليست عمولات رسمية ولكنها رشاوى تدفع إلينا ، لكانت العمولة

الرسمية قد وصلت إلى خمسين ألف دولار ..
وعدت وأتمن هدية أحملها هي الهدية التي سأقدمها إلى جيجي ..
ساعة حريمى مرصعة بالماس دفعت ثمنها أربعمائة دولار .. أعلى
وأتمن من الهدية التي كنت أحملها لزوجتى أو لابنتى ..
وفوجئت عندما استطعت أن أتحدث إلى جيجي فى التليفون بأنها
تحدثنى بصفة رسمية وفى برود وفتور ، وحاولت أن أستخف دمي
وأنا أحدثها عن أيام انتظارى لها فى لندن ، ولكنها لم تضحك ولم
تعتذر عن تخلفها لوعدها وقالت فى إهمال :

— ستعرف كل شيء يوما ما ..

وبعد اللحاح حددت لى موعدا لزيارتها فى بيتها لتناول الشاي ..
هذه المرة شاي لا عشاء .. ولم أجدها وحدها ، ولم أجدها معها
شخصيات اجتماعية تليق بالاجتماع بي ، ولكنني وجدتها مع سيدات
من عائلتها وأولاد شبان وأطفال ، وزوجها السيد وكيل الوزارة يقرأ
صحف الصباح .. ولم أستطع أن أصل إلى حديث يجمعنا وحدنا ،
ولكنني بعد أن قدمت لها هديتها فرحت بها وأخذت تعرضها على
قربائنها وعندما رآها زوجها رفع إلى عينيه وقال كأنه يتكلم بشريط
مسجل :

— متشكرين ..

وربما أحسنت هي بعد الهدية أنها يجب أن تقدم لى تفسيراً عن
تصرفاتها فأخذتني إلى الشرفة وقالت لى هامسة :
— أنت لا تعرف ماذا فعل زوجي عندما عرف أنى مسافرة .. إنه
يشك فيك منذ أول مرة رآك .. وقد اكتشف أنى مسافرة إليك .. أنت

خطر على كل النساء وكل الأزواج وعيبك أن خطورتك مكشوفة ..
وضحكك ضحكة خافتة مفتعلة ..

ولم أردد ضحكها فإني أحسست بأنها تكذب .. طبعاً تكذب ..
إن زوجها لم يتعود اكتشاف أى شيء يخصها ..
وتركتها وليس بيننا وعود إلا التحدث فى التليفون ..

ولكنى كنت بدأت أحس أن الجو من حولي يتغير .. جو العمل ..
أصبحت لا أستطيع أن أتصل بسهولة بالشخصية التى كان لها الفضل
فى الوصول بى إلى رئاسة مجلس الإدارة .. الشخصية صاحبة المركز
القوى .. ثم أنى لما تحدثت إلى الوزير سمعت رنة فى حديثه لم أعود
سماعها بل إنه قال لى مرة :

— إبنى أسمع عن مشاكل كثيرة داخل شركتك .. خذ بالك قبل
أن تكبر المشاكل ..

ولم يكن هناك أى مشاكل جديدة فى الشركة .. إنها نفس
المشاكل التى ولدت معها .. ولكن الوزير رفض أن يقنع بما أقول
وأنتهى المكالمة بسرعة ..

بل إنه مضى أكثر من شهر دون أن يتصل بى أحد من كبار
المسؤولين ليرجوني فى تعيين أحد أو فى طلب بضاعة من البضائع
المستوردة .. شيء غريب ..

إلى أن كانت ليلة .. وكنت مدعوا إلى حفلة زفاف كريمة السيد
محمد البيسوى رئيس مجلس إدارة الشركة الصناعية لأعمال البناء
وفوجئت بخديجة هناك .. إنها تجلس على المائدة الرئيسية بجانب
الشخصية التى أدين لها بالفضل .. الشخصية المتصلة .. وهى

تتضحك فى بساطة معه ومع زوجته كأنهم عائلة واحدة .. إبنى أنا
نفسى لا أستطيع أن أتضحك معه أو أجلس معه هذه الجلسة .. يا
خير ..

ربنايستر ..
وكنت قد بدأت أعترف بفشلى فى كل أحلامى المتعلقة
بخديجة ..

لقد أخذت منى ولم آخذ منها ..
لقد كانت طول هذه المدة تربطنى دون أن تربط نفسها بشيء ..
لقد ربطتنى فى عملياتها حتى تحمى نفسها إذا حاولت أن أكشفها ..
وتركت لى حيل أحلامى وشجعتنى على أن أشتتها إلى أن تم لها
تحقيق العملية .. ثم بعد ذلك لا شيء .. وربما لم تنس أنى كنت
موظفا صغيرا وليس من حقى أن أتطاول عليها .. ولم تنس أنى أبعدت
عن العمل صديقها سليمان عبد العزيز رغم أنه أستاذى وصاحب فضل
على ورغم أنها — هى وهو — كانا يطمئنان إلى ..
فشلت مع خديجة ولكنى لم أستطع أن أقدر نتيجة هذا الفشل ..
ثم ..

بعد شهرين من عودتى من لندن قرأت فى صحف الصباح أنى لم
أعد رئيسا لمجلس الشركة العربية لإنتاج المتطلبات الشعبية ..
من هو الرئيس الجديد ..

إنه السيد سليمان عبد العزيز ..
أى خديجة .. جيغى .. إنها هى .. هى التى عزلتنى وهى التى
وضعت مكانى سليمان عبد العزيز ..

لا يهم إن هذا يحدث لكل رؤساء مجالس الإدارات وكل الوزراء .. أن يستيقظوا في الصباح ليقرأوا في الصحف أنهم أصبحوا في الشارع ..

وأنا مازلت رجلا إداريا فنانا ، وفن الإدارة كان يوحى إلى وأنا رئيس مجلس الإدارة أن أحسب حساب اليوم الذي سأبعد فيه عن المنصب وكنت أعلق أمامي يافطة مكتوب عليها « إن دامت لغيرك دامت لك » . وأعد بناء المستقبل الجديد الذي ينتظرنى .. وقد أعدته واستطعت خلال العامين اللذين قضيتهما رئيسا لمجلس إدارة أن أرتبط بأربع شركات أجنبية أصبحت وكيلا لها في الشرق الأوسط بعد أن تركت المنصب ..

إنى الآن صاحب شركة استثمارات دولية ..
ومركز الشركة فى أبى ظبى ولى مكتب فى الكويت وأفكر فى افتتاح مكتب فى ليبيا .
ولم أنس .. خديجة .. جيحى ..